

طريق السماء

« انا هو الطريق والحق والحياة » (يوحنا ١٤ : ٦)

تأليف

المرحوم إقسن منسى يوحنا

راعي الكنيسة القبطية الارثوذكسية بملوي سابقاً

عنيت بنشره

جمعية المحبة القبطية الارثوذكسية

بالقاهرة

* * * *

طبعة رابعة سنة ١٦٥١ ش — ١٩٣٥ م

مطبعة الاقتصاد بشارع الفجالة بمصر

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY



32101 015450859

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*

--	--

المزمور الثاني

Yūhanna

طريق السماء

« انا هو الطريق والحق والحياة » (يو ١٤ : ٦)

تأليف

المرحوم القس منسى يوحنا

راعي الكنيسة القبطية الارثوذكسية بملاوي سابقاً

عنيت بنشره

مجنيّة المحبة القبطية الارثوذكسية

بالقاهرة

* * * *

طبعة رابعة سنة ١٦٥١ ش — ١٩٣٥ م

مطبعة الاقتصاد بشارع الفجالة بمصر

(Arab.)

BX136

.2

.483

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

DUPL



32101 015450859



(المرحوم القس منسى يوحنا)

86-1334523

جَعِيَّةُ الْحَبَّةِ

الْقُبْطِيَّةُ الْارْثُوْدُكْسِيَّةُ

كلمة الجمعية

تعمل هذه الجمعية بعون الله وارشاده لافتقاد النفوس وخلاصها ونشر تعاليم الكنيسة الارثوذكسية وشرح عقائدها وهي لا تألو جهداً إلا بذلته ولا طريقاً مجدياً فعلاً إلا سلكته ومع ما تؤديه في هذا السبيل من الخدمات بطريق الوعظ والارشاد وتعليم اللغة القبطية والألحان الكنسية الى غير ذلك من الأعمال الخيرية الجليلة قد قدرت ما للكتب المفيدة من الأثر الفعال في تنوير الأذهان وتثبيت العقيدة والايمان وتغذية النفوس وتدعيم البنيان فانشأت بعون الله مكتبتها الجامعة وكان لأقبال الشعب على اقتناء الكتب منها اكبر مشجع لها في عملها فأخذت على عاتقها القيام بطبع ونشر كتب الكنيسة ومؤلّفات علمائها وثمرات افكار ابنائها الغيورين. وقد اعانها الرب فقدمت لأبناء الطائفة العزيزة في غضون عام واحد كتاب اسرار الكنيسة السبعة لحضرة الاستاذ الكبير حبيب افندى جرجس مدير المدرسة الاكيريكية وكتاب مريم العذراء لحضرة الواعظ الفاضل الشماس ميخائيل افندى شحاته

ونبذة عن الصوم لحضرة الاستاذ القدير راغب افندى عطيه
المدرس بالمدرسة الاكليريكية واخرى عن التثليث والتوحيد
لحضرة الواعظ الغيور رئيس الشمامسة الخواجا عياد

ونظراً لان لتفريد الطائفة العزيز الطيب الذكر الممنوح القس
منسى يوحنا راى الكنيسة القبطية بملوى سابقاً مؤلفات ثمينة
قيمة بعضها سبق طبعه ونفذت الكميات المطبوعة منه والبعض
الآخر لم يطبع بعد ، فقد استأذنت الجمعية حضرة شقيقه الفاضل
وهبه افندى يؤنس في طبع هذه المؤلفات على نفقتها وتوزيعها
بمعرفتها فتفضل حضرته باجابتها الى طلبها رغبة منه فى تخليد ذكرى
شقيقه الراحل الكريم وتعميم الفائدة من ثمرات افسكاره واجمانه

والجمعية تقدر الفضل لحضرته احسن تقدير وتقدم له الشكر
الجزيل وتسأل الله ان يكثر من امثاله الغيورين على مجد الكنيسة
العاملين على نشر تعاليمها ويسرها ان تقدم الآن للشعب الكريم
مؤلفاً من هذه المؤلفات ألا وهو كتاب « طريق السماء » وهو
سفر نفيس غزير المادة سلس الاسلوب يحوى بحثاً روحياً عميقاً
مشبعاً للنفس وستوالى الجمعية طبع باقى هذه المؤلفات الجليلة
الواحد منها بعد الآخر سائلة من الله ان يحقق الغاية منها فى خلاص
النفوس ورفع شأن الكنيسة واعادة مجدها الغابر وان يكافىء
جميع الاخوة الغيورين القائمين بتشجيع الجمعية وتوزيع مطبوعاتها
بخير المكافأة ونعم الجزاء . له المجد الدائم الى الابد آمين

كلمة عن المؤلف

نبح الله نفسه

ولد الفقيه العزيز سنة ١٨٩٩ بناحية هور مركز ملوى من ابوين مسيحيين تقيين كريمي المحمد عريق النسب ومات أبوه وهو في سن الطفولة فعنيت أمه بتربيته تحت رعاية جده الوقور ونظراً لما كانت عليه رحمها الله من الصلاح والورع والحكمة وكرم النفس والبر بالفقراء والمساكين والعطف على الارامل واليتامى والمجربين فقد تشرب الفقيه منها هذه السجايا الحميدة وترعرع في كنفها ونما في أحضان الفضل والتقى وخصه الله فوق ذلك بذكاء حاد وعقل راجح وفكر ثاقب .

وكان حبه الكنيسة الارثوذكسية غريزة متأصلة في نفسه وبلغت شدة تعلقه بها انه ألم بالكثير مما يتلى فيها وهو طالب بالمدارس الابتدائية ولم يكن قد تجاوز الثانية عشرة من العمر . ثم دفعته غيرته على تقدم الكنيسة ونماؤها على ان يكرس حياته لخدمتها فالتحق بالمدرسة الاكليريكية وهو في السادسة عشرة من عمره بعد تردد حضرة مديرها في قبوله نظراً لصغر سنه ولزعم بانه وهو في هذه السن لا يقوى على تحمل اعباء الدراسة بها ولكن ما ان مرت بضعة

شهور على وجوده بالمدرسة المذكورة حتى أصبح موضع اعجاب
 حضرات مديرها واساتذتها لما أظهره من النبوغ الفائق واستمر كل
 سنى الدراسة فيها متفوقاً على اقرانه مضرب المثل بينهم فى نبل الاخلاق
 وعلو الهمة وقوة الارادة وشدة العزيمة واصالة الرأى . ولم يكن
 يكتفى بما يتلقاه فى المدرسة من الدروس المقررة بل كان يحصل على
 كل مفيد من الكتب الكنسية ومن مؤلفات العلماء اللاهوتيين
 والمؤرخين ويدرسها بعناية تامة فالتسعت بذلك مداركه وكثرت
 معلوماته وعظمت ثقافته .

ولما ان تخرج من المدرسة الاكليريكية عين واعظاً لكنيسة
 ملوى القبطية فقبول فيها بادية ذى بدء مقابلة شاب فى العشرين
 من عمره ولكن سرعان ما وجد فيه شعبها واعظاً تقياً قديراً ومعلماً
 فاضلاً حكيماً ومرشداً صالحاً أميناً فأحبه جميع افراد الشعب حباً
 جماً وانزلوه أحسن منزلة فى نفوسهم . وان انس لا انسى موقفهم
 الرائع حينما قرأوا فى احدى الصحف ان الطيب الذكر نيافة مطران
 المنيا السابق قرر نقله من كنيستهم الى كنيسة سمالوط فلقد ثارت
 عند ذلك ثأرتهم وقاموا قومة رجل واحد معترضين على نقله وأنفوا
 من بينهم وفداً قابل نيافة المطران فتفضل نيافته وهذا خواطرهم
 بنفيه أشاعة نقله تقياً باتاً وابلغهم ان واعظهم عندما زار كنيسة
 سمالوط تلبية لدعوة اعضائها تعلق به أهلها وأخذوا يمدون السبيل
 لتعيينه فى كنيستهم ولكن نيافته لم يوافقهم على ذلك لما يعلمه
 من شدة محبة شعب ملوى له ودرجة تمسكهم بوجوده بينهم

واذكر بهذه المناسبة ان اثنين من أصحاب النيافة والمطارنة عرضا عليه الخدمة معهما نظير مرتب كبير يغري ولكنه فضل البقاء بكنيسة ملوى نظراً لما وجدته في أهلها من المحبة والاخلاص والوفاء غير ناظر الى الماديات لانه لم يكن ينبغي سوى خدمة الكنيسة والعمل على تقدمها .

وقد رُسم كاهناً لكنيسة ملوى في يناير سنة ١٩٢٥ بناء على تزكية اجماعية من شعبها وكان يوم رسامته يوماً مشهوداً اشترك في الاحتفال به جميع أهل المدينة على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم وكان الكل يهنئون بعضهم بعضاً .

وكانت حياة الفقيد نبح الله نفسه سلسلة جهاد متواصلة الخلفات فانه علاوة على اضطلاع به بمسؤوليات الخدمة بالكنيسة وافتقاد الرعية والقيام بالوعظ والتعليم كان يدأب دائماً على الاطلاع والبحث والتأليف والنشر، ولقد تمكن في غضون تسع سنوات من تأليف خمسة عشر مؤلفاً قيماً من بينها كتاب تاريخ الكنيسة القبطية ، هذا فضلاً عما كان ينشره في الصحف والمجلات من البحوث الروحية والادبية وعن تحمله اعباء ادارة وتحرير مجلة الفردوس .

ولقد برز الفقيد ابان الحركة الوطنية فكان فيها خطيب ملوى الذى يشار اليه بالبنان يدعو دائماً الى الاتحاد والاخاء والجهاد فى سبيل اسعاد الوطن العزيز •

واليه يرجع الكثير من الفضل فى حمل اهالى ملوى على الاكتفاء

باقامة المآتم لمدة ثلاثة ايام وكان من عادة البعض أقامتها لمدة اسبوع والبعض الآخر لمدة خمسة عشر يوماً

وظل الفقيد مع ما كان يقوم به من الخدمات العامة السالفة الذكر نشطاً في خدمة الكنيسة عاملاً قوياً في سبيل نهضتها وقد ألف اتحاداً من حضرات زملائه قساوسة ووعاظ كنائس البلاد المجاورة وأخذ يعمل معهم على انعاش هذه الكنائس باقامة مجامع بها يتبادلون الوعظ فيها وكان لهذه المجامع بعون الله اثرها الفعال ومع ما بلغه الفقيد من سمو المكانة في النفوس بسعة علمه وغزارة فضله وعلوهمته فانه كان بعيداً كل البعد عن الزهو والخيلاء مثالا للتواضع وانكار الذات

ولقد حلت به في سنى حياته القصيرة تجارب متنوعة فتحملها بالصبر مقدماً عنها لله خالص الشكر . جرب في ابنائه فكان كلما رزق ابناً اختطفه الموت منه ، وجرب كثيراً في صحته . ثم فجع في اليوم الثاني من ديسمبر سنة ١٩٢٨ اى قبل انتقاله الى جوار ربه بعام ونصف عام بوفاة المرحومة والدته العزيزة التي يرجع اليها الفضل في تربيته وتهذيبه كما فصلنا نخسر بوفاتها اعز من في الوجود اليه واكثرهم حنواً وعظماً عليه وكان حزنه عليها شديداً لدرجة انه كان يصلي بالالحان الحزينة مناجياً روحها الطاهرة . وبالرغم من شدة وقع هذه المصائب في نفسه فانها لم تنل من عزيمته أو تضعف من مجهوداته الجبارة في خدمة كنيسته وامته تلك الخدمة التي كرس حياته لاجلها والتي ظل يؤديها بكل أمانة ونشاط حتى اقعده المرض عنها مرغماً

وفي يوم الجمعة ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ تحدث الى من كانوا في زيارته للاستفسار عن صحته قائلا لهم «سأموت الليلة فارجو ان تصلوا علي في ملوى وتدفنوني في هور» فكان شأنه في ذلك شأن غيره من الابرار القديسين الذين يشعرون بدنو الاجل وقرب الساعة وما وافت الساعة الثانية عشر من مساء اليوم المذكور إلا وفاضت روحه الطاهرة الى بارئها فلاقى وجه ربه راضياً مرضياً.

وفي صبيحة اليوم السابع عشر من شهر مايو سنة ١٩٣٠ سرى نعيه بسرعة البرق في جميع انحاء ملوى وهور والبلاد المجاورة فاضطربت النفوس وخفقت القلوب وسالت العبرات

واقبل القوم على داره ووجوههم واجمة وقلوبهم دامية، كل يريد ان يلثم يديه متبركاً منه ومودعاً له قبل ان يلف في كفيه ويدرج في نعشه. واكتظت شوارع المدينة بالاهلين من جميع الطبقات والمذاهب والملل وظلوا واقفين وكأن على رؤوسهم الطير منتظرين ميعاد تشييع جنازته حتى اذا ما أطل عليهم نعشه محمولا على الاعناق صرخوا صرخة الحزن من الاعماق وتزاحموا حواليه وخلفه باكين مولولين وكان اخواننا المسامون يتهافتون على حمل نعشه قائلين للمسيحيين «دعونا نقوم بواجب الوفاء له فلقد أخلص في حياته الود لنا بمثل ما أخلص لكم وخدمنا كما خدمكم وليس حزننا عليه باخف من حزنكم» وسار موكب جنازته نلازمه الروعة ويحدوه الجلال حتى وصل الى الكنيسة القبطية حيث صلى على الفقيد نفيف من الكهنة وأبنة كثير من الخطباء ثم استأنفت الجنازة

بعد ذلك سيرها حتى خرج به القوم من ملوى الى مدفنه ببلدة
هور ، خرجوا به من المدينة التي تفانى في خدمة كنيستها وفي
حب شعبها

خرجوا به والكل باك حوله صفقات موسى يوم دك الطور
حتى اتوا جدثاً كأن ضريحه في كل قلب موجد محفور
وبعد ان وورى الفقيد التراب انصرف الجمع وهم يبعكون
شبابه الغض ويترحمون عليه ويدكرون فضائله ويعددون مآثره
ووردت الى عائلته رسائل التعازى من جهات القطر ومن
كافة الطوائف وكلها تم عن تقدير مرسلها لعظم الخسارة في فقده
كما رثاه في المجلات الدينية كثير من عارفي فضله .

ونكتفي هنا بان نأتى بنص الكلمة التي نشرها بمجلة اليقظة
الغراء حضرة الاب المحترم القمص ابراهيم لوقا راعي الكنيسة
القبطية بمصر الجديدة : —

« رقد في الرب في ليلة ١٧ مايو سنة ١٩٣٠ القس منسى يوحنا
راعى كنيسة ملوى القبطية وهو لا يزال في ريعان شبابه وزهرة
عمره وكان لنعيه رنة حزن عميق وأسف شديد ليس في ملوى فقط
ولكن في معظم انحاء القطر نظراً لما كان عليه نبح الله نفسه من
الصفات الطيبة والامتيازات الخاصة

لقد كان القس منسى خادماً غيوراً يدأب بلا انقطاع على القيام
بمسؤوليات خدمته وكان واعظاً قديراً ممن تفتخر بهم منابر الوعظ

والخطابة وكان مؤرخاً ضليعاً وباحثاً مدققاً وكان مؤلفاً واسع
الاطلاع كثير النشر فقد وضع عدة كتب روحية وتاريخية
ولاهوتية علاوة على مجلة (الفردوس) التي ظل يصدرها حتى دعاه
الرب لملاقاته في عالم الراحة الابدية

وقد كان الراحل الكريم نبح الله نفسه في فردوس النعيم قد
شرع في طبع كتاب ثمين عنوانه (شمس البر) مع مؤلفات اخرى
ولم يمهله القدر حتى يتم طبعها فكتب قبيل انتقاله بدقائق معدودة
خطاباً لأحد اصدقائه الخصوصيين حضرة الخواجا منصور ميخائيل
يوصى فيه بتكليف محرر هذه المجلة باتمام طبع هذه المؤلفات وان
يخصص دخلها لاحد المشاريع الخيرية وقد شرع محرر هذه المجلة
فعلا في اتمام هذا المشروع احتراماً لوصية الراحل العزيز

ومحرر هذه المجلة يؤلمه كل الالم ان يخط بقلمه نعي هذا الراعى
الامين لما كان بينهما من المودة الاخوية والرابطة القلبية ولكن
هكذا شاءت ارادة الرب والتسليم واجب محتوم

ونحن نسأل الله ان يسكب نعمة العزاء السماوى على قلب جده
الشيخ الوقور وزوجته الفاضلة وان يمنحهما قوة الصبر والاحتمال «
وكذلك نأتى بنص كتاب التعزية الذى بعث به حضرة الفاضل
القس توفيق جيد سكرتير سنودس النميل : —

حضرة الاخ الفاضل وهبه افندى

سلام لكم من أب الرأفة وإله كل تعزية الذى يعزينا فى كل

ضيقتنا حتى نستطيع ان نعزى الذين هم في كل ضيقة بالتعزية التي
تعمزى نحن بها منه .

اليوم فقط وقع بصرى على هذا الخبر المفجع ، فكان وقعه
على نفسي وقع الصاعقة . حقاً لقد شعرت اننى أمام خطب جليل
وأمام كارثة مدهمة وأمام بلوى محرقة . كيف لا وقد خسرنا شاباً
من انقى الشبان وارقاهم علماً وخلقاً . بل خسرنا عاملاً فى كرم الرب
من افضل العمال واقواهم فصاحة وكتابة ونطقاً . لا بل خسرنا اخاً
وصديقاً هو وليد مسقط رأسنا وقد رفع رأسنا فى مركزنا
ومديريتنا وسائر بلاد قطرنا شمالاً وجنوباً غرباً وشرقاً فياها من
خسارة فادحة تدمع امامها العيون وتدمي لها القلوب

ولكننى اسمع صوتاً يقول : « أجل . لئن كنتم قد خسرتموه
ياسكان الفانية فاننا قد ربحناه نحن سكان السماء » فالراحل لم يفقد
بل هو موجود وما هو إلا قد غير مكانه . وياها من مبادلة راحة
ان يبدل العالم السفلى بالعالم العلوى ، ارض الشقاء والعناء بسماء الراحة
والهناء . وادى الاضطراب والدموع بجنة الأمن والهجوع .
اجساد الاشرار الناقصين بارواح الابرار المكملين . نعم فلقد
ابلى بلاء حسناً فى معترك الحياة وانجز فى فترة قصيرة من العمر
ما يعجز عن انجازه الكثيرون فى عمر مديد فاستحق ان ينقل من
ميدان الجهاد الى مقر المكافأة والثواب ولسان حاله قول الرسول
المغبوط « جاهدت الجهاد الحسن . اكملت السعى . حفظت الايمان
واخيراً وضع لى اكليل البر »

فتشجع يا أخى ولا تجزع — اصبر ولا تضجر — اشكر ولا تكفر . والله الذى قال « كأنتان تعزیه أمه هكذا اعزیک انا يقول الرب » هو يعزیک تعزیه متناسبة مع التجربة »

لقد جاهد فقيد الكنيسة الشاب جهاد الابطال ورقد فى الرب
فقال اكلیل الحیاة . جعل الله من سيرته العاطرة خير مثال يحتذیه
العاملون المخلصون ؟

تحية الشقيق

يا شقيقى :

الى روحك الطاهرة ابعث بتحية من قلبي المتوجع لفراقك
وانتظر بفارغ الصبر ذلك اليوم الذى يجمعنى بك في فردوس
النعيم . لقد كنت في حياتك مصدر سعادتي وفخاري فبهات لى بعد
موتك ان يندمل جرح قلبي أو يزول شيء من حزنى عليك . أما
أنت فلتتمتع في السماء بشمرات إيمانك وجهادك ولتقر عيناً فان ذكرك
ههنا خالد بما خلقت من مآثر جليلة لا يمكن ان تمحى وها هي
مؤلفاتك تقدم لابناء كنيستك فيجدون فيها غذاء لنفوسهم
ويحفظون لك من اجلها احسن الذكري ؟
شقيقك الحزين
وهبه يؤنس

دعاء

قال الرب لثنائيل « الحق الحق أقول لكم من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الانسان »
(يو ١: ٥١)

« لأن المسيح لم يدخل الى اقداس مصنوعة بيد أشباه الحقيقية بل الى السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لاجلنا » (عب ٩: ٢٤)
« أيها الآب القدوس يا من تريد أن جميع الناس يخلصون والى معرفة الحق يقبلون . أتقدم اليك بنفس منسحقة وقلب منكسر طالباً منك ان تجعل هذا الكتاب طريقاً صالحاً وسبيلاً مستقيماً الى السماء . وكما سخرت النجم السماوى لى يهذى المجوس الى مكان ولادة ملك اليهود ، هكذا اجعل هذا الدليل مرشداً صالحاً وقائداً أميناً للكثيرين فيأتى بهم ويهديرهم الى مخلصهم العظيم ومحبههم الكريم يسوع المسيح لى يحموا بدمه الطاهر للنجاة من الهلاك الابدى لانه لا دينونة على الذين هم فى المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح ، اذ انه هو النور الحقيقى وباب السماء والطريق والحق والحياة . لك معه ومع روحك القدوس المجد من الآن والى الأبد آمين »

الفصل الاول

في الحياة الفانية والحياة الباقية

« لان ليس لنا هنا مدينة باقية ولكننا نطلب العتيدة » (عب ١٣: ١٤)

ان السيد المسيح له المجد قد أكد لنا فناء هذه الحياة وزوالها بقول مؤثر واضح صريح أيده بمثل رائع هو أجل عبرة لمن يعتبر، ذلك هو مثل انسان كان قلبه منهمكاً انهماكاً شديداً في محبة العالم وملذات الحياة فأخذ يرتب حسب ارشاد عقله جميع مصالحه العالمية لمستقبل بعيد المدى كأنه خالد في الارض وقادر على أن يفعل ما يشاء ويتمتع بما يريد . وبينما هو مفكر في هذه الامور اذا بالحكم الاعلى وافاه وطالبه بالوديعة في ساعة لا ينتظرها قائلاً له « يا غبي هذه الليلة تطلب نفسك منك فهذه التي اعدتها لمن تكون » (لو ١٢ : ٢٠)

فما أجهل المرء الذي يظن أن الحياة في هذا العالم تدوم ولا يدري أن هذه الارض ليست بدار خلود فلا نلبث فيها قليلاً حتى نحطفنا الموت منها ويردنا الى المكان الذي أخذنا منه

ان كثيرين يميلون الى الخلود والبقاء في هذه الدنيا ولكنهم لا يدركون حقيقة حالهم فان نظرة واحدة الى قبور الذين سلفوا ولقطة صغيرة الى توابيت الموتى التي تمر بنا في كل ساعة تكفي لأن تقنع

قلوب الجميع بانهم على هذه الارض سائحون ولا بد يوماً يرتحلون
منها لأنهم « بنسمة الله يبيدون وبريح أنفه ينفون » (اي ٤ : ٩)
تطلع بعينيك تشاهد أمماً عديدة وممالك كبيرة بلغت من العظمة
اقصاها ومن القوة منتهاها . هذه كلها ستصبح بعد حين في حكم
العدم والنسيان . وقبلها كانت توجد ممالك اسمى شادت مجدها على
امتن الحصون وأعصى القلاع وأحرزت من السلطة والقوة والجاه
ما جعل الكثيرين يضمنون لها الثبات والخلود . ولكن أين هي
الآن ؟ لقد تداعت اركانها واندثرت معالمها وأدركها الفناء

أجل . الممالك تنمو وتسمو ولكنها لا تسمو الا للسقوط ولا
تعلو الا للانحطاط . كم مرة قرأنا في سجل التاريخ عن قيام ممالك
وسقوطها وسمعنا عن تنويع ملوك وهوتهم . الزوال هو الجبار
القوى الذى يتبع أثر مجده هذه الحياة وقد وصل الى اقاصي العالم
وختم كل الاشياء الارضية بعلامة « الفناء » . أن نبوخذنصر
عندما رأى وهو يتمشى على سطح قصره مدينة بابل العظيمة
واسوارها الشاخنة العريضة قال مفتخراً « أليست هذه بابل العظيمة
التي بنيتها لبيت الملك بقوة اقتدارى ولجلال مجدى » (دا ٤ : ٢٠)
وكيف لا يفتخر مثله بمدينة كان علو سورها ثلاثمائة وخمسون قدماً .
وكان عرضه كافياً لأن تمر عليه ثلاث عربات متجانية في صف واحد ؟
ولم لا يتباهى بها ويحسبها دائماً البقاء ؟

كان الرومان يدعون رومة عاصمة مملكتهم « المدينة الخالدة »
ولا جناح عليهم في ذلك لانهم كانوا يحكمون على الامور حسب

خلواهرها. بيد أن بابل المدينة العظيمة تلاشت ومملكترومه الواسعة
الاطراف بادت : وهكذا ترى كل ممالك العالم تدور جميعها على
فلك واحد وتنزل منزلة واحدة وهي النشأة فالنماء فالجد فالانحلال
فالسقوط فالقضاء

وما يصح على الجماعات ينطبق على الافراد أيضاً فليس من ثم
حي تراه الآن في الوجود الا ولأجله نهاية ولا يعيش انسان الا
ويزول . فقبلك كان قوم من البشر أمثالنا وكانوا يحبون الحياة كما
نحبها نحن . وكان منهم كثيرون يمتلكون القناطير من الذهب وكان
منهم أصحاب مراتب عالية وجاه عظيم . ولكن لما انصرم حبل
حياتهم لحقوا بمن سبقوهم وضمتهم الارض كما ضمت أسلافهم . وقد
كان من هؤلاء ملوك ووزراء وعظماء وقواد وأبطال جبارة دوخوا
البلاد بفتوحاتهم وغزواتهم . ولكن أين هم ؟ وأين جبروتهم
وقوتهم وصولتهم ؟ لقد درسها الموت ودكها المنون فكانت كأنها
لم تكن كما قال المرتل « اذكر كيف أنا زائل . الى أي باطل
خلقت جميع بني آدم » (مز ٨٩ : ٤٧)

فلا بد أن جميع البشر يموتون ويحتفى ذكرهم من الدنيا وكل
انسان يموت فينسى ويحل غيره محله فيخلفه من يستولى على عمله وبيته
وأراضية وشرفه والقباه كما خلف هو غيره ويزول اسمه من أفكار
الناس زوال جسده من بيته ومن بين اقربائه كقول ايوب الصديق
« كل أيام جهادي أصبر الى أن يأتي بدلي » (اي ١٤ : ١٤)
فناموس الفناء هو عام على كل المخلوقات حتى الكواكب

يصيبها السقوط وقيل انه شوهد عن بعد قاص « حرائق هائلة »
 ولاحظ الفلكيون انحلال عوالم وسقوط دوائر عظيمة كنا نظن
 انها تبقى لامعة الى الابد . فلا بد اذا ان يفنى جميع الناس رغماً
 عما يعملون ويجدون في تخليد اسمهم وذكراهم على الارض . فقد
 بنى القدماء أهراماً وحاربوا حروباً كثيرة واليهام أشار أيوب بقوله
 « حينئذ كنت نمت مستريحاً مع ملوك ومشيرى الارض الذين بنوا
 اهراماً لانفسهم » (اى ٣ : ١٣ و ١٤) وغيرهم شادوا بيوتاً رفعوا
 عمادها وأحرزوا لنسبهم شرفاً رفيعاً ومقاماً سامياً فذهبت جميع
 مساعيهم سدى ولم تأت بالفائدة التى قصدوها وجدوا فى السير
 للحصول عليها . فقد فنيت اجسادهم وعفت آثارهم ونسيت أسماءهم
 واندثر ذكرهم فكأنهم ما كانوا فالإنسان « كزهر العشب يزول . لان
 الشمس أشرقت بالحر فيست العشب فسقط زهره وفنى جمال
 منظره » (يع ١ : ١٠ و ١١)

كان الرومانيون يعبدون قياصرتهم ويحسبونهم آلهة فاذا مات
 احدهم قالوا انه ذهب وطلع نجماً فى القبة الزرقاء . ولكنك اذا ذهبت
 الى رومة وتفقدت بقايا تلك المدينة القديمة رأيت انه قد طلع على
 خرائب قصور قياصرتها الشوك والحسك . فما أجدر أن يقال أن
 اسماء الناس مكتوبة على صفحات الماء فهي تمحى سريعاً وتزول من
 أذهان خلفائهم ولا يبقى لهم ذكر بين الناس رغم ما يفعلون لابقاء
 اسمائهم وتخليد ذكرهم كما قال الجامعة « ليس ذكر للاولين والآخرين

ايضاً الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم»
(جا ١ : ١١)

ولكن مع ذلك نحمد كثيرين من بنى البشر يظنون انهم مخلوقون لهذه الارض وان هذه الحياة مقرهم ومقامهم ولذا تراهم يجهدون انفسهم في سبيل الحصول على خيراتها والتمتع بملذاتها ففى « باطنهم ان بيوتهم الى الابد مساكنهم الى دور فدور » (مز ٤٩ : ١١) غير أن هؤلاء في ضلال مبين لان هذه الارض بالنسبة الينا ليست وطناً لنا بل هي بمثابة طريق او سبيل للوطن الحقيقي والحياة العتيدة

قال الرسول بولس « لاننا نعلم انه ان تقض بيت خيمتنا الارضى فلنا في السموات بناء من الله بيت غير مصنوع بيد ابدى» (٢ كو ٥ : ١) وبيت خيمتنا الارضى الذى يشير اليه الرسول يفهم على ثلاثة انواع أى يقصد به ثلاثة منازل نسكنها ادمنا فى هذه الحياة وهي تحقق لنا الفناء وتؤكد لنا الزوال : —

الاول : هذا العالم السفلى العنصرى الذى يشهد لنا عنه الكتاب الالهى بأنه لا بد ان يبدى ويزول بقوله « ولكن سيأتى كلص فى الليل يوم الرب الذى فيه تزول السموات بضجيج وتنحل العناصر محترقة وتحترق الارض والمصنوعات التى فيها » (٢ بط ٣ : ١٠) ومن ذلك ينبغى حيث ان ارواحنا غير قابلة الفناء ان نهتف مع الرسول قائلين « ليس لنا هنا مدينة باقية لكننا نطلب العتيدة »
الثانى : هو منازلنا المادية التى نسكنها واتى مهما بذلنا الجهد

في تحسينها وترتيبها لا بد لنا أن نتركها كما يقول القديس
أوغسطينوس « لا تقل أن بيتك هو ملائكتك لأنك ورثته من أبيك
لأن ذلك يدل على أن أباك قد جاز فيه وتركه ومضى وهكذا أنت
تجوز فيه وتتركه لأبنك وهو أيضاً يعبر فيه جائزاً ويتركه لذيره »

الثالث : جسدنا هذا المائت القابل للفساد ليس هو مسكن
أرواحنا على حصر الكلام بل هو بمنزلة المظلة كقول الرسول
بطرس « عالمنا أن خلع مسكني قريب كما أعلن لي ربنا يسوع
المسيح » (٢ بط ١ : ١٤) أي أن جسدنا هو مثل الخيام التي
يستظل بها المتغربون في البراري ولهذا نحن نتعهد من ثقله كما يشهد
بذلك الرسول بولس قائلاً « فأننا نحن الذين في الخيمة نحن مثقلين
اذ لسنا نريد أن نخلعها بل أن نلبس فوقها لكي يبتلع المائت من
الحياة » (٢ كو ٥ : ٤)

فاذا أين هو منزلك الحقيقي ؟ ليس هو الا اللحد لجسدك
والمسكن الابدي لروحك . قال الجامعة « فيرجع التراب الى الارض
كما كان وترجع الروح الى الله الذي أعطاها » (جا ١٢ : ٧) فلهذا
يكون من الجهل العظيم أن يهتم المسافر في اقتناء املاك في احدى
المدن التي يعبر عليها وهو يتأكد انه لا يبقى بها . فيجب عليك
إذا أيها الانسان ان لا تدع عينيك تنظران الى كل ماتريانه في ارض
العبور وان لا تجعل قلبك يتعلق بشيء ما

كم من الناس شرعوا في بناء بيوت ولكن الموت لم يمهلمهم حتى
يتموها . وكم من اناس قاسوا التعب الشديد في بناء البيوت حتى

اتموا بناءها ولكنهم لم يسكنوها سوى مدة قصيرة ثم خرجوا منها
محمولين على الاعناق دون أن يكون لهم أمل في الرجوع اليها مرة
ثانية. فسيبلغنا اذاً أن نوجه قلوبنا حيث تكون نهايتها لانهما توفرت
اسباب الراحة في الحياة الدنيا فلا بد من تركها لانها « فانية »
ولنحرص جهداً لكي نبلغ (الباقية) الخالدة . قال سليمان الحكيم
« كل الانهار تجري الى البحر والبحر ليس يملآن . الى المسكن
الذي جرت منه الانهار الى هناك تذهب راجعة » (جا ١ : ٧)
فكل شيء بطبيعته يطلب مركزه الاول ويميل اليه هكذا ينبغي
لنفوسنا أن نحن للسماء وتشتاق للآله لان السماء مسكنها الابدی
والله مصدرها الذي خرجت منه . قال احدهم « لو دفعت حجراً الى
العلا لرأيتَه قلقاً مضطرباً لا يهدأ حتى يرجع الى الارض مركزه
والسمك لا يعيش خارج الماء لأن هناك غايته . والطير لا يستريح في
قفصه كما لو كان طليقاً حراً وهذه رغبته . والعضو المرضوض لا راحة
له الا اذا عاد الى اصله كما أنه لا هناء للمسافر حتى يبلغ غاية سفره »
فهكذا عبثاً تقود نفسك الى حيث توجد الملاذ العالمية لتريحها
وتشبعها فهي لا تستريح الا اذا استقرت في حضن مبدعها . خلق
الله كل الاشياء لأجل الانسان وخلق الانسان لاجله وحده وليكن
من المؤلم ان نرى كل المخلوقات تتمم الغاية التي لأجلها وجدت اي
ان تخدم الانسان وتقوم بمطالبه وليكن الانسان وحده
لا يعرف الغاية التي خلق لأجلها ولا يبالي بالآله الذي اوجده
فاعلم ايها الانسان ان الله لم يخلقك للارض بل للسماء ، لم يخلقك

للفانى بل للباقي وهوذا الرسول يقول « اهتموا بما فوق لا بما على الارض » (كو ٣ : ٢) « فمن العيب أن تقضي حياتك هنا في طلب الفانيات فابعث بآمالك وأشواقك الى الوطن العلوى واسمع قول المخلص « اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الابدية » (يو ٦ : ٢٧) لا تشيد اساساتك على الأشياء المنظورة ولا تبني بيوتك على أساس واه بل ارفع قلبك الى السماء « اعملوا لكم أكتياساً لا تقنى وكنزاً لا ينفد في السموات حيث لا يقرب سارق ولا يبلبى سوس لانه حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضاً » (لو ١٢ : ٣٣ و ٣٤) فالطبيعة الروحية لم تخلق لأمور هذه الحياة المادية بل لأمور أفضل فمن يشغلها بما ليس لها فقد حوّلها عن غايتها وانحرف بها الى الهلاك الابدى. قال داود النبى « من يصعد الى جبل الرب ومن يقوم فى موضع قدسه . الطاهر اليدين والنقى القلب الذى لم يحمل نفسه الى الباطل ولا حلف كذباً » (مز ٢٤ : ٣ و ٤)



الفصل الثانى

فى أن هذه الحياة ليست نصيباً لنا

«نصيبى هو الرب قالت نفسى من أجل ذلك أرجوه» (مرا ٣: ٢٤)

يمتاز الانسان عن سائر المخلوقات لان الله خلقه برأس مستقيم مرتفع الى السماء بينما ترى رؤوس كل المخلوقات الحية منحنية نحو الارض وذلك يدل على أن للانسان مركزاً خاصاً عند الله دون باقى المخلوقات التى لاتتعدى حياتها الارض ويثبت لنا هذه الحقيقة الرسول بولس فى قوله «فاذاً نحن واثقون كل حين وعالمون اننا ونحن مستوطنون فى الجسد فنحن متغربون عن الرب» (٢كو ٥: ٦)

ولا نجد برهاناً على أن هذه الارض ليست نصيباً لنا اقطع من شهادة الوحي الالهى وشهادة الاختبار فهما يؤكدان لنا بأنهم دار شقاء وتعب وان الذى يرغب فى امتداد حياته عليها يشترى امتداد زمن عذابه كمن كان مسجوناً فى سجن ردىء واذا ما جاء يوم اطلاقه أثر البقاء فى ضيق السجن . فالذى يقصر الله أتعبه ويختاره قبل حينه انما يمنع عنه الآلام والاعتاب كما قال أيوب «الانسان مولود المرأة قليل الايام وشبعان تعباً ان كانت أيامه محدودة وعدد أشهره عندك وقد عينت أجله فلا يتجاوزوه . فاقصر عنه ليستريح الى أن يسر كالأجير بانتهاء يومه» (اي ١٤: ١٠ و ١١ و ١٢)

فأيام حياتنا مع كونها قصيرة لكنها رديئة جداً وهوذا
يعقوب البار يشهد عنها قائلاً « قليلة ورديئة - تك ٤٧ : ٩ »
ويقول المرتل « انخرها تعب وبليّة - مز ٩٠ : ١٠ » ولو سئل
جميع المشرفين على الموت من بنى آدم عن هذه الحياة لصرخوا
بأعلى صوت قائلين « هي حزن وشقاء » فنحن نعيش في فساد الجسد
ولا نجد في الملاذ الكاذبة راحة وسروراً بل خوفاً يعذب الجسد
وحزناً يحرق العظام

ولكن مما يدعوا الى الاسف انه بالرغم عما في الحياة الحاضرة
من الالم والبؤس فان الناس يميلون اليها ويشتهونها وما أصدق
قول بعضهم « الحياة شقاء محبوب وجهنم ولكنها معشوقة .
يشكو الناس مرارة ما يجدون فيها فاذا دنا يوم الفراق تقطعت
الاكباد محسرة وارتعدت الاعضاء خيفة » ويؤكد ذلك ما قالته
احدى الفتيات « كل ما ليس اليماً في هذه الحياة سخيّف وكل ما ليس
سخيّفاً أليم . سينقضى كل شيء لاني أريد كل شيء وأنا لذلك
في هم مفزع ارسل حولي صيحات الألم ولكني مع ذلك أحب
الحياة . وأجد فيها كل شيء طيباً لذيداً حتى الدموع والالم
أحب الحياة بالرغم من كل شيء . انني احب ان أحيأ ومن القسوة
ان أموت »

فيالجهل الانسان الذي يجب البقاء في الحياة مع اشتراطها
على كل من يبقى فيها ان تعذبه وتؤلمه وما أكثر الذين يقبلون
هذا الشرط ليعيشوا . قال أحد ملوك اليونان « كون الانسان

ملكاً لا خير فيه» فإذا تؤمل إذاً من دوام البقاء في الحياة أيها التعيس وأمراضك تتتابع وتتواصل ، قال جان جاك روسو « ان الدواء الناجع لشفاء أمراض الناس هو الموت » فكم من أناس طلبوا ان تطول حياتهم فطالت ولكنهم لما لم يجدوا فيها الا الشقاء تخلصوا منها بالانتحار وقد قيل أن امرأة بعد ان احتفلت ببلوغها المائة عام وجدت ميتة بالاختناق وعرف بعد ذلك انها انتحرت تخلصاً من الحياة . فكل هذا يدل على ان هذه الحياة ليست مركز راحتنا ولا موضع نعيمنا

أى شيء في هذه الدنيا يجب لنا البقاء فيها ؟ هل الاخطار التي لا تكف والاضرار التي لا تنقطع ؟ ان الله اعطى الاسرائيليين بمصر ذئاباً حتي لا يشتهوا البقاء فيها ونحن أيضاً أعطي لنا في الارض شقاء حتي لا نحسبها مقراً لنا فكان ينبغي ان نتوق الى يوم الرحيل بفرح ولكن وأسفاه فأننا عندما نشعر بان الله يدعونا اليه نزعج ونضطرب وقد شابهنا افرام الذي شبهه الكتاب بحمامة رعناء (هو ١١ : ٧) ذلك لأن الحماية لجهلها تود البقاء في عشا مهما قتلت فيه فراخها أو كسر بيضها ومهما صادفت فيه الآلام والاهوال هكذا نحن مع كوننا في الحياة نقاسي كل انواع الشقاء فأننا نخشى أن نتركها أو نرحل منها

ان خروجنا من هذا العالم أفضل جداً وأكثر رحمة بنا من دخولنا اليه من كل الوجوه « يوم الممات خير من يوم الولادة » صحيح أنه ان ولد انسان في العالم يفرح الآخرون (يو ١٦ : ٢١)

وان مات يحزنون ويكتئبون . أما من جهتنا نحن شخصياً فيوم
المات الذى يضع حداً لاهتماماتنا الكثيرة واتعابنا واحزاننا
التي لاحصر لها وينقلنا الى الراحة والفرح والسعادة الابدية ، خير
من يوم الولادة الذى فيه دخلنا عالماً مملؤاً بالخطية والتعب
والبطلان وقبض الريح . نحن ان ولدنا لا نعلم كيف سنقضي حياتنا
أما ان مات انسان صالح فانه يعلم الى أين هو ذاهب وكيف سيقضي
حياته فى العالم الآخر . ان يوم الولادة يثقل كاهل النفس بحمل
الجسد الثقيل أما يوم المات فيحررها من ذلك الحمل

قال الحكيم « ثم رجعت ورأيت كل المظالم التي تجري تحت
الشمس فهوذا دموع المظلومين ولا معز لهم ومن يد ظالمهم قهر
وأما هم فلا معز لهم . فغبطت انا الاموات الذين ماتوا منذ زمان
اكثر من الاحياء الذين هم عائشون بعد . وخير من كليهما الذى
لم يولد بعد الذى لم ير العمل الردى الذى عمل تحت الشمس »
(جا ٤ : ١ — ٣) قال القديس يوحنا فم الذهب « انه ينبغى لنا
ان نفرح بموت طفل وموت رجل تقى يخاف الله لانهما قد اعتقا
من شقاء هذه الحياة وتمتعا بحياة مؤبدة » وقال أحد الافاضل
« ان السفينة ينبغى عليها الخوف ما دامت فى البحر فان الرياح
تطمها والزوابع تكسرها . وهكذا فالحياة الحاضرة ما هي
الا بحر مملوء صخوراً وخطاراً فمن يطلب العمر الطويل فهو يطلب
سلسلة مخاطر وتجارب وحروب »

سئل يوماً فيلسوف يقال له ستي سكورس أى نوع من انواع

السفن هو الأمن فأجاب «ان أمن السفن هي التي وصلت الى البر»
وهكذا يسوغ لنا أن نقول انه ما دام الانسان في الدنيا فهو في
عالم الخطايا فمالا لا نطلب بأوفر شوق ان نصل عاجلا الى
الموضع الذي نأخذ فيه راحتنا ونحصل على نجاتنا . قال القديس
كبريانوس « أن حربنا هنا هي مع الكبرياء والدنس والغضب
وحب المال ومع بقية الرذائل الجسدية فان قهرنا حب المال نهضت
الشهوة الجسدية واذا روضنا هذه الشهوة اعقبها الطمع واذا اقمعنا
الطمع تغلب الغضب وانتفخت العجرفة وتملق السكر وفرق الجسد
الالفة وقطعت الغيرة المحبة »

فلنسمع اذا وراء النجاة حيث تكون ، غير مبالين بموت الجسد
وفساده فان النوتية اذا هاج عليهم البحر لا يهتمون الا بنجاة
انفسهم واذا وصلوا الى البر سالمين لا ينظرون الى سفنهم ان كانت
قد تهشمت أم غاصت في الماء ولا الى امتعتهم ان كانت قد بقيت أو
فقدت بل ينظرون الى انفسهم . فليفسد الجسد ولتتحل عناصره
وليعد الى التراب كما كان فماذا يهم من امر الجسد اذا ما حصلت
الروح على السعادة الابدية ؟



الفصل الثالث

في اننا غرباء على هذه الارض

« لاني أنا غريب عندك نزيل مثل جميع ابائي » (مز ٣٩ : ١٢)

ان كثيرين من رجال الله قد تأكدوا هذه الحقيقة وهي انهم غرباء على الارض فقضوا حياتهم عليها تائبين في جبال وبراري ومغائر وشقوق . وها الكتاب يقول عن ابراهيم « بالايان تغرب في ارض الموعد كأنها غريبة ساكنًا في خيام مع اسحق ويعقوب الوارثين معه لهذا الموعد عينه . لانه كان ينظر المدينة التي لها الاساسات التي صانعها وبارئها الله » وقال ايضاً عن باقى القديسين « في الايمان مات هؤلاء اجمعون وهم لم ينالوا المواعيد بل من بعيد نظروها وصدقوها وحيوها وأقروا بانهم غرباء وزلاء على الارض » (عب ١١ : ٩ و ١٠ و ١٣)

قال داود النبي « غريب أنا في الارض فلا تخف عني وصاياك » (مز ١١٩ : ١٩) فاعلم ايها الانسان انك متغرب ومسافر ولا ريب أن في السفر تعباً ومشقة فكيف تهوى أن تدوم مسافراً مقاسياً شتى الاتعاب والمشقات التي لا تنتهى ولا تشتهى الوصول الى نعيم الفرح والسلام ؟ كل غريب يبغي من كل قلبه ان يصل الى وطنه فلماذا ونحن غرباء لا نظهر شوقاً نحو وطننا الحقيقي ؟ قال الكتاب الالهى « فان كنتم قد قتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله » (كو ٣ : ١)

فاعلم ايها المتغرب ان لك جسداً وروحاً فالجسد المأخوذ من
التراب يميل الى الارض التي اخذ منها . والروح التي نفخها الله تميل
الى الذي صدرت منه فاذا كنت تشعر بأن ميلك الى الارض أشد
من ميلك الى السماء فكن على يقين بأن جسدك منتصر على روحك
قال افلاطون فيلسوف اليونان « الانسان كائن مركب ذو طبائع
ثلاث احدها السائق والاخرى جوادان مجنحان أحدهما كريم
الاصل والثاني دنيئه . اما السائق فشأنه والحالة هذه غير السهل
اليسير فبينما جواده الكريم يهيم بالطيران بالمركبة والسمو به الى
ذرى المجد والفضائل اذ بالآخر الدنيء الاصل يريد حطها الى
حضيض الخمول والرذائل . ولكن اذا كان السائق (اى المرء نفسه)
حكيماً رزيناً كبح جناح الدنيء وأطلق للكريم العنان فسيما وتعالى
قدراً وفعلاً » فعليك ايها الانسان ان تتبين ان في داخلك عاطفتين
تريد الواحدة أن تعلق بك الى السماء وتنزع بك الاخرى الى الارض
فأيهما تنصر على الاخرى ؟ هوذا داود الذي عرف كيف يذل
عاطفة العالم يقول « واحدة سألت من الرب واياها التمس . ان
اسكن في بيت الرب كل أيام حياتي لسكى أنظر الى جمال الرب
واتقرس في هيكله » (مز ٢٧ : ٤) وقال أيضاً « لماذا أنت منحنية
يانقسي ولماذا تثنين في . ارتجى الله لاني بعد احمده لأجل خلاص
وجهه » (مز ٤٢ : ٥)

فلا تغتر ايها الغريب بما يقدم لك من الاكرام في ارض الغربة
لان الغرباء حين وصولهم الى دار غربتهم يقبلون فيها بفرح ولكن

حين ارتحلهم منها يحاسبون حساباً عسيراً . هكذا أنت اعتبر نفسك
غريباً مهما كان لك من المجد والغنى وثق انك منطلق الى اب غنى
والى ديار مخصصة ذات منظر بهى . قال المرتل « قلت للرب
انت سيدى . خيرى لا شيء غيرك . . . تكثر اوجاعهم الذين
اسرعوا وراء آخر . . . الرب نصيب قسمتى وكأسى . انت قابض
قرعى » (مز ١٦ : ٢ و ٥)

انه ما من فكر مقدس يصد مطامعنا اكثر من التفكير باننا
غرباء فان ذلك يوقف سير شرونا كقول الرسول بطرس « اطلب
اليكم كغرباء ونزلاء ان تمتنعوا عن الشهوات الجسدية التى تحارب
النفس » (١ بط ٢ : ١١) فاعرض على كل ما يعرضه أمامك العالم
لانك تجربى مسرعاً الى بيتك الابدى ومن أوشك ان ينتهى سفره
لا يحسن به ان يزين مكاناً ليقيم فيه هكذا انت قد وصلت الى
العالم بالامس وستفارقة اليوم او غداً فلا تطلب فيه مجداً ولا كرامة
فالى كتاب يقول « ملعون نصيبهم في الارض » (اى ٢٤ : ١٨)

كل غريب يحط رحاله فى بلد ما لايهتم ان كان يقضى فيها ليلته
مستريحاً او متعباً لأنه يرجو ان يستريح فى وطنه فى الليلة المقبلة
فانظر الى نعيم الحياة وبؤسها وراحتها وتعيبها وكرامتها وهوانها
وغناها وفقرها وصحتها ومرضاها نظرة واحدة لأن الذين
يفوزون بنعم الحياة سيتساوون عند النهاية باشقيائها . فارفع نظرك
الى العلا واصرفه عن الأرض وقل مع المرتل « من لى فى السماء

ومعك لا أريد شيئاً في الأرض » (مز ١٣ : ٢٥) واعتبر بقول الرسول « الوقت منذ الآن مقصر ليسكي يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم . والذين يبكون كأنهم لا يبكون والذين يفرحون كأنهم لا يفرحون والذين يشتركون كأنهم لا يملكون .. لان هيئة هذا العالم تزول » (١ كو ٧ : ٢٩ - ٣١)

قال القديس يوحنا فم الذهب مقارناً بين من يهتم بالسماء معتبراً الأرض دار غربه ومن يقصر كل همه على هذا العالم « انهما يشبهان تاجرين سافرا الى بعض الاقاليم لابتياح التجارات وحين بلغا سالمين وطلعا الى المدينة افترقا فمضى كل واحد منهما الى غايته أما أحدهما فانه شمر عن ساعد العزم وقام على قدم الاجتهاد وأخذ يجول الاسواق وأما كن المتاجر ويسأل السماسرة واهل الخبرة بتلك البلاد عن البضائع النافعة والمتاجر الراجحة ويجتهد في الابتياح ليلا ونهاراً ولا ينظر الى لذة ولا شهوة الى ان اكمل ما يحتاج اليه ثم استراح أخيراً . أما الآخر فانه عندما طلع الى المدينة اخذ يسأل اهلها عما بها من البساتين والحمامات ومحلات الخمر واما كن اجتماع المضحكين والحسان من النساء وما زال يقضي الاوقات هكذا ساعة في الحمام وساعة في البستان وساعة يأكل ويشرب وساعة يضحك على الحمايلين وكلما رأى رفيقه مجتهداً محصلاً لاصناف البضائع يخاطبه مغفلاً على الانهماك في التعب والاعراض عن مزاوله اللذات وهو لا يلتفت اليه ولا يرجع الى خسيس رأيه الى حين

انقضاء الأجل المفروض للتجار وضرب البوق بالرحيل وأقبل
رجال المملكة وحراس المدينة على اخراج الغرباء من مدينتهم
كالعرف المعتاد عندهم أما ذاك التاجر الحازم اللبيب فانه عندما سمع
صوت ابواق السفر نهض فرحاً مسروراً لسرعة العودة الى
الايوطان بما حصله من اصناف البضائع النفيسة ، ولوقت حزم
المتاجر وسار سالماً غانماً وأما ذلك العاجز الخائب فانه عندما
سمع صوت الرحيل وبلغ اليه الاجناد المخرجون الغرباء من
مدينتهم تيقظ من غفلات الجهل ونوم الكسل وأقبل على ذاته
بالبكاء والندم والاسف والعيول وهو يسترحم فلا يجد راحماً
ويستعطف فلا يجد متعظفاً حيث أصبح بين التجار فقيراً خائباً
اذ لا مال له ولا جمال ولا زاد ولا متاجر وهو مستقبل البرارى
الخوفة والطرقات الهائلة وحقيق بمثل هذا أن يموت خوفاً ويهلك
جوعاً وهلعاً»

لو كان لك ان تدوم في هذه الحياة لجاز لك أن تقتنى فيها
دوراً ومالا وتذخر الخيرات الوافرة الجزيلة ولكن كل ما تقتنيه
ههنا ليس هو من نصيبك لانه قريب ذلك الوقت الذى تخلفه فيه
لسواك . قال المرتل « من الناس بيدك يارب من أهل الدنيا
نصيبهم في حياتهم . بذخائرك تملأ بطونهم . يشبعون أولاداً
ويتركون فضالتهم لاطفالهم . أما أنا فبالبر انظر وجهك أشبع اذا
استيقظت بشبهك » (مز ١٧ : ١٤ و ١٥)

ان المسافر الفطن اذا جاز في بلدة أخذ معه منها ما يتمكن
من أخذه أو أرسل أمامه الى وطنه كل ما استطاع ارساله مما
يحمده ثميناً كذلك يجب على كل انسان باجتيازه في هذا العالم ان
يأخذ معه ما استطاع من ثمين الاعمال الصالحة . حقاً أن الانسان
سيخرج من الدنيا فارغ اليدين من كل شيء في العالم ولكن
يمكنه ان يخرج وقلبه مملوء من الايمان ويداه تحملان ثمر ايمانه

قال ان مدينة كان يقيم أهلها كل سنة ملكاً غريباً عليهم
وعند نهاية السنة يفاجئهم اهل المدينة من حيث لا يدري فيخلعونهم
من ملكه ويطوفون به المدينة عرياناً ثم ينفونهم الى جزيرة يموت
فيها جوعاً وحزناً . فحدث ان رجلاً حكيماً ملكوه عليهم ادرك
الامر واستطاع ان يعلم ما سيجرى له فشرع يبتلى في تلك الجزيرة
دوراً وقصوراً واخذ يرسل اليها كل ما ملكت يداها حتى نفى
اليها وكان قد أعد فيها كل خير ونعمة فعاش فيها غنياً رغداً مطمئناً
فلو كنا نتصرف في أمورنا الروحية تصرف هذا الرجل الحكيم
لأستطعنا ان نتقل من هذه الحياة مطمئنين لاننا اعددنا لانفسنا
في بيتنا الابدي كل وسائل راحتنا . وأحد الذين استعدوا جيداً
يوم الرحيل كان يصرخ قائلاً « لان خفة ضيقتنا الوقتية تنشيء
لنا اكثر فأكثر ثقل مجد أبدياً . ونحن غير ناظرين الى الاشياء
التي ترى بل الى التي لا ترى . لان التي ترى وقتية وأما التي لا ترى
فأبدية » (٢ كو ٤ : ١٧ و ١٨)

فيأياها المسافر الى الحياة الابدية لايهمك عدم اجلال الغير
لك واذا أعياك تعب الطريق فلا تغتم لانك لا بد واصل الى النهاية
ان عاجلا أو آجلا . واذا لم تكن ممن جادت عليهم الدنيا بخيراتها
فلا تحزن فأولئك الذين حازوا الغنى الطائل سيحزنون فيما بعد
أما أنت فستفرح . ان هذه الخيرات ستكون حملا ثقيلا عليهم في
الطريق ولا يقدرّون ان يمروا بها من الباب الضيق (مت ١٣: ٧)
(١٤) وهوذا الحكيم يقول عنهم « ومحبتهم وبغضتهم وحسد
هم هلك منذ زمان ولا نصيب لهم بعد الى الابد في كل ما عمل
تحت الشمس » (جا ٩ : ٦)

فالذين يحملون انفسهم احمالا ثقيلة يتأخرون لانهم لا يستطيعون
السير مسرعين في « طريق الارض كلها » (مل ١ : ٢٠) تلك الطريق
التي توصل الى الموطن الذي سيكون مقر الجميع الى الابد . اما الابرار
الذين طرحوا عنهم احمال العالم واثقاله فانهم يصلون اولا ويدخلون
باب السماء . واما « المتأخرون فلا يفرحون به » (جا ٤ : ١٦)
وهناك يعرفون ان خيرات العالم هي التي كانت علة هلاكهم
فيطرحونها مزدربين بها . فاختر لنفسك اذا « النصيب الصالح الذي
لن ينزع » (لو ١٠ : ٤٢) وقل مع القديس اوغسطينوس « انك
يارب خلقتنا لك ولن نزال معذيين الى ان نستريح بك »

الفصل الرابع

في حقيقة الموت

« أى انسان يحيا ولا يرى الموت. اى ينجى نفسه من يد الهاوية »
(مز ٨٩ : ٤٨)

ليس شيء من امور الدنيا الا وهو معرض للشك حتى قال بعض الفلاسفة « ان كل شيء يقبل الشك حتى قولى هذا أن كل شيء يقبل الشك » ومن الفلاسفة طائفة يعرفون بأهل الشكوك يشكون في كل شيء حتى في وجود ذواتهم ويعتبرون الحياة بما فيها كرؤيا منام . ولكن مهما وقع الشك في امور الحياة فانه يوجد أمر واقع لا دخل للشك فيه وهو الموت . ومن عجيب أمر الانسان ان يعتبر ما يراه من اباطيل الحياة كالحقائق ويعتقد بصحة الأمور التي يكون الشك فيها بينا واضحا بينما لا يهتم بأمر الموت الذي هو حقيقة لا ريب فيها . قال المرتل « باطنهم أن بيوتهم الى الابد مساكنهم الى دور فدور » ولاكنهم « مثل الغنم للهاوية يساقون . الموت يرعاهم ويسودهم . المستقيمون غداة وصورتهم تبلى . الهاوية مسكن لهم » (مز ٤٩ : ١١ و ١٤)

يدخل الانسان العالم من باب ولا بد له أن يخرج منه من

باب آخر فدخوله من باب الولادة وخروجه من باب الموت وعلى هذا المنوال نرى الناس على اختلاف مذاهبهم وحالاتهم واحداً داخلوا الى العالم وآخر راحل عنه ولهذا قال فيلاموس « ان حياة الانسان ليست الا ولادة وموتاً فعند ولادتنا نخرج من قبر مظلم وغند موتنا نلج قبراً أظلم وافزع » وقال ايوب الصديق « أليست ايامي قليلة . اترك . كف عني فاتبلج قليلا . قبل أن اذهب ولا اعود . الى الارض ظلمة وظل الموت . ارض ظلام مثل دجى ظل الموت وبلا ترتيب واشراقها كالدجى » (اى ١٠ : ٢٠ - ٢٢) والكتاب الالهى يصرح قائلاً « وضع للناس أن يموتوا مرة » (عب ٩ : ٢٧) وقد قال القديس اوغسطينوس « أمر موتنا هو أكيد بلا ريب . ولئن كان الطفل حين ولادته لا يعرف من أمر مستقبله شيئاً أيكون غنياً أم شقياً ولكن أمراً واحداً يعرف عنه بكل تأكيد هو التزامه بأن يموت »

ومتى عرفنا ذلك فما بالنا نعيش ونتصرف في الحياة تصرف من لا يموت قط . هل نظن ان هناك قوة أو حيلة يمكننا أن نستخدمها لنمنع حكم الموت علينا أو نؤخره ؟ هوذا القديس اوغسطينوس يقول « يمكن للناس مقاومة النيران الملتهبة وامواج البحر المزبدة والاسلحة المرفهة والملوك المقتدرين ولكنه حينما يأتي الموت فمن يستطيع أن يقاومه ؟ » وقال المعلم ترتوليانوس « ان الموت في قبضة الله كالمنجل المسنون

الباتر فانه تعالى يحسم به ويقطع ويحصد من هنا وهنا . لا يميز بين الملك المتوج الجالس على عرشه وبين العبد الذليل الذى يخضع له »

فلسنا نرى هنا اذاً إلا حياة يتبعها الموت وموتاً يلزم الحياة وفى الحقيقة فانه لا يوجد فاصل بين الاثنين فما الحياة الا باب يدخل منه الموت وما وجودنا على الارض الا سياحة للقبر فالنبض الذى يحفظ كيانتنا انما يسمعننا صوت اقدام الموت الذى يسعى الينا وما الدم الذى يجرى في عروقنا الا جار بحياتنا الى اعماق الموت . اليوم نرى اصدقاءنا فى الصحة وغداً نسمع اخبار موتهم . بالامس سلمنا على القوى واليوم يغمض عينيه . منذ ساعة ركبنا مطية السلام وفى بضع ساعات لا بد أن تأخذنا مطية الموت السوداء الى نهاية كل حي . آه ما اقوى ارتباط الموت بالحياة . فالحيوان الذى يلعب فى الحقل سيشعر عما قريب بالسكين . الثور والحمل اللذان يمرحان فى المرعى انما يسمنان لاجل الذبح ، والاشجار لا تنمو الا للقطع

ففى تأكدت ذلك لا توهم نفسك بطول العيش ولا تحدثها كأن الموت بعيد عنك بل قل لها ياترى هل يدركنا الموت فى بحر هذه السنة ام فى هذا الشهر أم فى هذا الاسبوع أم فى الغد أم فى هذا اليوم أم بعد هنيهة فقط . قل لها متى تخرجين يا نفسى من هذا الجسد واين يكون ذلك أفى الشتاء أم فى الصيف . فى مدينة

أم في قرية في الليل أم في النهار . أ يكون ذلك على غفلة ام بمرض
 أم بمحدث آخر من الحوادث . وما أصدق قول بعضهم « حياة
 الانسان كالعصفور الذي ينتقل من مكان الى مكان وهو لا يدري
 اين يلاقى حتفه أفى عشه أم وهو يستريح على شجرة أم وهو يلتقط
 في الحقل أم وهو يستقي من غدير »

صور الحكماء الموت على عمود عال بشكل رجل شجاع
 مترجل تظهر عليه علام البأس وهو متشح بملابس حالكة السواد
 بحالة ترهب النفس ووضعو في يده الواحدة منجلا وفي
 الاخرى قوساً وحجبوا عينيه بستر غليظ من قماش ثخين
 وجعلوا على رأسه اكليلا مضافوراً من حشيش الافسنتين وسدوا
 أذنيه بالرصاص ولم يضعوا في رجليه حذاء بل أجنحة كاجنحة
 جوارح الطير وقد قصدوا بشدة بأسه ان يرهقوا على
 اقتداره على امتلاك كل النفوس مهما كانت عظمتها . و ارادوا
 بالملابس السوداء أن يصوروا للناس ما يخلفه من الاحزان
 والحسرات . ومن تذرعه بالمنجل والقوس ان يدلوا على أنه يضرب
 الكل بلا استثناء فالبعيدون عنه وهم الشبان يرشقهم بقوسه
 والقريبون منه وهم الشيوخ يحصدهم بمنجله وقصدوا من اقبال
 عينيه ان يثيروا الى انه لا ينظر الى جلال العطاء ولا الى ضعة
 المتضعين . وأرادوا بحشيش الافسنتين ان الموت يخلف المرارة
 كما ارادوا من سد أذنيه ان يثيروا الى انه لا يسمع التهنيدات

والزفرات ولا يرهب من التهديد والتخويف . ومن جعل رجله
بلا حذاء الى انه يدهم الانسان في أى وقت . والوثنيون القدماء
لم يبنوا مذابح للموت بين مذابح آلهتهم الكثيرة المعلومه والمجهولة
لعلمهم بأنه آخر عدو قوى لا يدعن ولا يلين بواسطة من الوسائط
مهما كانت فالرشوة لا يلتفت اليها والتقدمة لا يكثر بها فلا
يرحم شببية ولا يشفق على شيخوخة

فكن على يقين أيها الانسان انك ساع الى الموت . قد تغتر
بهدوء في منزلك ولكن في نفس هذا الوقت الالوف يضطربون ،
قد تغتر بسلام تتمتع به الآن ولكن بيوتاً كثيرة في هذا الحين
مملوءة بالشقاء . وستمر الايام عاجلا وتقلب الاحوال ويصبح
ما عند سواك عندك وما عندك عند غيرك . فالموت يحصد كل
يوم مئات والوفاء . وفي هذه اللحظة كم من اناس يشيعون الى المقابر
ويحملون الى مقرهم الاخير . كم من دموع تنسكب وافئدة تتوجع
ونحن نتخضع بحاضرنا الذي ما أقرب تغيره !

كم من كثيرين على ابواب الموت ومع ذلك يظنون انه بعيد
عنهم . كم من كثيرين ينتظرهم الموت على ابوابهم ، بل كم من
كثيرين أوشك ان يدخل الى مخادعهم ، بل كم من كثيرين قد اقترب
من أسرهم ومع ذلك لا يفتكرون فيه . انه إذا التقت سفينتان
في البحر يظهر لكل واحدة منهما ان الاخرى تسرع في السير
وهي واقفة أو تسير قليلا ولكن حقيقة الامر ليست كذلك فان

السفينتين تسيران وعلى هذا المنوال نجد كثيرين اذا ما نظروا أحداً مات يتوهمون ان غيرهم يجرى الى الموت أما هم فباقون في الحياة لا يموتون ولكن داود النبي يقول « انا ذاهب اليه وأما هو فلا يرجع الي » (٢ صم ١٢ : ٢٣)

ومما يدهش ان كثيرين من الذين غاب اسم الموت من أمام عيونهم اذا قلت لهم ان فلاناً مات يبدون استغراباً كأنك اخبرتهم بأمر ليس من العادة وقوعه فهم يبادرونك بقولهم وكيف مات ؟ لا يستفهمون بذلك عن سبب الموت بل عن الموت نفسه . ولو قلت لهم ان فلاناً طار في الجو لما وقعوا في الاستغراب وقوعهم فيه عند ابلاغهم الخبر بموته . ويبدون استغرابهم بان يقول احدهم لقد رأيته بالأمس ويقول آخر لقد شاهدته اليوم فهم يظنون بان الموت عاجز عن ان يهد قوى الانسان في لحظة ويرديه في برهة من الزمان : وذلك دليل على ان أملنا الباطل يتغلب فينا على علمنا الحقيقي باننا نموت . قال القديس اوغسطينوس « الاغصان تسقط من الاشجار والاحجار من الابنية فلماذا نستغرب موت البشر أهل الفناء ؟ »

أليس شروق الشمس ومغيبها كل يوم يذكرنا باننا كما وجدنا في الحياة سنموت منها يوماً . تطلع فماذا ترى في هذا العالم . هوذا كواكب تبدو وتغيب وبدور تلمع وتنطفئ وزهور تنمو وتذبل واعمار تبتدىء وتنتهى وانسان يولد ويموت . كل ما حولنا

ينذرنا بزوال الحياة . النجوم المتساقطة تقول لنا ان الحياة زوال .
 الزهور الذابلة تقول لنا ان الحياة زوال . المقابر التي نشاهدها
 كل حين تقول لنا ان الحياة زوال . الصخور الهائلة التي مرت
 عليها الاجيال ونراها الآن تمحل الى ذرات كما كانت تصيح بنا
 ان الحياة زوال

ولكن نحن نسمع ذلك فنهزأ به ، نسمع ان انساناً يموتون
 فنقول ولكن نحن لنا الحياة . نرى انساناً تضمهم القبور فنقول
 ولكن نحن لنا القصور . نشاهد كثيرين ينحطون من مجدهم الى
 الحضيض فنقول ولكن نحن لنا المجد الذي لا يفنى . اسفى عليك
 ايها الانسان هل غرك ان الله اخذ امامك انساناً ومنحك أنت سنة
 واحدة او يوماً واحداً لتعيش ؟ هل تظن انك افضل ممن اخذ
 انك تعيش لا لانك تحب العيش بل لان الله احب . انك لم تمت
 الآن لا لانك تكره الموت بل لان الله لم يرد ان تموت . فلست اذاً
 حراً في ان تعيش او تموت برغبتك لانه لو كان ذلك صحيحاً لما
 مات احد لانه ما من احد يجب ان يموت . فالذين يموتون اذاً
 يموتون رغماً عنهم وستموت انت ايضاً رغماً عنك عندما يشاء
 الله سواء رضيت ام لم ترض . واذا اتاك الموت بغتة فلا تنسب
 له الخيانة والغدر بل انسب لنفسك الجهالة والغباوة لانه اشهر
 علينا عداوته من قديم الزمان فهو آخر عدو يبطل (١ كو ١٥ :
 ٢٦) فاذا فاجأك بدون ان تهياً لاستقباله فاللوم عليك انت

الذي تأمن لمن هو عدوك كما قال الكتاب « ويمحي عهدكم مع الموت ولا يثبت قيامكم مع الهاوية » (اش ٢٨ : ١٨)

فكل دقيقة من دقائق الحياة لا تسكاد تنمضي حتى يموت فيها الوف من البشر فلماذا تعد نفسك بين الذين يموتون بعد سنين ولا تحسبها بين الذين يموتون في هذه الثانية ؟ فكم من المدن والبلدان تمتلئ في كل جيل من شعوب جدد بعد ان يكون شعوب الجيل الماضي الذين كانوا قلوبهم كلهم قد ماتوا . فكما ان حياة اولئك قد انقضت هكذا تنقضي حياة هؤلاء ويأتي وقت لا اوجد فيه لا انا ولا انت . اذا الموت لا يشبع (حب ٢ : ٥) قال احدهم « انك منذ مائة سنة لم تكن في الوجود وبعد مائة سنة لا يكون لك وجود ايضا »

من عادات اهل احدى بلاد الهند انهم يقيمون احتفالا كل مائة عام في ساحة كان في وسطها صخرة مرتفعة ، وحين يتم الاجتماع في ذلك اليوم يخرج مناد في الناس قائلا « ليتقدم الآن ويصعد على هذه الصخرة من شهد مثل هذا الاحتفال منذ مائة عام » وحينئذ يسود على الكل صمت عميق وينتظرون حتى يبرز من بينهم رجل عبث به مر الايام وكر الاعوام فينتقل في مشيته ويصعد الصخرة ببطء ويظهر امام الناس منحني الظهر مبيض الشعر مجعد الوجه تكسو وجهه سحابة غم مما لحقه من البلاء ثم يتكلم بحزن عما شهدته في بحر المائة عام من سقوط ممالك وانهار

عروش وزوال اشخاص ويختم كلامه بقوله « كل ما استطيع ان اقله عن هذه الحياه انها دار زوال فكل ما شهدته زال كما انى انا ايضاً سأزول وسيأتى الاحتفال القادم وانا تحت اطباق الثرى وقد بلى لحمى وفى عظمى »

فكن على ثقة ايها الانسان انه كما سجل اسمك في عداد المولودين يوماً سيسجل ايضاً ضمن الاموات فى يوم آخر . وما صنعتته يوماً بأحد اقربائك المائتين سيصنع بك ايضاً يوم تموت . وكما تتكلم عن رحلوا قبلك وتقص اخبارهم فكذلك سيتحدث عنك من يبقون بعد رحيلك . وكما ورثت من سبقك سيرتك من يلحقك . ومهما بكى عليك وولول من تظن انهم يجبونك فلا بد يوماً يضحكون ويرجع اليهم السرور كما كان اثناء وجودك . سيأكلون على الموائد التى كنت تأكل عليها ويشربون فى الاقداح التى كنت تشرب فيها . وبينما تكون انت مرعى للدود والحشرات يكون اقرباؤك متنعمين بملك مبتهجين بميراثك . قيل ان احد الملوك وهو يموت رأى حوله اهله ييكون فقال لهم « جدت عليكم بالدنيا وجدتم على بالبكاء وتركتم لكم ما جمعت وتتركونى احمل على ظهري ما عملت » وقال داود النبى « نسيت من القلب مثل الميت » (مز ٣١ : ١٦)

أفلا تعلم ايها الانسان الذى تنوهم ان الارض دار بقاء انك تمشى على جثث الاموات وان الرماد الذى ندوسه بأقدامنا كان يوماً

اجساداً نضرة جميلة بهية يتباهى بها اصحابها وتستصير اجسادنا نحن على هذا النحو رماداً يدوس عليه من يأتون بعدنا . أجل . قد تشيد هنا داراً حسب رغبتك ولكن عليك ان تتأكد انك سوف تهجرها الى الابد وتستقر في حفرة تبلى فيها عظامك . نعم لقد تفوز بالرتبة العالية والوظيفة الرفيعة ولكنك ستنزل من مقامك وتسقط من درجتك وتدرج في الثرى بجوار احقر الناس واذلهم . وحينئذ لك فقط تغمض عيننا جسداً وتفتح عيننا نفسك وتدرى انك بنسيان الله ومحبتك للعالم قد انحرفت وتأكد ان كل شيء ما عداه باطل وتقول مع من قال « جبال الهاوية حاقت بي . اشراك الموت انتشبت بي » (مز ١٨ : ٥)

فهل هناك اذاً من شك في الموت ؟ هل يجسر انسان على القول انه يحيا الى الابد امام تلك القوة الهائلة العظيمة التي لا حد لها ؟ ضع في عقلك ايها الانسان كيف يتصرف معك الموت ببأس وجبروت وكيف يفصلك بقساوة عن كل ما ملكت يمينك وعن كل ما قضيت العمر في اقتنائه . عن اولادك الذين احببتهم وعن زوجتك التي اشتبهتها وعن اصدقائك الذين كانت تحلو لك عشرتهم . تذكر كيف يغمض عينيك فلا تعود فيما بعد ترى بهما احداً من البشر او تمتعهما بما كانتا تملكان للنظر اليه من الهيئات البهية ويسدانفك فلا تعود تستنشق الروائح الزكية . ويصم اذنيك فلا يكون لك من سبيل لسماع الاغاني المطربة والنفحات الشجية .

ويطبق شفقتك فلا تستطيع فتحهما لتلذذ نفسك بالماكل والمشارب.
 ويعقد لسانك فلا يتحرك لشم الناس واهانتهم ولا للافتخار
 والتباهي. ويشل يدك فلا تمتد لتناول الدراهم وقبض الدنانير. ويخلع
 قدميك فتعجز عن السعي للجمع والتكديس او للانتقام والاعتيال.
 ويسكن قلبك فلا يعود يهتز لفرح او يضطرب لحزن

ثم تعال بنا نتأمل في ما سيصير اليه الانسان بعد الموت .
 انظر لهذا وقد غاب في الرمس وتوسد التراب ثم شق عنه كفنه
 صبيحة ثالث يوم مات فيه واسأل نفسك هل هذا الذي كنت
 تراه قبلا ؟ ألا تراه جثة مشوهة مخيفة . ألا تشم رائحته النتنة
 الكريهة ما بالك تنفر منه وهو الذي كانت تنبعث من بين اردائه
 الروائح الزكية . وما بالك تحاول ان تهرب من امامه كأنه شبح
 وحش فاتك وهو عديم الحركة والقوة . ان لسان حاله يقول
 « أأنا الذي كنت تخشى صوتي ، ما بالك انكرتني ونسيتني
 كأنك لم تعرفني »

هذا هو الحال الذي سيصير اليه ذلك المتكبر او ذلك الفخور
 المعجب بنفسه وبجاهه وبغنايه وبجماله ، ذلك الذي كان موضع وقار
 عارفيه واحترامهم في المجالس ، ذلك الذي كانت تشتهي الناس ان
 تنال منه كلمة عطف او تتطلع اعينهم الى جماله البديع . ماذا
 جرى له ؟ لقد اصبح موضع النفور والكراهة عند كل من يشاهده
 حتى من احب محبيه وقد اسرع اهله فأخرجوه عاجلا من بيته

حتى لا يفسد هواء النرف برائحته الكريهة ولقد صدق ابيكتاتوس
في قوله « انا نفس تجر جيفة »

فما بالنا اذاً لا نفكر في اننا نموت والموت أمر محقق ؟ ذلك
لأننا ننظر الى معاصينا ونعتقد ان الموت ينقلنا الى العذاب
الابدي فن لا يخاف من هذا المصير الذي يجعلنا نترك كل ما
نحب هنا لنقاسي كل ما نكره هناك ؟ قال رجل لحكيم « ما لنا
نكره الموت » فاجابه الحكيم « لانكم اخرجتم آخرتكم وعمرتم دنياكم
فكرهتم ان تنتقلوا من العمران الى الخراب » فلنتبصر جيداً
ونطرح عنا الاهتمام بأمر الدنيا الذي يجعل الموت امامنا مكرهاً
مبغوضاً وهو حق ، ولنتجه بعقولنا طالبين السعادة الابدية حتى
لا نخشى الموت ولا نخافه لان الأشرار يرون من وراء باب الموت
جهنم مفتوحة لابتلاعهم فيخافون اما الأبرار فانهم يشخصون منه
الى باب السماء مفتوحاً لقبولهم فيفرحون

ان من كان تحت خطر الاعداء يتصوره في كل دقيقة ونحن
تحت خطر الموت فلنتصوره على الدوام ولنحتقر الارضيات
ونرغب في السماويات كي لا يكون لنا الموت هلاكاً دائماً بل حياة
ابدية بالمسيح يسوع ربنا



الفصل الخامس

في خداع الدنيا وغرور الحياة

« طردك الى التخم كل معاهدك . خدعك وغلب عليك
مسالموك . أهل خبزك وضعوا شركاً تحتك » (عو ٧)

لا نستطيع ان نصف مقدار جهل الناس في انخداعهم بهذا
العالم وغرورهم بأباطيله . فلو وجه الانسان نظرة الى كثيرين ممن
أغرتهم الدنيا وخدعتهم بأوهامها وكيف خسروا السعادة لجاز عنها
وهرب سريعاً تابعاً خطوات الاتقياء الذين طلقوها بتاتاً وماتوا
عنها فنجوا من عقاباتها الوحشية . فالدنيا عدو ولكنها تغطي
نفسها بالذئبة لكي يتبعها الأغبياء ، والسماء حبيب ولكنها تنال
بالتعب والضيق وهوذا الحكيم يقول « أمانة هي جروح المحب
وغاشة هي قبلات العدو » (ام ٢٧ : ٦)

لو ان محبي العالم تمنعوا فيه بتدقيق لما وجدوه سوى سجن
للأحياء ومقبرة للموتى ، فمن عشقوه في ما مضى اهلهم بعد موتهم
ولم يعد يذكروهم ومن يعشقونه الآن لا يزال يخدعهم ويخفي عداوته
لهم تحت ستار الحب حتى يهلكهم أشر هلاك لان شفاته تقطران
عسلاً وحنكه أنعم من الزيت . لكن عاقبته مرة كالافستين حادة
كسيف ذي حدين

فالذين ينخدعون بالعالم يصفهم الكتاب قائلاً « الذين

بحسبون تنعم يوم لذة . ادناس وعيوب يتنعمون في غرورهم «
 (٢ بط ١٣) ولن يفيق الانسان المغرور بالعالم من سكرة غروره
 به الا عند موته اذ يجد يديه فارغة مما حصل وأقتنى ولا تجديه الندامة
 نقعاً بعد ان نفذ فيه سهم القضاء ، وتشبه حالته حينئذ حالة
 سيسرا الملك الذي هرب الى خيمة ياعيل امرأة جابر القيني احدى
 نساء الامة الاسرائيلية التي كان يحاربها فلم تشأ المرأة ان تقتله
 ظاهراً بل قدمت له حليماً لذيذاً فشرب وأعدت له فراشاً فنام ومن
 ثم ضربت الوتد في صدغه فلما شعر به حاول النهوض ولكنه لم
 يقول لان سهم الموت كان قد نفذ فيه (قض ٤) وهذا ما عمله
 الدنيا مع محبيها فانها تحزنهم في حال سرورهم وتكدرهم في حال
 صفوهم وتأتيهم بالموت وهم ناعمون في اباطيلها متقسون بغرور
 الخطية (عب ٣ : ١٣)

فما اعظم خداع الدنيا وغرور الحياة اذ لانهاية لها الا الموت
 والبوار فلا تنشغل اذاً بما تعرضه أمام عينيك بل اهرب من
 أكاذيبها ان شئت النجاة من الموت والهلاك فان الابطيل التي
 يهواها أهل العالم ويرتاحون اليها تقودهم الى الاضطراب وتنتهي
 بهم الى الاحزان لانها تبتدىء بالخير وتنتهي بالشر . ولو فتش
 الانسان عن مقدار الالم الذي تحتم به الدنيا لذاتها لولى مدبراً
 كمن يهرب من افعى . فهي كينوى التي قال عنها الكتاب « كل
 من يراك يهرب منك » (نا ٣ : ٧)

واذا أردت التحقق من صدق قولي فعليك بمن سمعوك في

هذا الوجود وكانوا من أعظم محبي العالم . سلمهم وهم على فراش الموت أحقاً صداقة العالم صادقة ؟ وهل يفارق الصديق صديقه بدون أن يلفظ كلمة وداع أو يذرف دمعة حنين . تحقق جيداً لماذا لا يبكون على العالم وكانوا من قبل يحبونه ؟ تجدهم أصبحوا يحملون له في قلوبهم كل حقد وضغينة . يموتون وهم مملؤون غيظاً من تصاريقه ويتمنون لو يعودون اليه لينتقموا لأنفسهم منه لانه غدر بهم . اسمعهم يقولون « ان البلايا الكثيرة والمصائب المتعددة التي أوقعها بنا العالم فتحت ينابيع دموعنا حتى لم نجد قطرة واحدة تجود بها عليه يوم فراقنا له . حدقوا بنا جيداً لتروا الغضون التي خلفتها الاوجاع والهموم ظاهرة فوق جبين كل واحد منا وخطوط الدموع التي اسبلتها الاحزان ظاهرة في وجوهنا وقد حزت في جلاباب خدودنا »

ان اهل العالم ينظرون اليه في مظاهره الخلابه فيحبونه ولا يحسبون حساباً لما يحبئه لهم في طواياه من التعاسة والشقاء فلا يخذلك منظره الآن ولا تعباً بالحال الذي هو عليه في هذا الوقت بل ترقب ما سيكون أخيراً . نعم دخلت في الدنيا ولكن لا بد أن تخرج منها وان كان دخولها مفرحاً فالخروج منها محزن . لا يغرنك الجمال الحاضر بل تأمل الشناعة التي يتحول اليها . ولا تظل غير مبال بالمواقب المحزنة التي ستؤول اليها سائر اللذات التي تتنعم بها هنا فالدنيا انما هي كالذين قال عنهم الرسول بولس « انهم بالكلام الطيب والاقوال الحسنه يخدعون قلوب السامع » (رو ١٦ : ١٨)

قيل أن رجلاً هرب من أمام وحش وجعل يعدو بسرعة حتى سقط ، وهو لا يظن لما ينتهي إليه ، في حفرة عميقة ولحسن حظه تعلق بشجرة ثابتة في جانب الحفرة وتمسك بأغصانها وبعد أن هدأ روعه أبصر جرذين أحدهما أبيض والآخر أسود يقرضان أصل الشجرة حثيثاً بلا فتور حتى ظهرت أنهما على وشك السقوط وأحدق بناظره الى عمق الهوة فاذا بتنين خفيف يتوقع سقوطه لا بتلاعه فرفع نظره خوفاً فشاهد بين ورق الشجرة قليلاً من العسل يقطر فلما رأى الجاهل ذلك أهمل التفكير في كل الاخطار المحسنة به وشرع يلعب من ذلك العسل السائل نقطة نقطة حتى سقطت به الشجرة وراح ضحية التهاون بالحلاوة الوقتية التي هي المرارة المؤبدة؟ وكم من الناس كهذا الجاهل يتلذذون بما تقدم لهم الدنيا من حلاوة اللذات ويعمون عما تجهزه لهم من عظيم الضيقات

هذه هي حقيقة الحياة الخيرة ، فيها يقبل ثم يدبر ويعقبه الويل والهم المقيم ومن عادة الدنيا اذا قدمت في الظهيرة طعاماً طيباً لذيقاً ففي المساء تقدمه مريراً ممجوجاً وبينما نجد أهل العالم يقولون سلام وأمان يفاجئهم الهلاك بغتة — فلا تنظر للاوائيل الخداعة بل للاواخر الدداغة فما عاقبة اللذات الا مرارة وما نهاية هذه الحياة التي تحجبها سوى دود ورماد وما غاية كل خطية مميتة سوى العذاب الشديد وفي المكافاة الواحد تقام معالم السرور وتقام علامات الحزن والكآبة فلا تتأثر بالمجد الباطل بل انظر الى عاقبته المرة . ولا تأخذنك اللذة التي هي بين يديك بل فكر فيما يعقبها من الهموم

والغموم . سيأتى على الخاطئ وقت يقول فيه « ليتنى ما كنت
أخطأت » وهوذا الكتاب ينبهننا قائلاً « لا يخدمن أحد نفسه »
(١ كو ٣ : ١٨)

ما الذي يجب الانسان فى هذه الدنيا ؟ أليس انها تمتص منه
الدماء وتسلب منه الراحة مقابل تلك اللقيمات التى يزدردها وهقابل
تلك الخرق التى يترز بها . وفى ختام الامر كله يخرج منها وقد
ظلم فى أجره ، يخدمها بدون مكافأة ويتعب مايتعب ويطرد منها صفر
اليدين . ضحكت عليه وهى تحسن له سبيل خدمتها بوعود ظاهرها
الامانة وباطنها الخيانة حتى اذا احتاج اليها رمت به بين انياب
الهلاك وذهبت تستقصى عن غيره لتنال منه ما نالت من سابقه .
مال اليها واحبها وخدمها باخلاص وأقسم لها يمين الولاء فخانتها
كرس عينيه للتطلع الى جمالها فحملتها على أن تسكب دموعاً
غزيرة . قدم لها قلبه فداسته غير مبالية بألامه وكانت كالرجل
الظالم الذى لايعطى اجراً لمن يتعب فى خدمته . قال أحد الآباء
« نجاح هذه الدنيا ونعيمها يشعشع كالمصباح اللامع للضياء الذى
يبقى ما دامت المادة . أما بعد فنائها فيعود دخاناً كريحه الرائحة »
قال يوحنا الانجيلي « لا تحبوا العالم ولا الاشياء التى فى
العالم . ان أحب احد العالم فليست فيه محبة الآب . لان كل ما
فى العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة ليس من الآب
بل من العالم . والعالم يمضى وشهوته . وأما الذى يصنع مشيئة الله
فيثبت الى الابد » (١ يو ٢ : ١٥ - ١٧) ويحقق لنا هذا القول

اننا لا نجد في هذه الحياة امرىء لا يشكوهما ولا يبكي غماً . من
 من الناس لم تمتد اليه يدها بالاذى ، في الطفولة باكين وفي الشبوبة
 خائبين وفي الشيخوخة مذلّين . في الحياة شقاء وفي الموت انزعاج ،
 في الصحو اندھال وفي النوم اضطراب . في النهار مناظر مخيفة
 وفي الليل هو اجس مريعة ، فسات الحياة حلقات متصلة من الآلام
 كل منها تدفع الانسان الى الأخرى فيجدها أمر وأُنكى

ان الذين يعشقون الحياة مع ما ذاقوه فيها من المر ومع ما
 قاسوه من التعب معتقدين أن مستقبلهم سيكون أفضل من ماضيهم
 وان ماضيهم ان كان مرّاً شقيّاً فسيكون مستقبلهم حلواً سعيداً
 هؤلاء قد ضلوا لان للدنيا تصرفاً واحداً مع جميع أهلها وما تبدىء
 به معهم أفضل مما تنتهى بهم اليه وقد يكون ما مضى أفضل بكثير
 مما يأتى . صرح بعض الدجالين انه في الامكان كشف المستقبل
 ومعرفة الآتيات بواسطة الشعور النفسي او بتوسّع علم قراءة
 الكف فقالت الصحيفة التي نشرت هذا الخبر « اذا أمكن ذلك
 فيالشقاء البشر وبالتعاسة الحياة ومرارتها » وما ذلك الا لاعتقاد
 الانسان الأكيد بأن الحياة لا بد فيها من الشقاء والالم

حقاً ان غرور الدنيا وغشها ظاهران للعيان وأعمالها توضح
 لنا شرها وتنادينا بأن لا نجها لانها كالافعى تلدغ من يصادفها
 فيجرى سمها في دمه فيقتله وهي كالنار تؤذى كل من يقترب اليها
 ويلاصقها . تأمل تجدها تحاثل قوماً وتعمى آخرين . فاذا ولت
 فهي لا شيء واذا قبلت فهي كالخيال ومتى ارتفعت كانت دخاناً

هي عند الجاهل حلوة ولذيذة وعند الحكماء مرة كريهة . فحبوها
غير عارفين بها ومبغضوها مختبرون تصارينها فهي توثق وتضطهد
الذين يخدمونها وتجلب على عاشقيها هموماً وضيقات . تهين الذين
يكرمونها وتنسى الذين يتغنون بذكرها

فينبغي أن يكون أشد خوفنا من العالم عند ما نراه يعيل الينا
ويظهر حبه لنا . في ذلك الوقت يجب ان نغتمه اكثر مما نبغضه عندما
يضطهدنا علانية لانه كالرجل الظالم يغوى صاحبه ويسوقه الى طريق
غير صالحة (ام ١٦ : ٢٩) فبقدر ادعائه مصادقتنا يبطن لنا في جوف
تلك الصداقة الموهومة كل الاخطار التي تهلكنا . واذا كنت تراه
يبتسم لك حيناً فلا بد يكسر لك ابداً عن انيابه . واذا كنت ترى
الآن قوماً يضحكون فلانهم لم يقفوا بعد على أسرار خداعه وسيأتي
عليهم وقت يكونون فيه في مطلع الساخطين عليه ويرفعون عقيرتهم
بالشكوى من خيانتة وينتظرون اليوم الذي يحصلون فيه على النجاة
منه انتظار الغريق حبل النجاة ، وانا نشاهد عن قرب ذلك اليوم الذي
يقضى فيه على كل أمل لهم ويخيب آخر رجاء لهم فيه . فما الدنيا الا
كالطائر الذي قيل انه ما هبط على شجرة الا واسقط كل أوراقها .
ينشأ الانسان فيها مفعماً بالآمال فاذا بها تخيب آماله الواحد بعد
الآخر . واذا خيبت له أملاً أطمعته بتحقيق الأمل الآخر حتى
يخيب آخر أمل له وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة فيموت وهو يصرخ
بتلك الكلمة التي صرخ بها رابليه الشاعر الفرنسي وهو يحتضر
« انزلوا الستار فلقد انتهت الخدعة »

وما أشد شقاء خيبة الأمل . لنتصور انساناً ألف صديقاً وأولاده
ثقتهم فكم يكون حزنه اذا خانه ؟ وهكذا ينشأ الإنسان محباً للعالم
معتبراً اياه صديقاً وفيماً وخادماً أميناً واذا به ينكشف له عن العدو
اللد والخائن الاشر . قالت زوجة الكسيس بن بطرس الأكبر
قيصر روسيا « لا ريب أن العالم مفعم بالا حزان وان الايام تذخر
لى فى ثنياتها أشد الصروف وأعظم المصائب وفى الواقع انى لم أعرف
منذ حدثت معنى السرور اذ كنت لا ألبث أن أصادف شيئاً من
الانشراح حتى يداهمنى الشقاء ومما يزيدنى الآن ألماً ان حزنى ناشئ
عن شخص هو أعز على من أن أشكوه . وكيفما جلت بفكرى
ادركت ان لا فائدة من معاندة الاقدار لان كل امرئ عرضة
للشقاء ما دام عائشاً فى هذا العالم المفعم بالا حزان »

فلو كان العالم يظهر للناس بحقيقته فلا يعطيهم خيراً يعقبه شر
ولا يمنحهم نعمة تليها نقمة لكان ذلك أفضل لأن أشد ما يتألم
الناس له هو ضياع النعمة من بين أيديهم . وما كانوا ليتمكنوا على نعمة
زائلة ويجدون مرارة فى فقدانها لو لم يذوقوا حلاوتها . فالدنيا تمنح
النعمة فيغتنب بها الانسان حتى اذا ما رأت بذرة الامل التى غرستها
فى نفسه قد نمت وأزهرت وانه قد استعذب طعمها واستطاب مذاقها
كرت عليه فانزعجت من يده وهى قريبة من فمه كما تنزع الكأس
من يد الظامى الهيمان ليعظم وقع السهم فى كبده

فيا للشقاء من ينهمك بالعالم ويالسعادة من يتهاون به . لعلمكم

تفترون بما تهبه الدنيا للبعض من زخرف المعيشة ان كان ذلك فاعلموا ان غناها مزوج بالخوف وصحتها بالفقر وعظمتها بالهم وحكمتها بالشقاء. بدأتها عدم راحة ونهايتها ندامة. تترك الاحياء ولا تصاحب المائتين ولا تسأل عن الغائبين. كم من اناس كانوا يظنون أن العالم لهم واذا بهم يتركونه فجأة ويبقى العالم بعدهم دون أن يذكرهم او يقدر لهم انهم كانوا يوماً من محبيه. واللذات التي عرفوها وانهمكوا فيها لم تعد تذكر هيامهم بها وميلهم اليها.

ان الدنيا سخية في عقابها بخيلة في انجاز وعودها. ليقم جميع محبي العالم وليقولوا لنا هل كان لهم في وقت من الاوقات لذة بدون ألم أو سلام بلا فتنة أو راحة بلا تعب أو عافية بلا مرض أو شبع بلا جوع أو فرح بلا حزن. الدنيا تعد بالخيرات وتعطي جميع الشرور والمضرات. تعد باللذة وتعطي هموماً وشدة. تؤكد مواعيدها وللوقت تخون عهودها. تعد براحة وسرور وتعطي تعباً وكدرًا. تعد بافراح وانشراح وتعطي احزاناً وبلايا. تعد بالشرف والكرامة وتعطي الذل والاهانة. تعد بطول العمر ولكنها تضن الا بحياة قصيرة ذات شقاوة شديدة

وعلى هذا المنوال تعد الدنيا بشيء وتعطي غيره وأهل العالم لا يفتنون الى هذا الخداع حتى يتبدد ليل هذه الحياة وينبج الصباح وعند ذلك يحضرهم الموت فيدركون انهم قد اخدعوا وان اتعابهم الدنياوية قد ذهبت عبثاً فيصرخون بمرارة ويقولون مخاطبين اياها

« كنت تهيننا المسرة رذاذاً وتطلقين دموعنا بغزارة . كنت تعطينا الطعام لقمة لقمة والشراب جرعة جرعة وتهديننا الاوجاع بغير كيل وتسمحين للآلام ان تتراكم علينا بلا حساب . اذا تعطفت علينا بيوم فرح اغدقت علينا نظيره بأيام كدر . اذا غدونا يوماً اصحاء قضينا اياماً مرضى . إذا تمتعنا مرة بالاصدقاء التقينا مراراً بالاعداء »

أفتريد اذاً ايها الانسان ان تكون في عداد الجهال الذين يخدمون العالم وهو يخدمهم فيتم عليك القول « لماذا تزنون فضة لغير خبز وتعبكم لغير شبع » (اش ٥٥ : ٢) قال احد الافاضل « هل تظنون ان العالم اذا كرستم حياتكم لخدمته يعطيكم حتى تشبعوا . وهب انه اعطاكم حتى تقولوا كفى فلا ريب انه يسترد منكم ما أعطاكم اياه لانه مع كونه كالتاجر الحكيم الذي يحاول ان يحفظ مركزه امام الناس فهو ايضاً كالتاجر المكسور الذي ليس له من المال ما يكفي لجميع مداينيه فيختلس من هذا ليعطي ذاك ويسلب ذاك ليوفي هذا . وهو كشمشون حينما اضطر ان يعطي ثلاثين حلة من الثياب للفلسطينيين الذين فسروا الاحجية فانه قتل ثلاثين فلسطينياً آخرين وأعطاهم حللهم (قض ١٤ : ١٩) فهكذا العالم اذا اراد ان يكسو واحداً فلا سبيل له الى ذلك الا من تعرية آخر وعمله هذا يشبه عمل الزارع الذي يكسح الازهار والاشجار الذابلة ليحلى مكانها غيرها . فالغنى ينتقل من بيت الى

بيت والفقر من منزل الى آخر . لقد وهب احشويرش الوزارة
لمردخاى ولكن بعد أن سلبها من هامان (اس ٨)

قال أحد الحكماء « يا أيها الرجل لا تخدع كما خدع غيرك من
قبلك . فان الذى أصبحت فيه من النعم انما صار اليك بموت من
سبقك وهو لا بد يوماً منصرف عنك الى سواك . فلو كانت الدنيا
للعالم لما أخذ الجاهل منها نصيباً ولو بقيت للاوائل لم ينل منها
الاخر شيئاً . لو كانت الدنيا كلها ذهباً وفضة ثم عطفت عليك
وسلمت اليك مقاليدها ثم سرت في طريق الموت فهل كنت تهنأ بها .
لا تخف في ما يزول ولا غنى في ما ينفى »

ويا ليت العالم اذا اراد ان يسترد ما وهب ينبه قبل أن يفتال
ولكنه فجأة يأتي شره على محبيه وهم في ابان مجدهم وعظمتهم
فكم من كثيرين اختطف منهم الكأس بغتة وهم يرفعونها
الى شفاههم وكانوا يؤملون أن يحتسوها بلذة . وكم من تيجان تحطمت
بعد مجد وانتصار وكم من ذوى جاه ما كادوا يتمتعون بجاههم
ويستريحون مما قاسوا من العناء في سبيل الحصول عليه واذا بهم
قد انفصلوا بغتة عن كل ما يؤملون . يجري الانسان وراء الدنيا
وهى تجري امامه حتى اذا عرفت ان قوته وهنت وقفت ليلحق
بها وما يكاد يلمسها حتى يؤخذ من الحياة بحسرة ابدية

غبي ذاك الذى يفرح بمنظر يعرضه العالم امامه كما قال القديس
يوحنا فم الذهب « ان فرح العالم ليس فيه شيء يعتبر راهناً ثابتاً

ولكنه زائل جميعه وهو يشبه النهر الذى يجرى عند انسكاب
الامطار على الاودية فيظن من يراه انه نهر ثابت يدوم وهو
بالحقيقة نهر مستعارة مياهه وينتهى بغتة مع انتهاء المطر . فجميع
الذين خدعوا بالعالم يصرخون بعد معرفتهم ذلك قائلين « لماذا
ضربتنا ولا شفاء لنا . انتظرنا السلام فلم يكن خير وزمان
الشفاء فاذا رعب » (ار ١٤ : ١٩) وحالهم هذا يشبه ما قيل
عن جبل وسويوس الذى عندما يحرت الزارع سطحه ويلقى عليه
البذار يزهو سريعاً ويبين له ربيعاً دائماً بعشبه الاخضر وخريفاً
بهيجاً بفأكهته اللذيذة ولكنه قرب وقت الحصاد يثور من
جوفه بركان عظيم فيتلف في ساعة ما اثر في امد طويل

فاذا اراد احد ان ينال من العالم سعادة حقيقية فليعلم ان العالم
يأتى لمن احتقروه وازدروا به ويولى ويهرب عن أحبوه ومالوا
اليه . فالذين احتقروه صاروا مجدين ونالوا فخراً سامياً وذكرهم
يدوم الى الابد . أما الذين احبوه فليس من يذكركم ويعرفهم
بل يوجد من يهزأ ويسخر بهم . فانظروا لجحزى غلام اليشع
يجرى وراء العالم ويسعى خلف نعمان طالباً المال مستعملاً الكذب
في سبيل الحصول عليه . وانظروا الى آية مكافأة كاذبها العالم على
محبه اياه في قول اليشع النبي له « فبرص نعمان يلصق بك وبنسلك الى
الابد . فخرج من أمامه أبرص كالثلج » (٢ مل ٥ : ٢٧) ومن
الجانب الآخر لثر الثلاثة الفتية حينما عرض عليهم نبوخذنصر المجد

مقابل السجود للتمثال وإلا يلقيهم في اتون النار فأجابوه بشجاعة
انهم يرفضون كل كرامة يعرضها عليهم ولا يتركون عبادة إلههم
ولننظر الى ما كافأهم به العالم على رفضهم اياه « حينئذ قدم الملك
شدرخ وميشخ وعبدنغو في ولاية بابل » (دا ٣ : ٣٠)

العالم ليس له إلا أن يوصي بالشر ولكن لا يساعد عليه
وهو اشبه بفرعون حينما ثقل العمل على الاسرائيليين ولكن
لم يعطهم حتى التبن اللازم لصنع اللبن (خر ٥ : ١١) قال السيد
المسيح « هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً » (مت
١٦ : ٧) وهكذا انت لا ترجو من الدنيا ثمراً صالحاً فهي لا
تعطي الا الكذب والبهتان فكم من كثيرين استخدمتهم في
اعمالها ولكنهم في وقت بليتهم التمسوا منها العون فتركهم كأنها
لم تكن تعرفهم . فحجب الدنيا يتمتع قليلا بما تقدم له لكي تطغيه
ولكنها اذ تنال مأربها منه فانها تسخر به فيما بعد . وكم لعبت
بسادات وارباب ورؤساء وبعدها اطعمتهم واضلتهم كرهتهم وهم
في حال لذة ملاعبهم اهملتهم مطروحين بغير سلوان

فاذا رفعتك الى منزلة عالية فايك الوقوع وكن محترساً فان
الذي عملته مع من تقدمك تعامله معك ايضاً . فهي في تصرفها كالجلاد
الذي بعد ان يرفع المجرم الى المشنقة يدفعه برجله ويطرحه مهاناً .
فهي اذا ترفعت لكي تسقطك . وبمقدار علوك يكون سقوطك .
فالذي يسقط من علو شاهق ليس كالذي يسقط من علو قليل وهوذا

الكتاب الالهى يقول « قد غرك تخويفك كبرياء قلبك ياساكن فى
محاجى الصخر الماسك مرتفع الاكمة وان رفعت كنسر عشك
فمن هناك احدرك يقول الرب » (ار ٤٩ : ١٦)

فالعقل يرى بعينه العالم واقفاً يضحك على الذين عرقلهم
بمجده ويظهر سروره واضحاً عند ما يصل الى سمعه صوت
تأوهاتهم المتواصلة التى سببها لهم غرورهم به . نعم انظر بعينى عقلك
ايها المغرور بالعالم تراجمادات الثابتة تسخر منك والعالم يلعب
بك . الخرائب والاطلال تضحك عليك يامن مر بها عزك وشقاؤك
وسرورك وحزنك ورأت أن كل ما يمنحه لك العالم باطل

فالافضل لك اذاً ايها الانسان أن تهجر الدنيا قبل أن تهجر
هى . اترك العالم الذى يتركك تركاً أبدياً . اطرح نيره عنك قبل
أن يحول ظهرة لك . لا تسكن أعمى لحفظ ما ستخلفه رغماً وقهراً
واسمع قول الرسول « وانما أقول هذا القول لئلا يخذلكم أحد
بكلام ملق » (كو ٢ : ٤) فأولى بك أن تضحك على الدنيا
ولا تدعها تضحك بك لان هم هذا العالم وغرور الغنى يخنقان كلمة الله
فى قلبك (مت ١٣ : ٢٢) أما شهوات الغرور فانه بسببها يأتى غضب
الله على أبناء المعصية (اف ٤ : ٢٢ ، ٥ : ٦)

قد يقول قائل : اذا كان الامر كذلك فلا سبيل لنا اذاً الا
ترك العالم وهجرانه بالمره . فيجيب عن ذلك أحد الافاضل
قائلاً « ان الطيور تنزل احياناً لبعض الحقول لتلتقط قوتها أو

تتحذر على عين ماء لتستقي ولكنها تعلم ان هذه اما كن ليس لها فيها أمان لأن فيها ترصد لها الاشراك وتصوب اليها السهام فلا تهدأ الا اذا صعدت قمة الجو» وهكذا ينبغي لنا ان نكون كمن قال عنهم الرسول بولس «والذين يستعملون هذا العالم كأشياء لا يستعملونه» (١ كو ٧ : ٣١) أي يجب ان نعيش فيه مكتفين بقوتنا وكسوتنا (١ تي ٦ : ٨) ومتحذرين كل حين لئلا يوقع بنا ويقتنصنا لارادته (٢ تي ٢ : ٢٦) أي ينبغي ان نكون في العالم بأجسادنا ولكن نتجه الى السماء بأرواحنا وآماننا وأشواقنا . قال أحد الحكماء «الزاهدون في العالم كالنفس في الجسد فهي فيه وليست منه هكذا هم في العالم وليسوا منه» وقال آخر «ان المسيحي الحقيقي كالسفينة في البحر فلا يفرقها وجودها في الماء انما الذي يفرقها دخول الماء فيها كذلك المسيحي لا يضره كونه في العالم بل يضره كون العالم فيه» وقال السيد المسيح في صلاته الاخيرة من اجل تلاميذه «لست اسأل ان تأخذهم من العالم بل ان تحفظهم من الشرير . ليسوا من العالم كما اني انا لست من العالم» (يو ١٧ : ١٥ و١٦) وقال الرسول بولس «الذي بذل نفسه لاجل خطايانا لينقذنا من العالم الحاضر الشرير» (غلا ١ : ٤)



الفصل السادس

في أن ظاهر الدنيا خلاف باطنها

« بشفتيه يتنكر المبغض وفي جوفه يضع غشاً . اذا حسن صوته فلا تأمنه لان في قلبه سبع رجاسات » (ام ٢٦ : ٢٤ و ٢٥)

قال أحدهم « عظم بنو الناس الدنيا وهي حقيرة واصبح بعضهم يقاتل البعض من أجلها كما تتقاتل الكلاب على الجيفة » وحقاً تلوح الدنيا في الظاهر ذات منظر بهيج يجذب القلوب ولكنها من الداخل مملوءة فساداً واباطيل . تغريك بأنها جيدة وان اجادها حسنة وهي في الحقيقة تتكلم زوراً وبهتاناً . فلا تجعل قلبك اذاً على محبتها ولا يخدعنك رونقها فهي تشبه القبور المبيضة التي تراها من الخارج مبيضة مزينة ولكنها من الداخل مملوءة عظام اموات وكل نثانة (مت ٢٢ : ٢٧) احترس من ان يخاتلك هذا العالم الغرار وان يستهويك بجذب نظرك الى هيئة الخارجية وطلاوته الظاهرة لانك لو تصفحته جيداً وعرفت ما بداخله لشاركت من عرف حقيقة حاله وصحت معه قائلاً « باطل الاباطيل السكل باطل » (جا ١ : ٢)

قال أحد الآباء « لو كان هذا العالم الجميل ينشق بسكين الحق والانصاف لظهر انه زور وباطل بجملته لان كل ما يوجد في العالم

أما ماضٍ أو حاضر أو مستقبل . فالماضي لا وجود له والمستقبل مجهول غير معروف أما الحاضر فهو زمن غير ثابت فاذاً باطل الاعتماد عليه ، باطل كل شيء فيه إلا محبة الله والمواظبة على عبادته »

إن الاناء الفارغ متى ضربت عليه قارعاً يطن بصوت عال هكذا العالم لو ضربته مختبراً طربه وملذاته فلولقت تسمع رنيناً بأطيله وطيناً فانياته ولكنه فارغ عديم الثبات . قال أحدهم « كلما رأيت بناء شاهقاً يناطح السحاب تذكرت الحجر الصغير المشوه الذي رماه البناء في الأساس » وقيل إن صنم أبو اللون الذي كان في دلفوس كان مزيناً من خارج بحلي الذهب والفضة وفي رأسه ضفائر ذهب مرخية على منكبيه وكان ضابطاً في يده صاعقة ومسجوداً له من الجميع . إلا أن لوكيانوس عندما عاين قوماً كثيرين يسجدون لهذا الصنم بنهاية الورع والاحتشام طفق يستهزئ بهم قائلاً « أيها المساكين انكم انما تنظرون الذوائب الذهبية من الخارج إلا انكم لا تدرون أن هذا الصنم الذي انتم ساجدون له باطنه فارغ وخاو ترقص فيه الفيران ويعلق به العنكبوت والغبار » هذه هي صورة الدنيا فالتناس حولها يسجدون وبها يتغنون ومجدها يعشقون ولا يعرفون ان في داخلها الفساد والمنون

إن داود النبي دعا نفسه فقيراً لا لانه لم يكن له نصيب من مجد العالم ولكنه اعرفته بأن كل شيء دون الله باطل فهل ادركنا

مع داود وهو في ابهة الملك وعلى رأسه التاج الملوكي اننا فقراء
ومساكين . لو خير داود بين تاج الملك الارضى الذى يراه وبين
تاج الملك السماوى الذى لا يراه لطرح الاول وعاش فقيراً ليحصل
على تاج السماء لان ما يرى وقى وأما ما لا يرى فهو ابدى
(٢كو ٤: ١٨)

فالحياة واحدة للجميع ليس في الدنيا طليق وسجين ، ناعم
ومعذب غنى وفقير . فللطليق من جسده الفاسد اظلم سجن لروحه
وللناعم من تبكيت ضميره اشد عذاب وللغنى من احتياجه للراحة
فقر مدقع هذا على أن الدهر اذا ابتسم لنا يوماً واضحكنا ساعة
فهو يبكي ويعذب الى النهاية . واذا كنت ترى اختلافاً ظاهراً
بين انسان وآخر فتسمع ان هذا سعيد وذاك شقى ، هذا عظيم وذاك
حقير فاعلم ان هذه الامتيازات ظاهرية فقط . ومع أن تاريخ كل
انسان يختلف عن تاريخ الآخر وما هو مسجل في تاريخ كل امرئ
من الحوادث يختلف عما هو مسجل في تاريخ الآخر الا أن ايوب
الصديق جمع في كلمتين ما يصح أن يعتبر تاريخاً لكل انسان اذ قال
« الانسان مولود المرأة قليل الايام وشبعان تبعاً » (اى ١٤ : ١)
فمن يستطيع أن يقول مهما عاش في الحياة أن ايامه ليست قليلة ؟
ومن يجسر أن يقول مهما كنا نتصوره سعيداً انه لم يشبع تبعاً !
قال السيد المسيح عن العالم « لانى أشهد عليه ان اعماله
شريرة » (يو ٧ : ٧) ويحقق لنا هذه الشهادة الاختبار الشخصي
الذى يدلنا على أن المظاهر العالمية خلاف باطنها . توجد أشياء

كثيرة تلوح للانسان كأنها حلوة وحيلة وهي تطرى في داخلها موتاً وهلاكاً . توجد اخطار متباينة ونكبات مختلفة مطلية من الخارج بطلاء اللذة والسرور وهي مستعدة أن تفتك بكل من يدنو منها فتكاً ذريعاً . ولكن الكثيرين لا يفحصون تلك الامور ليروا حقيقة ما هو كامن في جوفها بل يندفعون اليها بشوق ويلتهمونها بشراهة وما تكاد تستقر في بطونهم حتى ينجروا على الارض صرعى شهواتهم وامياهم

معلوم لدى الجميع ان الموت هو الدعدو للانسان ولكن ماذا تقول اذا كان كثيرون يسعون وراء الموت وهم لا يعرفون . اى ان هذا الموت لا يتمثل لهم بصورة شنيعة تنفر منها الطبيعة البشرية بل يلبس صورة أخرى لينة كما يلبس الذئب ثوب الحمل . والناس ينخدعون بهذا الموت المزين المتنكر ويتقدمون اليه بدون خوف وهو عدوهم الالد دون سواه

يقولون أن الحرب خدعة وكمن مرة سمعنا ان قاسياً تزيأ بزي اللطف لكي يهلك عدواً له وان جندياً تظاهراً لاعدائه بأنه منهم لكي يلتقيهم فريسة لقومه . هكذا الموت يعرض نفسه للناس كل يوم في أجمل المناظر والبشر يجرون خلفه بسرعة ليلحقوه واذا هم وصلوا اليه أدركوا انه الهلاك بعينه ولكن بعد ان تنشب اظفاره فيهم وبعد ان يتمكن منهم ولا تبقى لهم وسيلة للخلاص منه

لقد عهدنا الموت يأتي بشدة وبأس ويجندل الناس في الحروب

بالسيوف والرماح وفي المساكن بالامراض والعلل . ولكنه يأتي أيضاً وهو مدهون بالشرور والشهوات فيقبل عليه بنو الناس فيجعل صرعى الممذات اكثر عدداً من صرعى الحروب والامراض . ان الموت يلوح لكثيرين على اسنة الرماح وفي شفرات السيوف فيهربون منه ولكنه يستخدم طريقة أفضل لعدم الخوف منه فيختفي ضمن الشهوات ويتوارى وراء اللذات فيسعى اليه الناس وما اكثر عدد قتلاه بهذه الوسيلة

حذار من الطلاء الخارجي والملمس الناعم . احترسوا كل الاحتراس من تلك الأمور التي تخدع قلوبكم وتستهوئ افئدتكم ثم تقودكم الى العطب والهلاك . هوذا ويلات ومصائب تلبس ثياباً ناعمة : وهوذا ضيقات ونكبات تظهر بمظهر السرور والبهجة احذروا منها ولا تقتربوا اليها فانها ما اظهرت اللطف والكمياسة وقتاً قصيراً الا لتوقع في يدها وتعذب الى الأبد من تتمكن من غشه كما قال الحكيم «توجد طريق تظهر للانسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت» (ام ١٤: ١٢)

يرفع الانسان بصره في هذا العالم فيرى صورة خارجية تخدعه ولكنه لا يرى له صورة داخلية تنبهه . يرى في العالم الظاهر وجوهاً مشرقة وشفاهاً تبتسم والسنة تتلطف وايدي تمتد للمصافحة وازهاراً تعبق رائحتها الذكية فيظن انه سعيد لمشاهدة هذه المناظر ويخال العالم حبيباً له اتحفه بكل سرور وأهداه كل لذة . ولكنه لو استجلى خوافي هذه الأمور لوجد ان

الوجوه لم تشرق الا لتمكر به والشفاة لم تبسم الا لتخدعه
واللسان لم يتلطف به الا ليغرر به والايدي لم تمتد نحوه الا لتمكن
منه والازهار لم ترسل رائحتها العطرية الا لتجذبه الى اشواكها
وكل منها يكيد له وينصب الاشراك وهو ساه غافل مخدوع وما
اشبه العالم والمخدوع به بالتي وصفها الحكيم بقوله « لان شفتي
المرأة الاجنبية تقطران عسلا وحنكها أنعم من الزيت لكن عاقبتها
مره كالافستين حادة كسيف ذي حدين . قدماها تنحدران الى
الموت خطواتها تتمسك بالهاوية لئلا تتأمل طريق الحياة ، تمايلت
خطواتها ولم تشعر » (ام ٥ : ٣ - ٦)

فتأملوا يا بني البشر اى شيء فى العالم ترونه حسناً غير
وعوده الخلابه ؟ نعم هو يعد بالغنى واللذة والمجد . وهكذا يغرى
العسل الذباب بالحلاوة، ويعد السراب الايل بالارتواء، وتعد النار
الفراشة بالضوء ولكن الموت كائن فى كل هذه لان الخائن اذا
اراد الخداع لا يأتى قاسياً بل ليناً . فكيف قتل قاين هابيل
اخاه . أليس بدعوته اياه للتنزه معاً فى الحقل ؟ وبأية وسيلة
سقط شمشون فى يد دليله ؟ أليس لما انامته على ركبتيها ؟ وبأية
واسطة أهلك ابشالوم اخاه امنون ؟ أليس باستدعائه اياه الى
ولية فاخرة ؟ ألا يصح فى ذلك قول القديس يوحنا فم الذهب
« ان من عادة الخائنين ان يقدموا اولاً ما هو عذب لينتجوا
منه فيما بعد المر المميت »

فما أجهل المرء الذى يعرض حياته للخطر مدفوعاً بابتسامة

غاشة وبالعباوة الانسان الذى يهلك ذاته ويخسر نفسه رجاء كلمة مدح ينتظرها. أن آدم وحواء خسرا السعادة بمجرد نظرهما الشجرة رأياها جيدة للاكل وبهجة للعيون وشبهة للنظر فاخذوا من ثمرها وأكلا بشوق استحسنان هيئتها المنظورة بينما كان فى داخل ذلك الثمر جزاء المخالفة المريع «موتاً وموت» (تك ٢ : ١٧)

روي ان كلتيوس ملك سكوتيا دخل يوماً ليقترضه فى روضة بهجة فوق بصره على التمثال يحمل بيده ثمرة ذهبية جميلة يلوح للناس اليها كأنه يقدمها هدية له . فانشرح صدر الملك بذلك وتقدم ليتناول هذه الثمرة من يد التمثال ولم يكذب يلمسها حتى شقت وامتد منها سهم حاد كان فى يد التمثال الاخرى ومعداً لهذه الغاية دائماً وأصاب الملك اصابة قضت على حياته . وكان سبب هلاكه ان رؤية الثمرة البهية فى يد التمثال الواحدة اذهلته عن رؤية السهم فى اليد الاخرى . هكذا مواهب العالم وهكذا هداياه فانه يقدم باليد الواحدة كاساً لذيقاً وباليد الاخرى كؤوساً مترعة بالمر والعلقم كما قال الرسول يوحنا «والعالم كله قد وضع فى الشرير» (١ يو ٥ : ١٩)

فاللذة تغدو أمام الانسان كأنها ثمرة شهية ولكنها مقرونة بالامراض القتالة ، والمال يظهر حبيباً ولكنه يأتي مصحوباً بالقلق المستمر : وكذلك الكرامة يخافها الانسان حسنة ولكنها تكلفه احتمال انواع المشقات . وبالجمله فان العالم يضحك لكى يقسو ويتملق لكى يخدع ، ويعفو لكى يقتل وما أحسن قول احدهم

« أن العالم اشبه بالليل ومصنوعاته اضغاث احلام تستغرق بها النفس وتطغى بالكذب والغرور كما ان الحلم يخدع النفس بالمناظر الخيالية هكذا العالم يخدع الناس بشهواته الباطلة ومقتنياته السريعة الزوال . فقد يتفق لك احياناً في الحلم ان ترى نفسك قائماً على عرش الملك متوشحاً بالملابس البهية وحولك الناس تترضاك ولكنك عندما تستيقظ تدرك أن ذلك كان وهمًا . على هذا المثل يعطى العالم الانسان ما يضل به كالغنى والمجد وعندما يرقد الجسد رقاد الموت يستيقظ فيتذكر احلامه ويخجل منها ويمتلئ خوفا ورعدة »

أجل : قد تخدع الدنيا بما فيها من جمال ورواء فاذا جمالها هو القبح بعينه والدمامة بذاتها . فترى بعينيك المرأة المعجبة بجمالها تتحول الى جيفة كريهة ينفر منها الذين كانوا يهيمون بها . وتشاهد الملك العظيم مرذولا من احقر عبيده . والغنى الموسر يمد يده مستندياً بعد أن دارت الدائرة على كل منهم فما أقسى تحول الايام قال الحكيم « رب ملك معجل في أوله أما آخرته فلا تبارك » (ام ٢٠ : ٢١)

اي عزيز لم تذله وعظيم لم تحطمه وعرش لم تهدمه وقصر لم تنقضه وقوى لم تضعفه وقلب لم ترمه بسهام احزانها وعين لم تجرحها بآلامها وفؤاد لم تصدعه همومها وفم لم تذقه مرارتها . أى امرأة لم ترملها وابن لم تيتهه ورجل لم تهنه : أى رأس متشاحنة لم تحمها وظهر معتدل لم تكسره وشعر لامع لم تبيضه مخاوفها فلا بقاء فيها لمجد ولا ضمان لراحة .

قال الرسول بولس « انظروا ان لا يكون أحد يسببكم بالفلسفة
وبنزور باطل » (كو ٢ : ٨) فمن يعيش في الدنيا يحتاج الى من
ينبئه دائماً ليستيقظ لئلا يقع في أشراكها . لانها اعتادت ان تظهر
الاشياء من الخارج فقط وتخفي ما هو داخلها . تحضر له اللذات
بين يديه ولكنها تعميئه عن الشناعة الكلية المخفية في باطنها . تبين
للبخلاء قيمة الذهب وشرفه أما المموم والغموم الناشئة عنه للأغنياء
فلا تريهم اياها . وقد تعرض بين يدي الانسان كرامات الرياسة
وعلو الدرجات ولا تريه ما ينبغي من لوازمها . وهي كابلوس حينما
أراد ان يجرب السيد كشف له مظاهر الامور ولكنه أخفى
دواخلها (مت ١٣) ولكن السيد كان يرى ما وراء ذلك المجد
الباطل، وهذا ما يفعله ابليس مع كل انسان وما تفعله الدنيا مع الجميع
فهي تريد أن تقدم الخطية للناس ولكنها تنطيطها بغطاء اللذة
والكرامة لكي تخفي القبح السكائن فيها . أما أنت فالواجب
عليك أن تزيح ذلك الغطاء وحينئذ تعلم كثرة غرور الحياة .
اخض جوف الخطية تر في باطنها أمور تخاف من مجرد سماعها
« فضة زغل تشفي شقفة هكذا الشفتان المتوقدتان والقلب الشرير »
(ام ٢٦ : ٢٣)

قيل أن بعضهم اكتشف صخرة عظيمة في استراليا مكتوب
على وجهها « اقلبنى فتسعد » فقلبها بعد ان قاسى تعباً شديداً
فوجد مكتوباً على الجانب الذى كان محجوباً « اقلبنى ثانية لأخدع
جاهلا آخر » وهذا شأن الدنيا تطعم في اول أمرها فتخدع

فيضيع على الانسان تعبهُ في طلب ما يظنه في أول أمره حلاوة
فيجده في نهايته مرارة ولسان حان الدنيا يقول « اكنتم امرئ
لاخذع جاهلاً آخر مثلك »

قال سليمان الحكيم « يا بني ان تملك الخطاة فلا ترض »
(ام ١ : ١٠) فأضمن طريق لنجاتنا من مخالب الاشراك المنصوبة
أمامنا هو ان نهرب منها حينما نراها حسنة أمامنا ولا نقف حتى
نسمع كلماتها الناعمة ولا ننتظر حتى نتطلع الى جمال وجهها . جاء
في أساطير اليونان عمن يدعى عولس انه في اثناء تيهانه في البحار
رأى انه سيمر هو وقومه بالصخور التي كان السيرين يغنين عليها
غناء مطرباً . يذب المارين بهن اليهن فيقتلنهم . فاحتاط لذلك بان
سد آذان من معه بالشمع لكي لا يسمعون وأوصاهم ان يربطوه
الى سارية المركب ربطاً شديداً وان يشدوا الوثاق كلما ألح عليهم
بان يحلوه ففعلوا كذلك . ولما مروا بهن وسمع عولس صوتهن
الجميل حاول الانذلات ليصل اليهن فشد عليه من معه الوثاق ومروا
بهن سالمين فخلص هو وقومه من الوقوع في فخ السيرين والسقوط
في تجاربهن . وبمثل ذلك يوصي الرسول بولس تلميذه تيموثاوس
قائلاً « واما انت يا انسان الله فاهرب من هذا » (١ تي ٦ : ١١)
وقال له ايضاً « أما الشهوات الشباوية فاهرب منها » (٢ تي ٢ : ٢٢)
وقال الرسول بطرس « هارين من الفساد الذي في العالم بالشهوة »
(٢ بط ١ : ٤)

الفصل السابع

في أنه لا سعادة في العالم

« لماذا خرجت من الرحم لأرى تعباً وحزناً فتفنى بالخرى
أيامى » (ار ٢٠ : ١٨)

يقولون حياة وبها لا يفوزون ، ويتوهمون سعادة ومكاناً لها
لا يجدون، ويدكرون لذة وهم بها لا يشعرون . اولئك هم بنو البشر
الذين رأوا الموت يتهددهم فقالوا حياة ولا حياة . وشاهدوا الشقاء
يزعجهم فقالوا سعادة ولا سعادة . والفوا المرارة تعذبهم فقالوا
لذة ولا لذة

أين الحياة والسعادة واللذة في الدنيا أيها البشر لنسعن وراءها
وفي أى مكان توجد فنسير اليها . قولوا لنا فأننا نشتهي الحياة
لنعيش والسعادة لنبتهج واللذة لنطرب . انتم واهمون تعيشون
في الموت فتخيلتم أن هناك حياة حتى تأمنوا قليلا اذا ورد ذكر
الموت على خاطركم . وتدومون في الشقاء فظننتم أن هناك سعادة
حتى يهدأ روعكم اذا علمتم انكم اشقياء . وتنشأون في العذاب والألم
فأدى بكم الخيال الى ذكر اللذة لعل ذكرها نلاشي شيئاً من
اضطرابكم . قال ارميا النبي عن امثال هؤلاء « يشفون كسر بنت
شعبي على عثم قائلين سلام سلام ولا سلام » (ار ٦ : ١٤)

فكل هذه العبارات التي ابتدعها الناس . سعادة . راحة .
 نعيم . لا توجد في الدنيا وأما ما يوجد في العالم حقاً فهو الخوف
 والشر والضعف . وأما تلك الالفاظ المشتهة فقد توهمها الخلق
 ليزيحوا بالوهم شيئاً مما يلزمهم من العذاب . الحياة لا تصاحب
 الانسان بل يرافقه الموت . والسعادة مفقودة ويكتنفه الشقاء .
 واللذة غائبة ونصيبه الألم . اذا سمعتم بواحد يولد تسمعون بألوف
 يموتون واذا ذكر امامكم غني واحد ذكر امامكم كثيرون من
 الفقراء واذا وصل اليكم خبر رجل سعيد طرقت آذانكم اسماء
 اشقياء لا يحصى عددهم . اذا رأينا قصراً شاهقاً وجدنا حوله الوفاء
 من الاكواخ والبيوت الحقيرة

فالحياة ليست داراً تتم فيها اسباب السعادة بل من يتأملها جيداً
 يجدها مسرحاً تمثل فيه كل يوم الادوار المحزنة من ظلم وسحق
 واغتصاب . من دموع وانات وزفريات . من أوجاع وآلام
 وعذاب . من زلازل وزوابع وعواصف وبراكين وحروب تقنى
 ممالك برمتها . بلاء في البحر وشقاء في البر . موت شره لا يشبع
 يرسل رسله الى القصور والاكواخ . وارض تنبت شوكتاً وحسكاً
 واتعاباً وبلايا . فكل ما تراه يلزمك بان تشهد بانه « لا سعادة
 في الحياة »

ولو اردنا ان نتعرف هل في الدنيا سعادة حقاً فعلينا ان
 نسأل الاعضاء التي تحس فيها لنرى ماذا يكون جوابها . ماذا تسمع
 آذاننا ؟ انها تسمع ما يصدعها اكثر مما يطربها . تسمع في فترات

قليلة اصوات ضحكك وسرور ولكنهما في أغلب الاوقات
تسمع بكاء الباكين ونحيب المنتحجين ونشيج الحزاني وعويل
المتألمين . صوت الغناء يردها كصوت غريب وصوت الانين
يصلها كشيء ألفتها وتعودت سماعه . ماذا ترى عيوننا ؟ ليس في
العالم ما يبهجها فاذا شاهدت ما يروق مرة شاهدت ما يجرح
مراراً . اذا وقعت على ما يسر دفعة وقعت على ما يحزن دفعات .
وماذا يذوق لساننا ؟ انه اذا تمتع قليلا بطعام يستطيبه وبشراب
يستلذه فلا ينسى ما يتذوقه من المرارة في ابان الامراض وفي
اوقات الاحزان حيث تتحول حلاوته الى مرارة وارتواؤه الى
عطش ويبوسة محرقة ولنسأل القلب مستودع الاسرار : حدثنا
عما يدخل اليك من السرور . آه لو فحصت قلوب الناس جيداً
ولو فتحت ليري ما استقر داخلها ورسب في اعماقها من انواع
هموم مختلفة وغموم متباينة : لو شاهدنا كل ما تطويه قلوب
الناس وتضمه انمئذتهم من آلام وحسرات لصحنا قائلين « أين
السعادة ؟ » بل لقال كل منا مع يونان النبي « موتى خير من
حياتى » (يون ٨:٤)

ان الفحمة السوداء اذا اتحدت بالنار صار لونها جاذباً
للاطفال فاذا لمسوها احرقت ايديهم . ان الرذيلة الشهواء تتحد
باللذة التي هي كالنار فتكتسب بها لوناً لا ينفر الناس منها
فيتخذونها سبباً للبهجة واصلاً للسعادة واذا بها تحملهم الى الهاوية
والهلاك . يخال للواقف على سطح السفينة انه على شيء ثابت

راسخ وهو لا يدري أنه يعوم على سطح الماء ولو نفذ قليل من الماء الى السفينة التي اتخذها موطناً له لغاص هو وهي في جوف البحر . ان لا لفريد دى فينى لما وجد كثيرين يتوهون في الطبيعة عزاء وسلوى خاطبها قائلاً « انهم يسمونك اما حنوناً وما انت الا قبر »

فالانسان اذا سیر في الحياة ويتوهم السعادة وهماً بينما يحيط به الشقاء وحده من كل ناحية . لذا ترى افكاره وآماله مزدحمة بمطامع واسعة ولها تتوقع الفرح والبهجة . ياللعجب أكل ما تسمعه من المحزنات وما تشاهده من المكدرات وما تحس به من المؤلمات غير قادر على اقناعك بانك تعيش في ارض ليس فيها سرور ؟
فقل لى بحقك بماذا يتنعم الناس . أبالغنى ، أليس الاغنياء هم الذين يعيشون دائماً في هم وغم وخوف ووجل . ابالكرامة ؟ ومن يستطيع ان يجحد ان انعكافه على طلب الكرامة كان داعياً لاضطرابه وقلقه وان سعيه المفرط في رخاء العيش وزخرف المعيشة ونعومة المجلس كان سبباً لارتباك وضنك افكاره بالذلة ؟ فليتأمل الخاطيء في ما تسببه له لذاته من الاحزان الشديدة وما تنتجه شهواته من الهموم المذنبية وما تثمره تنعماته من المخاوف المزعجة . قال اشعيا النبي « لا سلام قال الرب للاشرار » (اش ٤٨ : ٢٢)

وقد سئل أحد محبي الملاذ « هل كنت تجد راحة بخصولك على الملذات التي تشبهها فاجاب « كنت كلما أجد ملذات وأحصل على

منكرات اشعر بأن شهوتي تزداد وتتضاعف ولم اجد راحة وما كنت استنرق في الملذات الا لكي أتسلى عن ذلك القلق الذى كان يعذبنى ليلاً ونهاراً »

كثيرون يسيرون بالليل والاختار الهائلة تعترض سبيلهم وهم لا يشعرون . الحشرات تحت اقدامهم والحفر في سبيلهم والوحوش تكمن لهم يميناً وشمالاً وهم مع ذلك يسلكون طريقهم الوعرة مطمئنين غير مباين باى خطر من الاختار . هكذا الذين يسيرون فى هذا العالم بعمى القلب والمرض ينتظرهم والخوف يهددهم والموت جاثم لهم فى كل بقعة من بقع الارض قاصداً افتراسهم ومع ذلك يسيرون ضاحكين كأنهم لا يرون شيئاً

ان النائم تمر بجانبه الافعى ولا يشعر بها الا اذا لدغته . كثيرون ينامون والخطر نائم في قلبهم ولا يرتعبون . لا يشكون ولا يتألمون بل يرفعون اصوات ابتهاجهم وطربهم . ان الذى يسير فى ارض مملوءة بالاختار ولم يكن قد طرقها من قبل لا يكون خوفه شديداً لانه لا يدري أهى امينة أم خطرة . فالذين يسيرون فى العالم بقدم ثابتة هم بعيدون من معرفة حقيقته ، هم يعيشون فى ارض لا تنبت فيها الا اشواك البلايا والمصائب ولا تكاد تعبر طريقاً الا وتجده محفوفاً من كل جانب بانواع الخواف

إن ساعة سرور واحدة تعقبها اعوام من الكدر والكابة بل ان الفرح يعتبر علة للحزن . وذكر السعادة هو مصدر الشقاء وما الذين يتعذبون فى الحياة الا القوم الذين يعتبرون الدنيا دار

فرح ونعيم . وما الذين يبتهجون الا القوم الذين يتأكدون
انها دار حزن عميق والذين يطلبون السعادة من الدنيا انما يطلبون
المستحيل وهم كمن يطلب البرد من النار والحلاوة من العلقم . قال
اسكندر الاكبر المكدوني في خطابه لاهله عندما شعر بموته
« لا تدخلني اليك الا من اصاب بمصيبة لتري ان المصائب نصيب
جميع الناس حتى تتعزي على موتى » ولسان جميع البشر على اختلاف
انواعهم لا يحسن النطق بلغة أخرى ك لغة التذمر والشكوى من
اتعاب الحياة

فحق لك اذاً اذا استيقظت من نومك ان لا تفكر في ما
ستصادفه من السعادة بل في ما يحل بك من الشقاء لان مجيء
السعادة بعيد وقدوم الشقاء قريب قال احدهم « ان أبعد سفر
هو ما كان في طلب السعادة ولكن عبثاً تهرب من الشقاء »
وهوذا ارميا النبي يسأل نفسه قائلاً « لماذا خرجت من الرحم ؟ »
واذا سأل كل منا نفسه هكذا لسمعنا اجوبة مختلفة . فمن يقول
خرجت من الرحم لأتعم ، ومن يقول لأتعظ . ومن يقول
لأفوز بالغنى . ولكن هذه الاجوبة قد أملاها على الناطقين بها
روح الوهم والغرور . فلنسمع الجواب الصحيح الذي يحققه
اختبار كل منا وهو « لأرى تعباً وحزناً فتفنى بالخيال أياي »
طلبت فتاة صغيرة من شيخ ان يتنبأ لها بمستقبل حياتها فاجاب
مما يعلم عن مستقبل كل انسان « ستملاء حياتك الآمال
والاحلام ولكن آمالك في الحياة باطلة واحلامك فيها خائبة

ولن تستطيعين الحرص على من يحبونك ولا نيل ما تحبين .
 وستجربين وراء السعادة جرياً تدمي منه قدماك . وسترينها على
 متناول اليد منه حتى اذا مددت يدك لتقبضين عليها قبضت على
 الفضاء وسقطت يدك في الهواء وستجثين عند ذلك على قدميك
 وتضعين رأسك فوق ركبتيك وتبكين منتحبة حتى يكاد يقضى
 عليك وتموتين مائة مرة في مائة أمل خائب »

فيالتفاقم جهل الاشرار وغباوتهم . انه اذا دخل انسان غابة
 نصبت فيها اشراك مختلفة وشاهد جثث كثيرين من الذين
 هلكوا فيها ففي الحال يهرب لينجو بحياته واذا ولج الغابة بعدما
 شاهد ذلك دعي غيباً جاهلاً . لعمرى انك لأشد جهالة وغباوة منه
 لانك ترى صاحبك الذي احب الغنى مات كئيهاً والذي احب اللذة
 مات تعيساً والذي ارتفع الى اسمى درجات المجد انطوى في القبر
 البلقع وانهار عليه التراب وانت مع ذلك تسلك طريقهم كأنك
 اكبر من ان يصيبك ما اصابهم ويحل بك ما حل بهم . وكثيرون
 هم الذين جروا وراء مشترياتهم ولما فازوا بها لم يشعروا انهم
 اسعد مما كانوا من قبل

فاى مكان تظؤه قدماك ولا تدوس فيه اشواكاً غرسها
 العالم لأذية الناس ولا تعثر بجثث الموتى الذين اخذوا بحبه
 فاهلكهم . قال الحكيم « لانه ماذا للانسان من كل تعبته ومن
 اجتهد قلبه الذى تعب فيه تحت الشمس . لان كل ايامه احزان
 وعمله غم ايضاً بالليل لا يستريح قلبه هذا ايضاً باطل هو » ٢٢: ٢٣ و ٢٣

فكل شيء في العالم يسر لا بد ان ينقلب الى ضده ، فلا غناه غنى ولا خيره خير . فسعة العيش تنقلب الى الفاقة ، والافراح تتحول الى أحزان . اليوم ترى ذينك العروسين فرحين بحفلة عرسهما وغداً يفرقهما الموت فالحزن التابع يفوق الفرح السابق . ومن يرفل بالملابس الفاخرة ويزدهي بها كالطاووس سيكسوه القبر نسيج العنكبوت

فهذا المجد الذي نراه بهيماً عظيماً يجري كساع واذا ركضنا وراءه فلنعلم اننا نركض وراء الموت واذا بلغناه فما اعظم شقائنا . قال القديس اوغسطينوس « ان الخيرات الزمنية من دأبها ان تديننا شوقاً اليها وهي مستقبلة وتشغلنا وتعبنا وهي حاضرة وتعذبنا اذا بطلت واضمحلت . فاذا انتهت عزت وكبرت واذا امتلكت صغرت واذا فقدت بطلت واضمحلت »

قالت ماري انطوانيت امبراطورة فرنسا « انى ابحت عن الراحة فلا اجدها فما أحقر عيش ذوى التيجان وما أشد فعل العواصف بضخام الاشجار » وقال بسمارك السياسى الالماني لا يمكن ان نجد رجلاً سعيداً في أحد الايام . ولو انى أحصيت الدقائق التى أصبت فيها السعادة لما زادت في مجموعها عن أربعة وعشرين ساعة »

ان أحد ملوك اسبانيا المشهورين العظام جلس على عرش الملك زمناً مديداً بعز عظيم وقد قال قبل موته لاحد أخصائه انى قد قيدت ايام السعادة التى قضيتها مدة ملك ستين سنة وعند

اطلاعى على القائمة لأرى كم كانت السعادة انذهلت فكم تظنها
يا صاح انها بالحقيقة لم تزد عن اليوم الواحد « ونلسن القائد
الانكليزى العظيم الذى كان مولعاً بالشهرة والمجد والعظمة لما
تحصل عليها قال يوماً الى اصحابه « اننى رجل عظيم ولا مثيل لى
بالعظمة والاكرام ولكننى أعتنى من كل قلبى ان اكون صبيهاً كما
كنت »

هذا على ان سعادة العالم اذا امكن الحصول عليها وذلك
بعيد فكم من الزمن تظنها تدوم . ما اسرع تقلب الايام
وتلون الاوقات : نحن نعلم ما ارق الخيط الحريرى الذى
تنسجه العنكبوتة حتى انه لعظم دقته يكاد لا يرى ومع ذلك فانه
اقوى من الرباط الذى يربط به غنى العالم وما فيه . وهب ان لك
حقولاً جميلة وقد هبطت بها الطيور تلتقط منها فتظن انها اصبحت
طيورك لانها فى حقلك ولكن هل يمكنك ان تؤكد كم من الزمن
تبقى فى ارضك ربما بعد قليل تصعد طائرة الى حيث لا تعلم . هكذا
مجد هذا العالم وغناه . قال الحكيم « لا تتعب لكى تصير غنياً .
كف عن فطنتك هل تطير عينيك نحوه وليس هو لانه إنما يصنع
لنفسه اجنحة كالنسر يطير نحو السماء » (ام ٢٣ : ٤ و٥)

كان سيسوسترس احد ملوك مصر جباراً غنياً وفاتحاً منصوراً
فى أحد حروبه التى انتصر فيها غلب اربعة ملوك واتخذهم أسرى .
ولما كان راجعاً الى عاصمة مملكته منتصراً كان هؤلاء الاربعة
الملوك مقطورين فى مركبة يجرونها مكان الخيل وفيما هم داخلون لاحت

الملك الظافر ان أحدهم يراقب دولاب إحدى المركبات بنظر وانتباه عظيمين وعيناه كانتا شاخصتين وبأن من أمره انه في لمح الافكار غريق والدموع تسيل بغزارة على خديه فامر سيسوسترس بان توقف المركبة وسأل الاسير ما بالك وماذا تقصد بالنظر الدقيق الى ذلك الدولاب . اجاب « اننى وانا ناظر الى هذا الدولاب ألاحظ فيه التغيير الدائم والدوران الغير المنقطع . وانتقال أعلاه الى اسفله واسفله الى أعلاه يمثل أمامى حالة حظوظ الناس في هذه الدنيا وتقلب العالم بهم من حال الى حال فانى كنت بالامس في اعلى الدولاب والآن انا في اسفله » فلما سمع الملك الظافر هذا الكلام تأثر به تأثيراً عظيماً وفي الحال أمر بحل الاسرى من المركبة واطلق سبيلهم .

فاذا كانت للعالم علاقة بالملمات فلا نه مقبرتها لا لأنه منبعا . وأى مدفن للذات غير العالم . ففي المكان الذى تولد تموت وفي المكان الذى تذوق حلاوة الفرح تذوق مرارة الاسى على الفراش نتلقى القبلة الاولى وعلى الفراش نلفظ النفس الاخير والارض التى نختال فوقها متكبرين نصبح تحتها مذلين . وفي القصر الذى يرتفع فيه صوتك بالضحك يرتفع فيه صوتك بالانين فيه قلت أول كلمة وفيه يحصل صمتك الاخير . فكم من قصور كانت تعلو فيها اصوات الاغانى صارت الآن قاعاً صفصفاً وقد اختفت الاصوات وتوارت الاشباح . مظاهر الحياة وقتية فلا ينبغى ان تأبه لها . فالكرمة التى تخضر فى الصيف تيبس فى

الشتاء . والبيت الذي ترى منه النور يسطع تأمله بعد حين فإذا به قد انطفأ نوره وغاب سرور أهله . فكم من بيوت مرت بها عائلات متعددة فرأت كيف يذوق افرادها كؤوس السرور وكؤوس العلقم . شاهدتهم وهم يولدون وابصرتهم وهم يموتون فالنفس اذاً لا يمكنها أن تصادف راحة او تحس بسعادة طالما كانت تطلبها من ايجاد هذا العالم الزائلة والذين يطلبون ذلك يناديهم الله قائلاً « قوموا واذهبوا لانه ليست هذه هي الراحة » (مى ٢ : ١٠) فإذا اردنا ان نكون سعداء حقاً فليكن لنا الايمان درعاً ولتكن لنا الفضيلة سلاحاً نصدد بها كل ما يعترضنا من صعوبات هذه الحياة « يأكل الودعاء ويشبعون . يسبح الرب طالبوه . تحيا قلوبكم الى الابد » (مز ٢٢ : ٢٦) « فى مراعى خضر يربضى . الى مياه الراحة يوردنى » (مز ٢٣ : ٢) فناء اللذات الدنيوية ممزوج دائماً بالاكدار وأما مياه الراحة الالهية فهي صافية نقية لا يعكرها شيء . بل أن ما يحزن أهل العالم ويخيفهم يكون للمؤمن سبب راحة ومسرة . فانهم يجدون فى الصبر حلاوة وفى الضعف فرحاً وفى التجارب سلاماً وفى الاضطهادات بركة عظيمة . قال الحكيم « التابع العدل والرحمة يجد حياة حظاً وكرامة » (ام ٢١ : ٢١) وقال ايضاً « بركات على رأس الصديق ... وشهوة الصديق تمنح ... منتظر الصديقين مفرح » (ام ١٠ : ٦ و ٢٤ و ٢٨)

الفصل الثامن

في سرعة زوال هذه الحياة

« اياي اسرع من عداء تفر ولا ترى خيراً » (اى ٩ : ٢٥)

لو أدركنا الطرف وتأملنا أحوال البشر لوجدنا حياة الانسان
عزيزة عنده بهذا المقدار حتى انه يفديها بأعز شيء لديه كما
نرى ان الذين كانوا مسافرين الى ترشيش ومعهم يونان النبي
طرحوا كل ما كان معهم من غل ورخيص في قاع البحر بغية نجاة
نفوسهم (يون ١ : ٥)

ولم تعز الحياة على الانسان هكذا الا لتوهمه بأن عمره يطول
ومدة عيشه على الارض لا تنتهى حالا فتراه يحلف برأسه وعند
ما يرى نفسه ذا صحة وعافية يفتكر أن الموت بعيد منه ولا يقدر
ان يقترب اليه . هذا وأمثاله هم الذين قال عنهم يعقوب الرسول
انهم لا يحسبون لانتهاء حياتهم حساباً فيقولون نذهب اليوم أو
غداً الى هذه المدينة أو تلك وهناك نصرف سنة واحدة ونتجر
ونربح . عوض ان يقولوا ان شاء الرب وعشنا . فناداهم الرسول
قائلاً « ما هي حياتكم انها بخار يظهر قليلاً ثم يضمحل » (يع ٤ :
١٣ - ١٦)

وما يدل على جهل الانسان انه ينظر دائماً للذين عاشوا

طويلاً ولا ينظر للذين عاشوا قصيراً. فلماذا تحسب نفسك مع الذين يعيشون للشيخوخة ولا تحسبها مع الذين راخوا في مقتبل العمر قد يكون خيط هذه الحياة الذي أنت متعلق به متيناً وثابتاً وقد لا يكون كذلك فتأمل في كيف تتخلص مما لا تضمن . حكى ان ارنفس أمير فلندره كان ذات يوم معذباً من عسر البول عذاباً اليماً فتشاور الاطباء في امره واجمعوا على ان يعالجوه بالشق فاراد الملك ان يرى التجربة في غيره قبلاً ففقتشوا على من كان مبيعاً بهذا الداء حتى وجدوا عشرين شخصاً فعالجهم الجراحون بالشق فشفى منهم تسعة عشر ومات واحد فعاد الاطباء للملك بفرح يبشرونه بحسن النتيجة أما هو فاغتم وقال لهم « ومن أدراى ان لاًأ كون أنا كالأواحد الذي مات لا كالتسعة عشر الذين لم يموتوا » فمن غباوتنا اذاً ونحن نرى ألوفاً ينقلون الى المقابر في عنفوان شبابهم أن نعتقد باننا سنعيش حتى الشيخوخة .

قال احد الحكماء « الذى لا بد منه ينبغي أن تقبله بفرح وسرور » فكثيرون يخافون من الموت ويظنون انه يمكنهم بواسطة حذرهم ان ينجوا منه حتى ان بعضهم يسألون المنجمين عن الميته التى بها يموتون لكى يحاطون لها ويتعضون أوقاتهم بالتوقى من الاخطار والتحرز من أسباب الهلاك الى حد يورثهم الوسواس والجنون فيحاذرون ويحرمون انفسهم لذة الطعام والشراب ويتوهمون ان فى كل جرعة غصة ويتخيرون لهم أنوعاً خاصة من الغذاء الى أن يملكهم الخوف حتى ينتهي باضعاف اجسادهم فيستعملون

الادوية وهكذا تحل بهم الامراض التي حاولوا الهروب منها
فلم يفلحوا

والغريب انهم لا يكتفون بمقاومة ما في طوقهم مقاومته بل ينصرف
همهم الى دفع ما لا دافع له من القضاء المحتم فمنهم من لا يركب البحر
خشية الغرق وفي البر خوف مصادمة القطارات وقد بلغ الحمق
برجل يدعي ارتيمون انه كان يجعل اثنين من عبيده يحملون فوق
رأسه دائماً ترساً خوفاً من ان يسقط عليه شيء من العلاء فيرض
رأسه

أمثال هؤلاء يستبعدون الموت وينكرونه فلا يكادون يصدقون
موت النجاة فاذا أخبرتهم بحادثة من هذا القبيل أخذوا يتعللون
لذلك العلل ويتمحلون الاسباب وينتحلون للميت أمراضاً كامنة
وأدواء مزمنة لم تكن به . واذا أخبرتهم بموت شاب في ريعان
شبابه وغضاضة سنه أخذوا يزيدون ماشاؤا من السنين في عمره
ومن هذا القبيل ترى كثيرين ولغوا باخفاء حقيقة اعمارهم والاجتهاد
دائماً في تنقيص سنيها ومنهم من يصبغ شعره الذي بيضه طول
الأجل بالاصباغ السوداء ليوهبوا ذواتهم وليغشوا انفسهم
وليطرحوا من فكرهم امكان مفاجأة العدو الالدهم على حين غرة
منهم وهم في مظهر القوة والشباب وليطمئنوا على هذا التراخي
الموهوم

غير أن كل تمرز وكل من هذا القبيل لا يجدي نفعا ولا
يغنى في حفظ الحياة وهوذا ايوب الصديق يقول « اذا مضت

سنوب قليلة اسلك في طريق لا أعود منها » (اي ١٦ : ٢٢)
 ويقول ايضاً « لاننا نحن من أمس ولا نعلم لان أيماننا على الارض
 ظل » (أى ٨ : ٩) ويوضح ذلك ايضاً ما قاله داود النبي « عرفني
 يارب نهايتي ومقدار ايامي كم هي فاعلم كيف انا زائل . هوذا
 جعلت أياي أشباراً وعمري كلا شيء قدامك . انما نفخة كل
 انسان قد جعل سلاه انما كخيال يتمشى الانسان » (مز ٣٩ : ٤
 — ٦) وقد شبه الكتاب حياة الانسان بريح تذهب ولا تعود
 « مز ٧٨ : ٣٩ »

كل البشر يعلمون انهم سيموتون ولكن كثيراً منهم خدعوا
 فتصوروا ان الموت بعيد عنهم بعداً شاسعاً كأنه لن يدنو
 منهم . فلا يغشنا هذا الخداع وايوب ينبهنا قائلاً « الانسان
 مولود المرأة قليل الايام وشبعان تبعاً . يخرج كالزهر ثم ينحسم
 ويرح كالظل ولا يقف » (اي ١٤ : ٢١) وقال اشعياء النبي
 « صوت قائل ناد . فقال بماذا أنادي . كل جسد عشب وكل
 جماله كزهر الحقل . يبس العشب ذبل الزهر لان نفخة الرب هبت
 عليه » (اش ٤٠ : ٧ و ٦)

ان الايام تمر بسرعة وانت تسير نحو الموت فلا تتكلم على
 شيء حتى تأمن لحياتك وتجهز طعام السنين المقبلة . لا تغرك صحتك
 الجيدة واعضاؤك القوية فكم من كثيرين كانوا ذوى صحة
 وعافية ودم الشباب يجري في عروقهم ولكن الموت لم يخف منهم
 بل سطا عليهم وارداهم واذوى غصن صباهم . ولا تعتمد على غناك

لان الموت لا يقبل رشوة « لا ينفع الغنى في يوم السخط »
 (ام ١١ : ٤) « ولا تظن ان أهلك يتمكنون من انتقاذك » فالأخ
 لن يفدى الإنسان فداء ولا يعطي الله كفارة عنه « (مز ٤٩ : ٧)
 اعتبر ايها الإنسان بمن تراهم معك الآن ثم يفارقونك في
 لحظة ولا تعود تراهم فما أنت الا واحد منهم ولا بد ان يحل
 بك ما حل بهم . فنهار امس قد مضى ونهار غد لا نعلم هل نحظى
 به أم لا نحظى وقد عبرت جملة ساعات من اليوم الحاضر وزالت
 منا . والساعات الباقية لا نعلم هل نبلغ اليها أم لا نبلغ لان
 الموت ينازعنا فيها . وكما قال ايوب « روحي تلفت . اياي انطقت
 انما القبور لي » (اى ١٧ : ١)

وبكل صدق وصواب يسمي الكتاب هذه الحياة « ظل الموت »
 (مز ٢٠ : ٤) وهائم المرتل يقول ايضاً « اياي كظل مائل
 وأنا مثل العشب يبست » (مز ١٠٢ : ١١) وقال ايضاً « الإنسان
 أشبه نفخة . أيامه مثل ظل عابر » (مز ١٤٤ : ٤) فلك ان تحتبر
 أيها الإنسان خيالك الذي لا يثبت في موضعه دقيقة واحدة .
 ضع حداً وقف في مكانك ثابتاً وانظر الى خيالك لتشاهده وقد
 انتقل عن الحد المعين . فالظل لا يبرح متنقلاً من الصباح الى المساء
 والعمر يواصل انتقاله من صباح المولد الى مساء الموت

أجل أن حياة الإنسان اسرع زوالاً من جميع الاشياء فهو
 يمكنه أن يضمن بقاء ثروته أو ثيابه للصباح ولكن لا يمكنه أن
 يضمن حياته : لان الارزاق والثروة وما يباهيهما قد تبقى موجودة

بعد موت الانسان وتنتقل الى سواه أما الحياة فانها معرضة للزوال بفعل قليل من البرد أو الحر أو من مقدار ذرة من السم فمثل هذه الاشياء اليسيرة تكفي لهدمها وازالتها : ومن يتأملها جيداً يجدها أسرع عطباً من الزجاج لان الزجاج لا يكسر الا بلامسته أما الحياة فلا يمكننا أن نحفظها من الهلاك

ألم نسمع أن كثيرين قد ماتوا بالسكتة القلبية في الوقت الذي كانوا يتباهون بقوتهم واعتدال قوامهم . ان الانسان أشبه برجل نائم في غابة وحوله ألوف من الوحوش والحشرات وكلها تجد في طلب الفريسة وهو لا يدري . نعم ان كل شيء في الوجود يسعى لافتراس الانسان بل لو تأملت ايها المرء لوجدت ان جسدك مركب من العناصر المضادة التي يحارب بعضها بعضها ويوجد بعضها في اباداة البعض الآخر اى في اباداة الحياة . ففي داخلك ما يناديك بقضاء الموت المحتوم عليك عاجلاً . وقال ايوب « في لحظة يهبطون الى الهاوية » (اى ٢١ : ١٣) وقال ايضاً « بغثة يموتون » (اى ٣٤ : ٢٠) وقال الحكيم « الكثير التوخي المقسي عنقه بغثة يكسر ولا شفاء » (ام ٢٩ : ١)

هذا على أن الانسان اذا عاش طويلاً فهو عند موته لا يدري بحياته التي مرت ولا يعتبرها اكثر من لحظة . وما الفرق بين ابن عشر سنين وابن الف سنة عند حلول الموت وانقضاء الزمان ان حياة كليهما ابتدأت بالولادة وانتهت بالموت فكلاهما ولد ومات فالالف سنة تعتبر عند الموت كيوم واحد . قال ايوب البار

الذى عاش مائتين وخمسين سنة « أليست أيامي قليلة » (اى ١٠ : ٢٠) فعنده أن الحياة التي تدوم ثلاثة قرون ليست بشيء . وهما كم يعقوب البار اذ سأله فرعون كم هي ايام سنن حياتك ؟ اجابه « ايام سنن غربى مائة وثلاثون سنة . قليلة وردية كانت ايام سنن حياتى ولم تبلغ الى ايام سنن حياة آبائى فى ايام غربتهم » (تك ٤٧ : ٩)

فقل فى نفسك اذا اين رفاقى وخلانى الذين كنت منذ وقت قصير ألعب معهم وأتلاذ واطرب . لقد جازوا وتركوك وحدك كثيرىون منهم اضطجعوا على اسرتهم وهم يفكرون فى الملذات التي يستمتعون بها وزارهم الموت بنمة فحلموا من مخادعهم الى المقبرة . اغمضوا عيونهم ولم يفتحوها . وضموا ايديهم ولم يبسطوها واحنوا رؤوسهم ولم يرفعوها . قال هوميروس « حياة الانسان أشبه شيء بورق الشجر الذى لا يدوم أكثر من فصل سنوى » وقال أحد القديسين « انه لا عدو الاسد ولا طيران الباشق ولا مروق السهم فى الهواء يعبر أتم تعبير عن قصر هذه الحياة وزوالها »

فكل هذه الاقوال توضح لنا ماهية هذه الحياة ومن يفحصها أكثر يجدها على هذه الصفة . يوم يطرد يوماً وسنة تهزم اخرى . فكما أن يوم أمس طرد الذى قبله كذلك هذا اليوم دفع يوم أمس ويوم غد يدفع يومنا هذا وهكذا فالايام يودع بعضها

بعضاً ويمر الواحد بعد الآخر وتسوقنا سرعة مرورها الى الموت
يوم يظهر وليل يختفي . ويوم يختفي وليل يجيء ونحن ما بين
لذة النهار وامل الليل نعيش في غفلة ولا نعلم أن النهار سينقطع
ظهوره ونبتى في ظلمة القبر . قال المرتل « ترجع الانسان الى
الغبار وتقول ارجعوا يا بنى آدم . بالغداة كعشب يزول بالغداة
يزهر فيزول . عند المساء يحز فييبس . أيام سنينا هي سبعون
سنة وان كانت مع القوة فثمانون سنة وانفراها تعب وبلية لانها
تقرض سريعاً فنظير » (مز ٩٠ : ٣ و ٥ و ١٠)

فهذه الحياة وان ظهرت لنا طويلة فهي قصيرة جداً حتى انه
لا يمكننا ان نضمن عمرنا دقيقة واحدة . وكما أن الضباب الذي
يرتفع الى الجو تذيبه أشعة الشمس كذلك حياتنا التي نرغب فيها
ونهوها والتي تظهر لنا عظيمة وغالية بهذا المقدار فانها بعد قليل
تزول وتمحى كقول المرتل « أفنينا سنينا كقصة » (مز ٩٠ : ٩)
فلا تسأل اذاً عن الانسان كم يكون عمره بل كم سنة مرت من حياته
لانه بمقدار ما تنمو الاشجار بمقدار ما تميل الى السقوط كذلك
حياة الانسان كل ما يمر منها يقدمها الى الفناء

قال حزقيا النبي « مسكنى قد انقلع وانتقل عن كخيمة الراعي
لفقت كالحائك حياتى من النول يقطعنى النهار والليل تفننى »
(اش ٣٨ : ١٢) فهو يشبه حياته بالنسيج اذ كما ان النسيج يتكون
بكثرة الخيوط هكذا الحياة تتكون بكثرة الايام . قال أيوب أيضاً

«أيامي أسرع من الوشيعة وتنتهي بغير رجاء» (أى ٧: ٦)
 وشبه سرعة أيامه في مكان آخر بأكثر من سرعة العداء أو
 الراكض غير أن العداء لو أسرع الجري بما يفوق قوته فلا بد له
 من الوقوف بعض الأحيان لأجل الأكل والنوم وما يضطر إليه
 الجسد. أما أيام الإنسان فلا تزال هاربة على الدوام وتجري إلى
 الموت سريعاً

قال أحد الأفاضل «لو أردنا أن نعرف حياة الإنسان فيلزمنا
 أن نجمع تقائص البرية كافة وجميع حقارتها وكل نوع من شقائها
 لنشبه بها فناء هذه الأجساد فنأخذ من الزهور ذبولها ومن
 الشمس غروبها ومن كافة الكواكب خسوفها ومن الفصول تغيرها
 ومن كل شيء اضمحلاله وزواله» وابتنا لذلك نجد أن جل
 كتبة الكتاب المقدس اجمعوا على تشبيه حياة الإنسان بزهر
 الحقل. وقد أرادوا بذلك أن زهر الحقل أكثر الأشياء تعرضاً
 للاخطار فالشمس تيبسه. والريح الباردة تجففه. والناس تدوسه
 والحيوانات تأكله. والماء يغرقه. والحر يذبله. وهكذا أي
 لسان يستطيع أن يحصى كثرة الاخطار المحيطة بالإنسان المهددة
 لحياته؟ ومن ذا يمكنه أن يعد الامراض المتباعدة التي تصادفه
 وهو لا يشعر بها

وقد شبه ايوب حياته بالسفينة في قوله «تمر مع سفن
 البردي» (أى ٩: ٢٦) وذلك لأن السفينة مع كونها تسرع في

جريها فانها معرضة لاططار كثيرة لاتلافها فاذا صدمت صخراً
انكسرت أو رملا انفرست . هيجان البحر يفرقها والرياح
العاصفة تحطمها . قال أحد القديسين « من يركب سفينة ويسافر
في البحر لا يزال سائراً مع كونه لا يتحرك وانت على هذا القياس
ولو ظهر لك انك واقف في الدنيا فانت سائر بسرعة الى الموت
فانك محاط بمجذنين احدهما أبيض والاخر اسود وهما النهار والليل
اللذان يقرضان العمر على الدوام » فلهذا لا يمكننا ان نسر
ونتمتع بخيرات حياة مثل هذه الحياة . لانه أية لذة يجدها من
ينظر اسداً آتياً نحوه بسرعة البرق فانغراً فاه لافتراسه . وهكذا
أى سرور يحصل عليه من يعيش في هذه الدنيا وهو يرى الموت
هاجماً عليه كالوحش الكاسر في كل لحظة ؟ فالله في جعله حياتنا
سريعة بهذا المقدار كأنه يقول لنا « استعدوا للموت بالايمان الحي
والعمل الصالح في كل حين »



الفصل التاسع

في فناء المجد العالمي وبطلانه

« لا تخش اذا استغنى انسان اذا زاد مجد بيته . لانه عند موته
كله لا يأخذه لا ينزل وراءه مجده » (مز ٤٩: ١٦ و ١٧)

ان كثيرين من بنى البشر اذا لاحظتهم في تصرفاتهم ترى ان
كل ما تنطوي عليه افئدتهم وما ترغبه قلوبهم هو « المجد العالمي »
فله وحده يكرسون حياتهم ويبدلون كل قوى نفوسهم للحصول
عليه ويعرضون ذواتهم للخطر في السعى وراءه وهم في كدهم هذا
وجدهم يقولون بلسان حالهم « لا نشتهي الا مجد العالم وليست
لنا أمنية سواه ومحبتنا له لا تسمح لنا بالتفكير في غيره »

ولكن والأسفاه فانتنا والعالم الى الباطل وهو زائل بزوالنا
وهوذا المرتل يقول « يذخر ذخائر ولا يدري من يضمها »
(مز ٣٩ : ٦) ليت شعري ما هو الغنى الذى يعتقد به الانسان
ولاجل الحصول عليه يرمى نفسه في مخاطر الموت ؟ وما هذه
المراتب والوظائف التى تسلب عقول البشر وتستهوئ افئدتهم
وما هذه الخيرات العالمية التى لا تفوز بها الا فى هذه الحياة
وسرعان ما تمارقنا عند ولوجنا الدار الاخرى ؟ لاجل هذا
ينبهنا الكتاب الالهى قائلاً « لا يفخرن الحكيم بحكمته ولا

يفتخر الجبار بجبروته ولا يفتخر الفنى بغناه « (ار ٩ : ٢٣)

حقاً ينبغي ان ندعو يوم الموت « يوم الخسارة » ولو
سألنا أقرباءنا واصدقاءنا الزاحلين لأجابونا محذرين ايانا قائلين
« احترسوا من أنفاق أعماركم فى خدمة هذه الامجاد الكاذبة
لاننا لم نأخذ شيئاً منها بل خسرنا كل تعبنا لاجلها » وقال أحد
الافاضل « اننا لا نقدر أن نعتبر هذه الأشياء ملكاً خاصاً بنا
لاننا لا نقدر على أخذها معنا الى العالم الآخر » وما الذى بقى
من قدرة اسكندر الكبير وغنى كريزوس وجمال الملكة كليوباتره
لقد اندهل الناس منهم فى مدة حياتهم وتحدثوا عنهم بعد مماتهم
بينما هم الآن تعساء أشقياء . قال القديس اوغسطينوس « انهم
يمدحون حيث لا يوجدون ويعذبون حيث يوجدون »

ان كثيرين من البشر يشتهون لو ذاع صيتهم واشتهر اسمهم ما
بين الملا ولكن مهماطار صيت الانسان الى اقاصى الارض فعما
قليل يموت ويصبح امره نسياً منسياً . فمن الغباوة اذاً ان نخسر
الخيرات الابدية لاجل هذه الاشياء الدنيئة . ما اشبهنا بعميسو الذى
باع بكوريته بأكلة من العدس فلاتشته العظمة العالمية ولا تبغ
اللذة الارضية فيأتى وقت فيه يتساوى العظماء والادنياء والاغنياء
والفقراء والمتنعمون وغير المتنعمين ويصبح « عال ودون اغنياء
وفقراء سواء » (مز ٤٩ : ٢)

أجل ان الغنى فى هذا العالم يتنعم اكثر من غيره ولكن هل
عند حلول المرض يخفف عنه القاعات المزينة الاوجاع وهل

يزيل الذهب والفضة مرارة القلب ؟ وهل الثروة والمجد يطردان عنه الآلام ؟ وعند احتضاره وانطفاء نور عينيه وماذا ينفعه من الغرور والذات ؟ وابن تكون المشتميات والتمنعات ؟ هوذا الحكيم يقول « من يتكل على غناه يسقط . اما الصديقون فيزهون كالورق » (ام ١١ : ٢٨)

قد يوسع الانسان داره ولا يقتنع مع انه بعد موته ، لا يملك من الارض سوى قطعة صغيرة تجمع عظامه البالية وقد يحب الانسان علو البناء بينما يد الموت تحفر له في الاسفل ، وقد يلذذ جسمه ويسمنه ولكنه انما يصنع به ولية للودود والحشرات . وقد يرغب الاضطجاع على فراش ناعمة وثيرة ولكنه فضلا عن أن ناعم الفراش يكون له شوكة في غضون المرض فانه يتحول الى الحد وتراب ممزوج بالحصى . فإين الصيت والفخر العالمي ؟ قد انتزعا . اين الابر ؟ قد بطل . اين الهيبة والعظمة ؟ قد سقطتا

فلا جمال يدوم ولا قوة تبقى ولا سعادة الا وتنتهي . فاذا كنت ترى شخصاً ذا طلعة بهية ولسان فصيح وقدمين سريعيتين ويدين عاماتين فتأمله بعد حين تره قد انحل وبطلت حركة اعضاءه فيصمت فنه وترتخي يداه ورجلاه وتهمد اعضاءه ويتحول ذلك الجسد النضير الى جثة سفراء خرساء لا يستطيع الانسان ان يثبت نظره فيها لشناعتها . ولا يقف امره عند هذا الحد بل يطرح في التراب ويصير مأكلاً للحشرات فيقول للقبر أنت ابى وللدود انت اى واخى (اى ١٧ : ٢٤)

غياة كهذه لا دوام لها لا يصح نسيان النفس لاجلها ولا
 ينبغي التباهي بها. ليملك الانسان كل ذهب العالم ول يتمتع بكل بطل
 الشهوات وليسكن أعلى القصور ويلبس أفخر الثياب ولكنه ما هي
 قيمتها اذا كان لا يضمن بقاءه للتلذذ بها وما أصدق وصف الرسول
 لها بقوله « لان كل جسد كعشب وكل مجد انسان كزهر عشب .
 العشب يبس وزهره سقط » (١ بط ١ : ٢٤)

ينعمون أجساداً ستفسدها احقر حشرات الارض . ويزينون
 قواماً سينحى رغماً . و يتمايلون بأعناق ستتكسر يوماً . ويفتخرون
 بعيون سيغلقها الموت . فحب العالم جاهل ومغرور . فلنفرض انه
 فاز بجميع ما يشتهي فك من الزمن يمكن أن تدوم سعادته
 على الارض ؟ هل يمكن أن تدوم له أكثر من مدة حياته ؟ وبعد
 وفاته لا يستطيع أن يدعو قصره للذهاب معه ولا يمكنه ان
 يقول للمال تعال اصحبني ولا يلتمس من المجد أن يرافقه .

ان سليمان الحكيم الذي وفر لنفسه كل اسباب السعادة
 الدنيوية لما افتركر انه لا بد من ان يأتيه الموت على حين غفلة .
 فيطرحه من اعلى فراشه الى الحضيض ويربط يديه عن العمل ورجليه
 عن المسير ويسد فاه عن الكلام ويملا عينيه من الظلام ويحرمه
 من كل ما عملت يده ولا يبقى بعد ذلك في ليته ساعة بل يدفع الى
 القبر . لما رأى ذلك دعا ملكه وكنوزه وملذاته حتى حياته
 باطلا (جا ١)

وقيل أن أغسطوس قيصر وهو يوجد بأنقاسه الاخيرة قال

« يا فارس رد لي جيوشي الجرارة لأودعها بنظرة اذ لا أستطيع قيادتها بعد فان أوامر إلهية تتخلل دماغي » وحكى أن صلاح الدين الايوبى سلطان العرب المشهور الذى دوح البلاد بفتوحاته وغزواته لما دنا أو ان موته أخذ وهو على فراش المرض يئن ويتنهد واجتمع حوله الامراء والاعيان وكبراء المملكة فأمر أن يؤتى بالكفن الذى كان مزموماً أن يكفن به جسده وأشار الى أحد الموظفين أن يأخذ الكفن وينصبه على رأس رمح الظافر ويسلمه لأحد سعاته ليأخذه ويطوف به فى جميع شوارع المدينة وينادى قائلاً « أن سيد الشرق لم يستطع أن ينزل القبر الا برداء واحد »

وكان فى بلاد الروم مما يلي ارض الاندلس مسيحي تقي رغب عن العالم وزهد فيه ثم وفد على المستعين بن هود فى بعض الامر فاكرمه ثم أخذ بيده وجعل يعرض عليه ذخائر ملكه وخزائنه أمواله وما حوته من النفائس وأوقفه على ما لديه من الخدم والحشم والعبيد والجوار وأقام على ذلك أياماً فلما انتقضت قال له كيف رأيت ملكي ؟ قال له رأيت ملكك عظيماً ولكنه يعوزه شيء واحد ان أنت قدرت عليه تم انتظاه . وان لم تقدر عليه فهذا الملك كلاً شيء . فقال وما هو ؟ قال ان تعمد فتصنع غطاء حصيناً قوياً وتكون مساحته قدر مساحة البلد ثم ترفعه على البلد حتى لا يجد ملك الموت اليك سبيلاً . فقال المستعين ياسبحان الله أو يقدر البشر على مثل هذا ؟ فقال الرجل التقي « يا هذا افتفتخر

بأمر تتركه غداً فان مثال من يفتخر بما يفنى كمن يفتخر بما يراه
في النوم »

وقد قيل أن سراي ملوك النمسا التي لبثت قائمة ٧٠٠ سنة
حولت بعد طرد الملك منها الى مكاتب للحكومة والشركات، والحديقة
العظيمة التي لم تطأها الا أقدام كبار الضباط قد قسمت الى دكاكين
صغيرة لمعارض وقتية ودائمة لا يسمع فيها الا أصوات التجار
ومساومات الباعة والشراة . فسبحان من يغير ولا يتغير . كيف لا
وهو القائل لنبوخذنصر « لك يقولون يا نبوخذنصر الملك ان
الملك قد زال عنك . ويطردونك من بين الناس وتكون سكناك
مع حيوان البر ويطعمونك العشب كالثيران فتمضي عليك سبعة
أزمنة حتى تعلم أن العلي متسلط في مملكة الناس وأنه يعطيها من
يشاء » (دا ٤: ٣١ و ٣٢)

قد يوجد كثيرون يحسدون الملوك على ملكهم والاغنياء
على غناهم ويشتهون لو يكونون نظيرهم ولكن انظر يا هذا الى
اولئك الممجدين كم يدوم مشهد مجدهم هذا ؟ غداً يموتون
ويصبحون محقرين مداسين بالاقدام وينفض عنهم كل المملقين
ويدومون منفردين في ظلمة القبر . فالمتى يعرى الانسان من
كل خيرات العالم . وهو لا يخلع الانسان من الدنيا فقط بل
يسلخه أيضاً . وما أعظم الفرق بين خلع الثياب وسلخ الجلد فاذا
رأيت محب العالم وهو يموت الفتيه يبكي بدموع سخينة واذا سألته
لم تبكي ؟ أجابك « كيف لا ابكي أسفاً على مفارقة ما قد

اكتسبته بجد وعناء مستطيلين . كيف لا أبكى وأولئك الذين يحبوننى ويشفقون علي هم أول من يسلمنى الى القبر ويتركونى فى ظلمة وحدى » واذ يرى نفسه محمولا لتترك كل ما اتكل عليه فمن يستطيع أن يصف مقدار حزنه وحرقة وندامته ؟

فياله من منظر محزن ان يشاهد ذلك العظيم خارجاً من قصره الى قبره دون ان يكون له أمل بالرجوع الى القصر مرة أخرى خيأتى غيره ويستولى على كل ماله ، وأهله ينقلونه بالبكاء مستوراً ببعض الملابس التى لا تحفظ جسده من الفساد . فلا يجد بعد من يواسيه أو من يبالسه ولا يبقى اعتبار لآوامره ويتساوى بأحققر حقير فى الارض ويصبح فى عداد المهملين فلا يذكر بعد ويتم عليه قول الحكيم « الغنى والفقر يتلاقيان صانعهما كليهما الرب » (ام ٢: ٢٢) و « كلاهما يضطجعان معاً فى التراب والدود يغشاها » (اى ٢١: ٢٦)

قيل ان ديوجينيس الفيلسوف اليونانى مثل يوماً أمام الاسكندر الاكبر واطهر انه مهم جد الاهتمام بفحص جملة من جماجم الموتى . فسأله الملك قائلاً « على م تفتش هكذا بعناية فيما بين هذه الجماجم فأجابه ديوجينيس قائلاً انى اخص لعلى أجد جمجمة أبيك الملك فيلبس ولكنى ما قدرت ان اميزها من باقى الجماجم فان كان يمكنك ان تعرفها فأرني اياها » وقال سينسكا الفيلسوف « ان البشر يتميز أحدهم عن الآخر فى المولد ولكن

بعد الموت يتساوى الجميع . وقال اوراثيوس « ان الموت يجعل صولجانات الملك ماثلة لمعاول الفلاحين »

وقال القديس أفرام السرياني « مررت يوماً على قبر في قفر فسألت لمن هذا القبر فقيل لي هو لاحد الملوك العظماء وقد دفن فيه رجل فقير صعلوك بجانب الملك تعال وانظر لعلك تستطيع ان تميز جثة أحدهما عن الاخرى . فوقفت على باب القبر المفتوح ولوائح الحزن على وجهي فنظرت أولاً جثة الفقير مطروحة في التراب ونسيج العنكبوت يحيم على رأسه واسنانه عارية من الجلد وفمه مملوء تراباً وعظامه مجردة من اللحم الذي استحال الى تراب ونتاجة . فقلت واحسرتاه على الفقير كيف استحال حاله . وظننت ان الملك يمتاز هناك كامتياز ههنا ويكرم مثواه حيث حل وتوقر جثته في القبر كما كان شخصه موقراً بالامس . غير أني قد خاب ظني لكوني رأيته قد اعتاض عن عرش الملك والاعتبار بمكان الذل والاحتقار وعن الطيوب الزكية بالنتانة الرديئة وعن كرامته في هذا الزمن بهوة الرمس والدمن »

وقال حكيم لأحد أصحابه أتريد ان أريك الدنيا ؟ فقال نعم فأخذ بيده وانطلق حتى وقف به على مزبلة فيها رؤوس آدميين ملقاة وبقايا عظام نخرة وخرق قد تمزقت وتلوثت بنجاسات . فقال هذه رؤوس الناس التي تراها مثل رؤوسكم كانت مملوءة من الحرص والاجتهاد على جمع الدنيا . وكانوا يرجون من طول الاعمار ما ترجون . وكانوا يجدون في جمع المال وعمارة الدنيا كما

تجدون . فاليوم تلاشت اجسامهم وتجردت عظامهم كما ترى .
وهذه الخرق كانت اثوابهم التي كانوا يترنون بها عند التجمل
فاليوم قد القتها الريح في مستودع الاقدار وهذه النجاسات كانت
أطعمتهم اللذيذة التي كانوا يحتالون في تحصيلها واليوم لا يقربها
أحد من تنها . فهذه جملة أحوال الدنيا كما تشاهد وترى . فمن
أراد أن يبكي على الدنيا فليبك فأنها موضع البكاء

وما أجمل قول القديس يوحنا فم الذهب « انك أيها الانسان
اذا كنت تفتخر بما تزين به من حرير وصوف فاعلم أن هذا
كساء الحيوانات الخفية التي تمرغت فيه قبلك وانت تلبس
الآن فضلاتها »

وقال القديس يوحنا فم الذهب أيضاً « تأمل يا هذا الى قصور
العظماء ومغاني الكبراء كيف انها خاوية خالية وقد انقلبت
بكرور الدهور والعصور الى اطلال بالية ينعب في أرجائها البوم
والغراب . ليت شعري كم من الشرور كان يفعل هؤلاء وهما هم
الآن لا يسمع لهم صوت ولا تذكر اسمائهم . فاين أولئك الذين
كانوا يغترون بجباههم ؟ اين الذين كانوا يمدحونهم ؟ أين الذين
كانوا يضربون لهم على آلات الغناء ؟ أين الضحك والاستهزاء ؟
ياللاسف لقد باد الجميع وفنوا وخلت منهم أما كنهم »

فما اشبه مرور الانسان في الدنيا بمرور السفينة في البحر
فانها لا تبقى أثراً وراءها يدل على مرورها وهكذا حياتنا .
حقاً أن الدنيا تغفل عن اهلها وتهملهم وحدهم . أما حياتهم فقد

انصرمت والايام دفنت ذكرهم . حتى قبورهم الفخيمة هدمت
ودثرت ولم يبق أثر لهم ولا اشارة . قال الحكيم « لان الغنى ليس
بدائم ولا التاج لدور فدور » (ام ٢٧: ٢٤)

فيا للأسف على من أحبوا العالم وعشقوا مديح الناس فجدوا
وكدوا لنوال المجد ومع ذلك مروا دون أن يعرف مكان مرورهم .
كم من الناس نظيرنا قد عرفناهم وعاشرناهم وسررنا بمحادثاتهم
هم الآن مدفونون تحت أقدامنا كأنهم لم يكونوا فالموت قد ساد
على جميعهم فلا يرجعون إلينا بل نحن راحلون إليهم وسنلحق
هم . كل الاشياء سريعة الى البوار ونحن قريباً ننفصل عن بعضها
بعض تاركين كل افراحنا ومسرراتنا وأحبائنا . واليوم قريب الذي
فيه يأكلنا الدود ونستحيل الى تراب ورماد

فالواجب علينا اذاً أن لا نعتد بهذا المجد العالمى وينبغى أن
نزن الخيرات الزمنية بالميزان الصحيح حينئذ نجدها عديمة
القيمة كقول الكتاب « ان زاد الغنى فلا تضعوا عليه قلباً »
(مز ٦٢: ١٠) حتى قال القديس اوغسطينوس « لا تنظر أيها
الانسان الى ما كان يملك ذلك الغنى بل انظر الى ما أخذه معه »
ويحققه قول الكتاب « كما خرج من بطن امه عرياناً يرجع ذاهباً
كما جاء ولا يأخذ شيئاً من تعبته فيذهب به فى يده » (جا ٥: ١٥)
وقوله أيضاً « لاننا لم ندخل العالم بشيء وواضح أننا لا نقدر أن
نخرج منه بشيء » (١ تي ٦: ٧)

فاعتبر أيها الانسان بأنه لا يرافقك درهم واحد من أموالك

ولا عبد من عبيدك ولا ثوب واحد من ثيابك لتتبع بها في
الابدية . بل يرافقتك شيء واحد هو ايمانك بأهلك وثمر ايمانك
أى عملك الصالح فهما اللذان يكونان لك سراجاً مضيئاً ينير لك
سبيل الابدية المظلم

الفصل العاشر

في سرعة اضمحلال امجاد العالم

« السحاب يضمحل ويزول . هكذا الذى ينزل الى الهاوية لا
يصعد . لا يرجع بعد الى بيته ولا يعرفه مكانه بعد » (اى ٩:٧)

كضباب الصباح الذى يكسو رؤوس التلال ليلا وكالبخار الذى
يغطى الاودية ولكن يضمحل حالما تسطع عليه أشعة الشمس
فتبدو من تحته تلك التلال والودية ، هكذا مجد العالم يمضى فلا
ينظر أيضاً . كالعود والبروق والسحب والصواعق تنحدر بشدة
على العالم في فصل الصيف ويعقبها هطول الامطار والسيول
العظيمة ولكن بعد ساعة أو ساعتين يبطل هذا الهيجان ويعود
الجلد الى صفائه ، هكذا كرامة هذا العالم واجماده الفارغة تسرع
في الزوال والانحلال بعد علوها وانتفاخها ، فخاشية الملك تفرقت
ومجلس العظيم انحل ، ومجد الغني اذ « كيف صاروا للخراب بغتة
اضمحلوا فنوا من الدواهي كحلم عند التيقظ يارب عند التيقظ

تحتقر خيالهم» (مز ١٩: ٧٣ و ٢٠)

كظل باطل لا مادة له ولا وجود سوى ظلامه ورسمه وحرسته
هكذا العالم فانه ظل يتقلص فيتلاشى أثره . فهل ترغب أن تطارد
ظلا ؟ وهل يوجد شيء أسرع زوالا من ايجاد العالم والانسان الذى
يعشقها ؟ « لان للشجرة رجاء . ان قطعت تخلف أيضاً ولا تعدم
خراعيها . ولو قدم فى الارض اصلها ومات فى التراب جذعها
فمن رائحة الماء تفرخ وتنبت فروعاً كالغرس . أما الرجل فيموت
ويبلى . الانسان يسلم الروح فأين هو » (اى ١٤ : ٧ - ١٠)
كموج البحر يصعد ويهبط ولم يعد ينظر هكذا تاريخ هذا العالم
كتاريخ الموجة صعود وهبوط ثم انحلال الى الابد . فهل تروم
ايها الانسان ان تجعل نصيبك موجة ؟

كقوس سحاب . أرسلت الشمس اشعتها على غيوم ممطرة
فتكسرت تلك الاشعة الى الواها السبعة فبدت للناظر قوساً غاية
فى الجمال . ولكن تلك الغيوم مرت بسرعة فزال للوقت جمال
القوس . هكذا ايضاً المجد الذى يتألف من فانيات هذه الحياة
تدمه غيوم الاخطار فينحل ويتم الافتراق بينه وبين الانسان
فلا يعود يراه الى الابد

كصورة جميلة رسمت فيها مدن وقلاع وممالك وبحار وانهار
وجبال ولكن متى لحقها يسير من الماء تحت بسرعة وتشوهدت
هكذا الدنيا تظهر لك بصورة جميلة مزخرفة ولكنها تتمزق
وتتلاشى باقل الاشياء . وقلب الانسان المملوء بالمطامع والآمال

في وقت وجيز ينسحق ويفقد الحياة » لذلك يكونون كسحاب الصبح وكالندى الماضي باكراً : كعصافه تخطف من البيدر وكدخان من السكوة » (هو ١٣ : ٣)

كرهرة نضرة تسر من يراها فيقتطفها ويشم رائحتها الزكية وليكن بعد برهة قصيرة تذوي ويذهب جمال منظرها. هكذا العالم يذبل امام عيوننا فبينما نحن ننظر اليه بسرور اذا به يمضي ولا يبقى له اثر سوى قليل من الغبار فهل تحب أن تجعل نصيبك ما لا تريد مدته عن ساعة من الزمن ؟

كسفينة ترى امامنا تنشر قلوها وتسرع في سيرها فتتوارى عن الانظار . أو كقاطرة قامت للسير فغابت عنا في لحظة . هكذا العالم في لحظة يتوارى وفي وقت قصير يغيب . قال يوحنا الرسول « العالم يمضي وشهوته » (١ يو ٢ : ١٧) قال الرسول ذلك لانه عاصر اثني عشر امبراطوراً وهم اوغسطس وطيباريوس وكالينغولا وكلوديوس ونيرون وغلي واثر وفيتاليوس ويسباسيانس وتيطس ودوميتيانوس ونرفا . وكلهم كانوا يظنون ان العالم لهم واكثرهم مات ميتة سوء

كخيمة في البرية ينصبها السائح أو الراعي عند المساء فتراها بقعة بيضاء كأنها بزغت من الرمضاء . وعند شروق الشمس تختفي تلك الخيمة وساكنها وترى البرية مقفرة كما من ذي قبل . هكذا العالم ينظر اليوم وغداً يتوارى عن النظر وقد قال حزقيا الملك « مسكني قد انقطع وانتقل عن خيمة الراعي » (اش ٣٨ : ١٢)

ويوحنا اللاهوتي يخبرنا عن زوال الارض بقوله « ورفع ملاك واحد قوى حجراً كرحى عظيمة ورماه في البحر قائلاً هكذا بدفع سترى بابل المدينة العظيمة ولن توجد في ما بعد . وصوت الضاربين بالقيثارة والمغنيين والمزمريين والناخين بالبوق لن يسمع فيك في ما بعد . وكل صانع صناعة لن يوجد فيك في ما بعد » (رؤ ١٨ : ٢١ و ٢٢) فهذا هو اليوم الآتى على الارض حيث تنحل العناصر وتلاشى المسكونة التى طالما كسرت قلوباً واورثتها من الاحزان والاكدار ما لا يتحمل . فاعلمي ايها الدنيا مكدره صفاء الحياة وهادمة اركان السعادة ومورثة الشقاء والاحزان لكل بنى الانسان ان الله أعد لك يوماً فيه تطرحين بدفع في ظلمات العدم والاضمحلال الى الابد . فهذا هو جزاؤك العادل ايها الغرارة الشنيعة

ان أحد السياح الأتقياء بعد أن طاف كل العالم ورأى كل عجائب الدنيا وغرائب الانسان حتى شاخ وآوى الى فراش الموت صرخ عند موته قائلاً لأبنه « الاشياء زائلة . الاشياء زائلة » وهذا هو صراخ كل من عرف حقيقة العالم وخبر أحواله . والرسول بولس يقول « فأقول هذا ايها الاخوة الوقت منذ الآن مقصر لكي يكون الذين لهم نساء كأن ليس لهم . والذين يبيكون كأنهم لا يبيكون والذين يفرحون كأنهم لا يفرحون والذين يشتررون كأنهم لا يملكون . والذين يستعملون هذا العالم

كأنهم لا يستعملونه . لان هيئة هذا العالم تزول » (١ كو ٧ : ٢٩ - ٣١)

فما أشبه العالم بالتمثال الذي رآه نبوخذنصر الملك الذي كان رأسه من ذهب وصدره وذراعاؤه من فضة وبطنه وفخذه من نحاس وساقاه من حديد وقدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف الا انه حطم أخيراً وانسحق الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً وصارت كعصافاة البيدر في الصيف فملتها الريح فلم يوجد لها مكان (دا ٢) وهذا إشارة الى ممالك العالم التي يرتفع شأنها وينتهي أمرها أخيراً الى الانحلال والزوال

ان يونان النبي فرح فرحاً عظيماً عند معاينته تلك اليقطينة التي نبتت بغيته وامتدت ونمت حتى صارت في يوم واحد كأنها نظير خيمة تظلمه ولكن الله أعد لها دودة فضربت بها فبيست وتآلم لاجلها يونان وطلب الموت لنفسه فوبخه الله لانه حزن على يقطينة بنت ليلة كانت وبنت ليلة هلكت (يون ٤) فياليت شعري أليست على هذه الصفة كرامات هذا العالم وأمواله واجاده وملذاته فانها في ليلة واحدة تأتي وكثيراً ماتت في تلك الليلة نفسها . أينال لك انك ساكن ومستريح في ما تملك ؟ اتظن انك في أمن وسلام ؟ لعمري انك نائم ومغرور لانه تحت ظل اليقطينة النضرة استقرت دودة الفناء وهي تأكل فيها من غير أن تشعر ، وبعثة تخسر لذاتك والزمان يبيس كراماتك وغناك ، والريح يكنس مجدك وعظمتك

« أيضاً في الضحك يكتئب القلب وعاقبة الفرح حزن »
(ام ١٤: ١٣) .

ألم يسمع بيلشاصر الملك وهو على مائدة السرور وسراريه
وعظماء مملكته حوله معه دانيال النبي يقول له « أحصى الله
ملكوتك وأنهاه » وقال الكتاب « في تلك الليلة قتل بيلشاصر
ملك الكلدانيين » (دا ٥: ٢٦ و ٣٠) وألم يسمع الغنى عقب
تأمله في سعادة مستقبله القول « يا غني هذه الليلة تطلب نفسك
منك » (لو ١٢: ٢٠) هوذا الكتاب يقول « واضرب بيت
الشتاء مع بيت الصيف فتبيد بيوت العاج وتضمحل البيوت
العظيمة يقول الرب » (عا ٣: ١٥)

اننا نجد كثيرين قد ساقهم العلم بزوال الارض وما نهبا الى
رفض كل خيراتها ومقتنياتها . فيوسف الصديق الذي كان بمصر
سيداً عظيماً لم يذكر الكتاب عنه انه خلف بمصر ثروة ومالا
وذلك لانه كان متيقناً أن بني اسرائيل اخوته سيتركون مصر يوماً .
وكذلك موسى النبي مع علمه أنه الوريث لعرش مصر فقد رفض
هذا المقام السامي مفضلاً بالاحرى ان يذل مع شعب الله على أن
يكون له تمتع وقتي بالخطيئة حاسباً عار المسيح غنى اعظم من
خزائن مصر (عب ١١: ٢٤ - ٢٦)

وقد أوصانا مخلصنا الصالح قائلاً « لا تكنزوا لكم كنوزاً
على الارض » (مت ٦: ١٩) وذلك لان كنوز الارض قصيرة
المدة كما انها تعيق الانسان عن السعى في « طريق السماء » فياليت

جميع البشر يتأملون ولو ساعة واحدة في سرعة زوال العالم ومقتنياته فان هذا يكفي لان نزردي ونستخف به « ان هتاف الاشرار من قريب وفرح الفاجر الى اللحظة » (اى ٢٠ : ٥)

ان الاشجار فى فصل الصيف تظهر ميتة خالية من الثمر والورق ولكن اصلها حى وكل قواها محفوظة . واما المروج الخضراء فتظهر فى الشتاء خضراء حية ولكن عندما يوافى فصل الصيف تذبل وتيس . اما الاشجار فتزهر وتثمر : وهذا ينطبق تمام الانطباق على احوال هذه الحياة الدنيئة فهى شتاء مكرب محزن قليل الربيع ولكنه ملائ بالاعشاب التى تزهر قليلا والتى يتنعم اهل العالم بنضارتها ورونق خضرتها زماناً ما . ولكن عند مجئ صيف الحياة الاخرى الدائمة البقاء حينئذ يذبلون وييبسون فيحصد الموت العشب اليابس ويضرم فيه النار فلا تغرنك خضرة ايجاد العالم ولا رونقها الحاضر فانها تذبل حالاً وتزول فى اسرع وقت . لا تحب العالم الذى تراه مسرعاً فى مروره جداً . قال الحكيم « كعبور الزوبعة فلا يكون الشرير » (ام ٢٥ : ١٠) وما أحسن قول بعضهم « ان الانسان الذى يتفانى فى خدمة هذه الحياة أشبه بالحيوان الذى يخرج الماء من السواقي ولا يشرب منه »

ومن يتأمل جيداً يجد لذات هذه الدنيا قصيرة لا ثبات لها وكل ما تقدمه لمحبيها فهو زائل . نعيمها وقتي . مجدها وافراحها بمنزلة مرور الدقيقة الواحدة من الزمن وكل ما فيها من الابطال

يتلاشى سريعاً. ويطير كالدخان وينسى كإنه ما كان « وأريد منهم صوت الطرب وصوت الفرح وصوت العريس وصوت العروس ... وتصير كل هذه الأرض خراباً » (ار ٢٦ : ١٠ و ١١) قال القديس كبريانوس « لقد قضى على العالم بأن كل ما هل أفل وكل ما زاد نقص وكل ما قوى ضعف وكل ما كبر صغر وعند ذلك يزول كل شيء »

لقد رأينا مع مرور الزمن تلاشي شيء كثير مما كان معنا. اين الاشياء التي رأيناها بالأمس؟ لقد بادت وتلاشت كالدخان أين الماء كل والمشارب الطيبة؟ لقد اضمحل الكل ولم يبق شيء باطل هو فرح الطيور بأكل الحنطة وهي في شرك الصياد . وباطل هو سرور السمك بالطعم الموجود في الصنارة (جا ٩ : ١٣) هكذا باطل هو فرح الانسان بسعادة الدنيا والموت قريب فكل انسان سيصير الى التراب وكل ما يشيد سيؤول الى الخراب ارفعوا عيونكم الى السموات وانظروا الى الارض من تحت . « فان السموات كالدخان تضمحل والارض كالثوب تبلى وسكانها كالبعوض يموتون » (اش ٥١ : ٦)

فحسبك ان تفتش ايها الانسان على الخيرات التي لا يفنيها طول الزمن ولا يبليها تقادم العصور ولا يغيرها شيء من الاشياء. فكرامة المسيحي الحقيقية ليست الا في المسيح يسوع المصلوب . ومجده وافتخاره في مكابدة الضيقات والمشقات من اجل اسمه القدوس . والشرف الحقيقي انما هو في فضيلة النفس التي لا تهلك

بالسعى الباطل ولا تقتنى بالدراهم . قال احد كتبة سيرة القديس
 انبا بولا أول السياح « انى اسأل الآن الاغنياء والذين لا يعرفون
 كمية ثروتهم لكثرتها والذين يسكنون المنازل الفسيحة المزينة
 بالخارف والنقوش . ما الذي اعوز هذا الشيخ القديس المتعري
 من كل غش . فأنتم تشربون فى كؤوس من فضة وذهب وهذا
 بولا يطفى عطشه بكف يده . أنتم تلبسون الحرير وهذا كان
 مرتدياً بثوب من نخل . غير أنه لا يكون الامر هكذا دائماً وهذه
 الحال تنقلب الى حال أخرى فيها ان السموات قد انفتحت لبولا
 المسكين واما انتم فستمهبطون الى جهنم مع جميع كنوزكم . وهو قبر
 فى لحد ليقدم الى المجد وانتم تدفنون فى قبور من الرخام والمرمر
 لتحترقوا الى الابد »

فأيهما أحب لديك . محبة أمور هذه الحياة التى تزول مع
 زوالها . أم محبة يسوع التى بها تدوم الى الابد ؟ قال الرسول
 بطرس للمؤمنين عن مجدهم فى السماء « ليراث لا يفنى ولا يتدنس
 ولا يضمحل محفوظ فى السموات لاجلكم » (١ بط ٤ : ١)



الفصل الحادى عشر

فى ضرورة الاستعداد للموت

« اوص بيتك لانك تموت ولا تعيش » (اش ٣٨ : ١)

الاستعداد للموت أمر ضرورى لأن الانسان لا يموت الا مرة واحدة (عب ٩ : ٢٧) وبعد ذلك يكون الانسان أمام أمرين إما سعادة ابدية أو شقاء أبدي . فليس لنا مجال اذاً بعد الموت لنصلح ما وقع منا هنا من الخطأ . فمن هذا الوجه الرجاء مقطوع والامل مفقود فينبغي اذاً ان نتأكد ان أمر خلاصنا او هلاكنا متوقف على حالتنا قبل الموت فكما نعيش نموت وندان . والحياة التى نحياها والاعمال التى نعملها هي التى تكسبنا الحياة الابدية أو تقضي علينا بالموت الابدي .

قال عاموس النبي « استعد للقاء الهك » (عا ٤ : ١٢) ان كنا نتوقع اننا سنمثل أمام احد ملوك الارض العظام فاننا نستعد بكل ما يمكننا من الاستعداد للمثول بين يديه . وان كنا ننتظر دعوة للوقوف أمام أحد القضاة لاستجوابنا فى امر ما فاننا نهىء اجابتنا عن كل سؤال نتوقع توجيهه الينا واذا اردنا ان نذهب الى رجل غنى ذى اقتدار لنطلب منه نوالا فاننا نستعد لتلك المقابلة . ولكن ما اكثر الذين لا يفكرون ابداً بان يستعدوا للقاء الههم فانهم يهتمون ببقاء من أحسن اليهم من اهل

الارض اكثر مما يهتمون بلقائه تعالى ويسلكون مع بني الانسان
 الذين هم مثلهم باحترام اكثر مما يسلكون معه مع انه ملك الملوك
 ورب الارباب وهو الذى يحكم علينا حكماً أبدياً بحسب حالتنا هنا
 فاما ان يصعدنا الى الافراح السماوية أو يطرحنا في أعماق الجحيم
 فما رأينا اذاً ؟ أليس من الضرورى علينا ان نستعد لمقابلة
 الله دائماً ؟ ألم يجعلنا الله نجمل ساعة الموت لكي نكون متأهبين
 ومستعدين له في كل حين ؟ قال القديس يوحنا فم الذهب « ان الله
 قد اخفى عنا ساعة الموت لثلاث غايات اولا لتعزيتنا ثانياً لصيانتنا
 ثالثاً لكمالنا . فاما لتعزيتنا فكما يفعل الطبيب الجراح اذا اقبل
 الى المريض ومعه الآلات المؤلمة التى ينبغى ان يستعملها في جسده
 فانه يسترها ويخفيها عنه . ثم ان المحكوم عليه بالموت قد جرت
 العادة بان يوضع على عينيه حجاب لئلا يبصر ما قد احضر لتعذيبه .
 واما لصيانتنا فانه لو علم الانسان انه اذا اخطأ لا يفاجئه الموت
 فما اكثر المساوىء التى كان يتهاфт عليها ! بل كان للشير ان
 يقول « انى اجد أمانى فسحة زمان لأصرفها في التوبة والتكفير
 عن خطايى فلماذا لا أتبع اليوم شهواتى واهوائى ؟ » فعدم
 معرفة يوم نهايتنا هو كالاجام ينبغى ان يسكننا عن التدهور في
 الشرور . واما لكمالنا فمن يعتقد يقيناً انه في كل دقيقة يمكن ان
 تنقضي حياته لا يتهاون ان يصرف كل دقيقة في عمل ما يستحق
 عليه الاجر الحسن من الله ولا يبرح مجتهداً ليزداد حسنة على
 حسنة وفضيلة على فضيلة » ولقد قال القديس اوغسطينوس

« ان الله باخفائه عنا يوم منتهى حياتنا قد خصنا برحمة جليلة اذ انه بذلك يلزمنا المواظبة والسهر والتيقظ على نفوسنا بلا ملل »
قال السيد المسيح « اسهروا اذاً لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة » (مت ٢٥ : ١٣) اذا قيل لك ان هناك كنزاً قد اعطي لك أن تسعى لتناله في زمن معين غير معروف مقداره فهل كنت تتوانى عن أن تعدو بسرعة البرق لتفوز به ؟ واذا قيل لمن حكم عليه بالاعدام ان أمامه فرصة قصيرة للنجاة فهل كان يتأخر عن ان يطلق ساقيه للريح لينجو بحياته . وفي العهد القديم كان للقاتل سهواً أن يجرى الى مدن الملجأ لينجو ممن يطالب بئار المقتول . فهل كان يتباطأ عن السعي للخلاص من القتل ؟ (عد ٣٥) فأمامك الآن فرصة لا تعلم مقدارها لتستعد لاستقبال ساعة الموت التي بعدها تقابل الهك لتعطى حساباً في يوم الدين عن كل ما قدمت يدك خيراً كان ام شراً . فلماذا أراك متقاعساً ومهملاً ومتأخراً . أتظن ان المجد المعد في السماء للمستعدين بأقل قيمة من كنوز العالم ؟ أو أن العقاب المجهز للمهملين بأقل شدة من عقاب الاعداد ؟ أو أن يد العدل التي تعاقب الخطاة ليست بأقسى من يد من يسعى ليأخذ بئار قريبه ؟ يا لغباوتنا هل هكذا أصبحنا عديمي الفهم حتى أننا نجد وراء النمان ونهمل أمر الباقي ونخشى المخاطر الخفيفة ولا نهتم بالبلايا الجسيمة . فيا بني البشر أيها البائسون . ان المنية تدعوكم بعد هزيمات والديان الرهيب متأهب لمحاكماتكم . أفترى بماذا تلهون وتضيعون هذا الوقت

القصير في الاهتمام بالامور الباطلة ؟ قال الرسول بولس « مفتدين الوقت لان الايام شريرة » (اف ٥ : ١٧) وقال احدهم « ان أياماً قليلة تستطيع ان تنال حياة أبدية »

اعتبر ان في استعدادك للموت تربع ثلاثة أمور. أولاً تربع التعزية في هذه الحياة . فالمؤمن يسير في الحياة بقدم ثابتة لا تروعه الكوارث ولا تزعجه البلايا ولا تذيق فيه ذكري الموت مرارة شديدة بينما ترى الخاطيء مضطرباً خائفاً من تلك الساعة الهائلة التي لم يتهيأ لها فيرتعب من أقل مصيبة وينزعج لأهون خطر . وجد أحد العجم رجلاً في الغابة مضرجاً بدمائه لأن نمراً مفترساً قابله وانتزع بعض اعضائه وعلى رغم نزعه وألمه فانه سمعه يقول « أشكر لك أيها الاله العظيم فضلك . انى أتألم من جراح النمر لا من وخزات الضمير »

وثانياً تربع التعزية حين الموت . فما أحلى الموت للمستعدين وما أبهجه للمنتظرين . وما أحسن تشبيه السيد المسيح لساعة الموت باللص بقوله « طوبى لأولئك العبيد الذين اذا جاء سيدهم يجدهم ساهرين . . وانما اعملوا هذا أنه لو عرف رب البيت في أية ساعة يأتي السارق لسهر ولم يدع بيته ينقب » (لو ١٢ : ٣٧ و٣٩) وذلك لان اللص اذا سطا على بيت ليسرقه ورأى صاحبه نائماً يقتله وينهب أمواله . هكذا الموت فانه اذا جاء ورآك مستيقظاً منتظراً قدومه على الدوام فانه يخاطبك بلطف الكلام ولكن ان رآك

واقداً بنوم الخطيئة سلب نفسك منك واماتك موتاً ابدياً. قال الحكيم
 « الشرير يطرد بشره أما الصديق فوائق عند موته » (ام ١٤: ٣٢)
 وثالثاً ترج المجد الابدى فى السماء قال بولس الرسول « بل كما
 اشتركتم فى آلام المسيح افرحوا لى تفرحوا فى استعلان مجده
 أيضاً مبتهجين » (١ بط ٤: ١٣)

تأمل فى اية خسارة تمل بك اذا لم تكن مستعداً . انما
 ليست خسارة اموالك او قصورك أو حملك البهية لان هذه
 يمكنك ان تعوضها اذا فقدت ولكنها نفس واحدة لك اذا فقدت
 لا يمكنك ان تجدها : اذا خسرتها لا يمكنك ان ترجها . كل غنى
 العالم لا يرد لها سمادتها وهوذا المخلص يصرح قائلاً « لأنه ماذا ينتفع
 الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه . او ماذا يعطي الانسان
 فداء عن نفسه » (مت ١٦ : ٢٦) قال احدهم « يظهر المخلص
 بهذا القول كأن بيده ميزاناً عظيماً دقيقاً يصل الى السموات ارتفاعاً
 وقد وضع فى كفته الواحدة : النفس . النفس الابدية . كنفسى
 ونفسك . وفى الاخرى العالم كله وهو يزنهما امام اعيننا ليرينا
 ايهما اثقل واعظم قيمة . فانظر يا صاح ان الكفة التى فيها النفس
 تنزل بثقلها حالا واما التى فيها العالم كله فانها تصعد بخفة كلية
 حتى تلحق قائمة الميزان كأن فى الاولى سبيكة عظيمة من الذهب
 وفى الثانية ريشاً لا ثقل فيه »

ان الربان الذى يمخر بسفينته عباب البحر اذا سمع ان فى
 طريقه صخراً عظيماً غير معين مكانه اذا اصطدمت به سفينة تحطمت

فهل يمكنه ان ينام او يغفل ؟ كلا بل تراه يلتفت بانتباه ليعرف مكان ذلك الصخر حتى ينحرف بسفينته عنه . وانت على هذا السبيل تسير في غمرات لجج هذا العالم الشرير وصخرة الموت مرفوعة على الدوام فوق رأسك وهي مزمعة ان تنزل في كل لحظة فلماذا لا تلتفت ولا تحترس لكي تأخذ لنفسك الوسائل التي تخلصك منها اذا ما سقطت عليك ؟

اذا قيل لك ان عدواً شديداً البأس سيأتي بغتة للانتقام منك أما كنت تخافه وتسرع في استدعاء أهلك واصحابك ليقفوا معك حتى اذا فاجأك العدو ينصرونك عليه ويخلصونك منه . فلماذا لا تخاف اذ تسمع ان الاعداء هم الموت (١كو ١٥ : ٢٦) هاجم عليك في كل حين لينفذ الحكم الالهي فيك ؟ هذا فضلاً عن انك في تلك الساعة التي يفاجئك فيها لا يقوى اخ أو صاحب على الوقوف معك لمقابلته ولا تستطيع ان تطلب معونة احد فهو يأتي لينازلك وحدك ولا يمكن ان يسندك حينئذ الا استعدادك الحسن لمقابلته : قال الكتاب « طوبى للانسان الذي يسمع لي ساهراً كل يوم عند مصاريعي حافظاً قوايم ابوابي لانه من يجدني يجد الحياة وينال رضى من الرب » (ام ٨ : ٣٤ و ٣٥) فلا تتصور ان هذا العدو بعيد منك او ان زمان اقترابه لك لم يأت بعد حتى تنام وتتغافل بل قل في نفسك ها اني شرعت في أمر فلعلي لا آتي على آخره . وهأنذا أعود الى بيتي وادخله فلعلي لا اخرج منه الا محمولا على أيدي من يشيغني الى القبر . ! وها قد

اضطجعت على فراشي فربما لا اقوم منها مرة أخرى . وها قد
اغمضت عيني فربما لا أفتحها ثانية في هذا العالم بل تفتحها يد
الملحد في القبر لبلأها تراباً . ها قد لبست ثيابي ولكني لا أعلم
هل أخلعها بيدي ام تخلعها يد الغاسل . ها قد رفعت قدمي
لأضعها في خروجي من باب بيتي ولا ادرى هل أضع الاخرى
على حافة البيت أم على حافة القبر ؟ فبذلك تمهياً للاستعداد للموت
وتكون اشبه بالمسافر الذي يكون على استعداد حتى اذا دق جرس
القطار يجد نفسه اهلاً للسفر . قال الخلدن له المجد « لتكن احقاؤكم
منطقة وسرجكم موقدة . وانتم مثل أناس ينتظرون سيدهم متى
يرجع من العرس حتى اذا جاء وقرع يفتحون له للوقت . طوبى
لاؤلك العبيد الذين اذا جاء سيدهم يجدهم ساهرين . الحق أقول
لكم انه يتمنطق ويتكلمهم ويتقدم ويخدمهم . . . ولكن ان قال
ذلك العبد في قلبه سيدي يبطل قدمه فيبتدىء يضرب الغلمان
والجوارى وياً كل ويشرب ويسكر . يأتي سيد ذلك العبد في
يوم لا ينتظره وفي ساعة لا يعرفها فيقطعها ويجعل نصيبه مع
الخائنين » (لو ١٢ : ٣٥ - ٣٧ و ٤٥ و ٤٦) فكما ان اللابس الثوب
الطويل بلا منطقة يكون غير متأهب لسفر أو مستعد لعمل هكذا
المسيحي المرتبك في الامور الدنيوية فانه غير مستعد للسفر السماوي
او الخدمة الالهية

ان الكثيرين يهلون الاستعداد على أمل انهم يأتونه عند
الموت . ومن ادرانا اننا لا نموت فجأة ؟ وهب اننا مرضنا مرضاً

مستطيلاً فهل توقن ايها الانسان انك ستموت عقب ذلك المرض؟
 أأنت دائماً تمنى نفسك بالشفاء مهما كان المرض شديداً؟ ألا تجد
 حولك اهلك يغشونك قائلين « ان صحتك جيدة » ألا تجد
 الطبيب يهدى روعك قائلاً لك « انك كل يوم تتقدم في العافية »؟
 ألا تجد من نفسك حينئذ ميلاً لتصديق من يقول لك انك
 ستنال الشفاء أكثر من ميلك الى تصديق الفكر فيك بانك
 ستموت؟ وبعد ذلك ماذا يتم؟ ها أنت تسلم الروح وترى بان
 الذين هم حولك قد خدعوك . قبل هنية كانوا يعدونك بالشفاء
 ولكنهم كانوا كاذبين لانك الآن تموت. فكيف تستعد اذاً ، و ان
 الوقت الكافي لاستعدادك؟

قبل ان غزالا اعور لا يبصر إلا بعين واحدة كان يطارده
 الصيادون ويتبعون أثره في كل مكان توجه اليه حتى لم يدعوه
 في أمن مطلقاً الى أن بلغ يوماً بقعة بجانب البحر فاطمأن ووقف
 يرعى محولاً عينه الصحيحة لجهة البر حيث يخشى الصيادين وعينه
 التي لا تبصر الى جهة البحر . واتفق حينئذ مرور سفينة فأخذ
 أحد راكبيها سهماً ورماه في قلب الغزال فاصابه . انه نجا من جهة
 البر حيث كان يخشى الموت ولكنه مات من جهة البحر حيث كان
 يرجو الحياة وكم من كثيرين حسبوا انفسهم بعيدين عن خطر
 الموت والهلاك ولكنه أتاها من حيث ظنوا الامان

فلا تفكر فيما مضى من حياتك بل فيما بقي من عمرك
 ولا تفكر في كيف تعيش حسناً بل في كيف تموت حسناً . ورد

في ميثولوجيات القدماء حكاية عن مغارة كبيرة فيها ٣٠٠٠ خباء بعضها داخل بعض ومتشعبة كثيراً ومتعرجة فلا يدخلها أحد ويقدر على الخروج منها بل كل من يدخلها يموت فيها . فاذا حكموا على أحد بالدخول اليها دار متنقلا من غرفة الى أخرى في الظلام الى أن ينتهي الى آخرها فاذا قصد الرجوع لا يعلم أى الطرق يختار فيجىء في طريق ثم يدور ويرجع ويسير في غيرها وربما احس بأثار دوسه فظنه يدل على باب المغارة فيتبعه فاذا به يدوس عظام وجماجم ممن دخلوا قبله وهلكوا فيرتعب ويرتعد ولا يزال على هذه الحال الى أن يهلك جوعاً وتعباً وحسرة ويموت كهدأ . فحدث ان حكم على واحد بالدخول الى هذه المغارة فأخذ معه كبة من الحرير الرقيق ربط طرفه بالباب ودخل وهو ممسك الكبة بيده ينشر الحرير عنها حتى اذا جاء آخر المغارة أخذ يلف الخيط على ركبته كما كان وهو يتبعه الى ان عاد الى حيث دخل بسلام ولم يضل في ظلماتها المدهمة . فأحترس وانتبه وفكر في كيف تخرج من العالم لا في كيف تبقى لان البقاء فيه غير مضمون اما الخروج منه فلا يحتلف فيه اثنان

فليس عليك اذاً الا ان تستعد للموت بالايان العامل وذلك يقوم أولاً بترك الخطيئة التي أحببتها « لترك الشرير طريقه ورجل الاثم أفكاره وليتب الى الرب فيرحمه والى إلهنا لانه يكثر الغفران » (اش ٥٥ : ٧) وثانياً بتقديم الاثمار الجيدة « وأما الآن اذ أعترقتم من الخطيئة وصرتم عبيداً لله فلم تتركتم

للقداسة والنهاية حياة أبدية » (رو ٦: ٢٢)

وهنا نحذر الجميع مما يمكن أن يخدعوا به ذواتهم وأخص ذلك أمران . الاول عملهم - فقد يخدعون به لانهم يظنونهم حسناً وهو قبيح . كم من كثيرين يظنون ان أعمالهم الرديئة صالحة . وميل الانسان الى عدم نسبة شر اليه تجعله يتصور في خطيته برأ وفي اثمه صلاحاً . ألم يكن اليهود في زمن الخلاص يظنون ان كبرياءهم برأ وفساد قلوبهم غيرة وسفاهتهم دفاعاً ! ولذلك قال لهم « انتم الذين تبررون انفسكم قدام الناس ولكن الله يعرف قلوبكم » (لو ١٦: ١٥)

والامر الثانى الذى ينخدع فيه الانسان ثوابه . فقد يوهم نفسه بان له ثواباً صالحاً وهو يذخر لنفسه غضباً ليوم النضب . كم من كثيرين سيطرقون باب السماء كأهم من أخص أهلها فيسمعون الصوت من داخل « لا أعرفكم » كثيرون هم الذين يعيشون في الخطية واذا سألتهم اى نصيب لكم في الآخرة يكون جوابهم « السماء » وميل الانسان الى وجوده فى أماكن السعادة يصعب عليه الاعتقاد انه من أهل جهنم ولو كان خاطئاً . ولكن لكل مقدمة نتيجة ونتيجة الخطية الموت . ونتيجة البر حياة . فاذا أردت أن تعرف أى مكان سيكون مقرك فى العالم الآتى . فلا تسأل أميالك ولا تسأل الشيطان الذى يحاول أن يخدرك أعصابك بالالوهام الفارغة بل أسأل أعمالك . وعن أعمالك 'سأل كتاب الله . فاذا كانت أعمالك تمدح من كتاب الله وبها

بتمجد اسمه فاعلم انك مستعد وانك من اهل السماء . والعكس
بالعكس . فاستعد اذاً لدخول السماء بالقداسة التي بدونها لن يرى
أحد الرب (عب ١٢ : ١٤)

الفصل الثاني عشر

في عبرة الموت

« لانه ان عاش الانسان سنين كثيرة فليفرح فيها كلها وليتذكر
ايام الظلمة لانها تكون كثيرة . كل ما يأتي باطل » (جا ١١ : ٨)

ان كثرة التفكير في الموت تكبح جماح الانسان وترد مطامعه
وتلجم شهواته وبقدر ما يتعمق الانسان في التأمل في الموت بقدر
ما تكثر حكمته وتزداد فطنته . فبالموت ينتهي كل ما في هذه
الحياة الزائلة فاذا ما سعى الانسان جهده في جمع الخيرات وتذخيرها
وكان اسم الموت مكتوباً أمام عينيه اكتفى بحاجته ورجع
وهو يهتف قائلاً « واما التقوى مع القناعة فهي تجارة عظيمة »
(اتي ٦ : ٦)

لقد اعتاد قوم من الفلاسفة أن يأكلوا ويشربوا في جماجم
الموتى لكي يكون ذكر الموت ووجوبه باديين على الدوام بازاء
عيونهم وبهذا كانوا يداوون كل شهوة عالمية . وقد ذكر مثل
هذا عن كثيرين من الملوك والعظماء الذين اتخذوا ذكر الموت

دواء لكبرياهم الارضية وحتى لا تفريهم العظمة على فعل ما لا يليق . فقد أمر الملك فيلبس المكدوني أحد خدامه بأن يكرر له كل صباح هذه الكلمات ثلاث مرات « اذكر يا فيلبس انك بشر وانك بالموت تترك كل شيء ولا بد منه » والمملك مكسيميانوس الاول صنع نعشاً لنفسه قبل موته بأربع سنين وحيثما توجه كان يأخذه معه وذلك لكي يسمع على الدوام صوتاً يقول له بلسان حاله « اذكر انك ستموت لا محالة وانك ستفارق كل شيء » ولقد كان فلاسفة الهند المعروفون بالبراهمة يحفرون امام بيوتهم قبوراً مفتوحة لكي يتذكروا الموت آن خروجهم ودخولهم على الدوام وذلك لانهم كانوا يعلمون جيداً ان ذكر الموت يفيد جداً في اصلاح السيرة . وكثير من ملوك الشرق كان لهم من جملة اعلام عزتهم الملوكية ككتاب من ذهب يحملونه باليد اليسرى القريبة من القلب اسمه « البر » وهذا الكتاب مملوءاً تراباً وغباراً وكانوا يشيرون به الى ان الانسان مائت . وكان من عادة الاحباش عند تتويج أحد ملوكهم ان يحملوا امامه وعاء مملوءاً تراباً وجمجمة ميت وقد وجد على مكتبة أحد الفضلاء جمجمة كتبت عليها هذه الكلمات عن لسان الميت يخاطب بها كل من قرأها « كما انت الان قد كنت انا أيضاً »

وقد أخذ أهل الصين عن فلاسفتهم قاعدة أجروها مجرى العادة الى اليوم في وجوب تذكر الموت في كل حين فاذا ولد الطفل عندهم صنعوا له نعشاً ووضعوه بجانب المهد يحدونه

كل شهر على مقدار النمو في جسم الطفل ولا يزالون يفعلون ذلك حتى إذا شب واشتد وضعوا النعش بجانب السرير الى ان يتم نمو الغلام فيبقى النعش بجانبه حتى يحل يوم أجله فيحمل فيه . قال ابيكتيتوس الفيلسوف «فكروا في الموت دائماً لان هذا الفكر يمنعكم من أن تفتكروا أبداً فكراً دنيئاً أو تفتكروا شيئاً بافراط الرغبة والشوق» وقال افلاطون « انه بقدر ما يتعمق الانسان في التثبث بفكر الموت يكون ثبات حكمته » وقال أحد القديسين « كل واحد أراه الآن من حسان البشر وسائر الحيوان سيصبح جيفة تنفر منها العين وفريسة يعتريها الفساد والفناء . وكل من أحدثه سيصير تراباً ويمحي ذكره من هذا العالم ويصير مأكلاً للدود . بالي الكفن . فاني البدن . عديم النفع . مجهول الاصل والفرع . أهذه نهاية الانسان ؟ اذاً لماذا نراه يهرع خلف المال والجمال والمناصب ؟ »

وحقاً فقد امسى ذكر الموت عندنا من الامور الهينة . فكم من التوايت تمر بنا في كل ساعة ولا نتعظ ، وكم من الموتى نشيع في كل آونة ولا نعتبر ؟ أجل قد نسير وراء الراحلين من هذا العالم حتى مدافنهم وهناك نتأثر قليلا . هناك عندما نرى آباءنا وأمهاتنا واقرباءنا واصدقاءنا الذين كانوا يأكلون ويشربون معنا قد استقروا في ذلك المسكان الموحش وسكنوا القبور المخيفة نناديهم فلا نسمع منهم جواباً وندعوهم فلا يبالون . حينئذ نقف أمام القبر معتبرين وتتلأشى من نفوسنا العظيمة والكبرياء والمجد .

الآن وقفنا نبكى وننتحب ونحن خائفون من الموت .
غارقون في بحار من الاحزان . وقد ملاء الرعب قلوبنا خوفاً من
الحفرة الضيقة المظلمة التي نساق اليها مرغمين . الان تضاءلت
الحياة أمام ابصارنا . وملاً الوجل مكان الغرور فانصرف عنا .
وتحققنا اننا مائتتون ولا محالة . وتعهدنا امام ضمائرنا مشهدين على
انفسنا سكان القبور ان نعمل عملاً صالحاً ينفعنا يوم نموت .
سمعنا الملهد يقول « قد اغلق باب القبر » وبدأ المشيعون
ينصرفون وأخذنا كلما خطونا خطوة بعيداً عن المقبرة كلما قل
البكاء . وكلما تغيبت من تخيلتنا اشباح الاموات كلما عدلنا عن
الحزن والساكبة

الآن دخلنا بين المنازل والخوانيت . واختلط الرائح والغادى .
وغابت الاجداث عن اعيننا ونسينا ذلك الميت الذي بكيناه .
عند ذلك ضحك العبوس المتصنع وتبسم الباكي المرأى ورجعت
العقلة الى القلوب وتناسينا الموت . الآن رجعنا الى الطمع والشره
والحسد وتحقير المساكين والتهجم على الاعراض والتباهى بالالاقاب
والتفاخر بالمال . وهكذا نفعل في كل ادوار حياتنا . فاذا مرضنا
أو فوجئنا بموت عزيز تنبهننا وتبنا . واذا شفينا من المرض
أو تقادم عهد الميت رجعنا الى سابق عهدنا حتى تدهمنا سكرة
الموت وقد اغلق باب التوبة

فمن منتهى غباوة الانسان وجهله ان يتخذ في كل منبت شعرة
من جسمه حبلاً من الامل يعلق به النفس بطول البقاء ويمحو

من ذكراته كل سبب يذكره بالفناء . يوجد من لا يرد له ذكر الموت على خاطر بل قد رسخ في ذهنه ان لا فناء مع البقاء ولا يحس بحقيقة الموت الا اذا أصابه مرض أو مات له قريب او صاحب ولكن عندما تطرأ عليه مشاغل الحياة يعود الى ذهوله الاول وعماه المستديم : وقد يظن اولئك الاغبياء ان في عدم ذكر الموت راحة مع أن هذه الساعات الوجيزة التي يتذكر الذاهل فيها الموت عند اشتداد المرض او عند موت حبيب له يصيبه فيها من انواع الجزع والفزع ما لا تقاس آلامه بآلام الحياة كلها ويكون هذا التذكر لديه بمنزلة زلزال يهدم له لحظة جميع ما بناه في رأسه من الآمال وما زخره من الآمانى وربما أثر ذلك في اعضائه فيجعله يلحق بقريبه الى جوف القبر

فكم من الناس من يعمل على ابعاد ذكرى الموت عن فكره ويدأب في محو المذكرات به . فلا يمشي في جنازة ولا يحضر مأتماً ولا يزور مقبرة ولا يبصر آلة من آلات الدفن او الكفن الا ويهرب ببصره عنها . ومنهم من يهجر بيته اذا مات فيه ميت حتى لا تذكره جدرانها بخروج الميت منه . ولو انك أهديت اليه صورة جمجمة من ذهب لبشع منها واستنكرها وسخط عليك لانك أردت تذكيره بذلك الشر العظيم والأمر الفظيع واذا شاهد رجلا ممن اعتادوا غسل الموتى هرب من رؤياه خوفاً من أن يتذكر ما كان يباشره احياناً من القيام بغسل الموتى او يفكر في انه سيغسله يوماً

امثال هذا يعيشون في عمى القلب فيستطيع الشيطان ان
يجرهم الى حباله بكل سهولة . غير اننا نوصى من يريدون ان
يعيشوا حسناً ومن يهتمون بخلاص نفوسهم ان يتأملوا دواماً
فى الموت فان الذين يتأملون فيه يتصرفون فى اعمالهم حسناً
ويتحكمون جيداً فى افكارهم واقوالهم اذ التفكير فى الموت يبدد
من المرء الاخلاق الرديئة ويفصل قلبه من التعلق بمحبة العالم كما
قال أحد الاتقياء « ان التفكير فى الموت يجعل الانسان لا يجد
شيئاً فى العالم يستحق المحبة » فخيرات العالم كلها قائمة فى ملذات
الحواس وفى التمتع والتعظم فمن يفكر جيداً انه بعد قليل من
الزمن هو عتيد ان ينتهي ويوضع فى الاعداد تاركاً كل مجد وغنى
فانه يحتقر كل خيرات العالم وموجوداته

وحقاً فكثيرون من الذين شغلوا عقولهم بذكر الموت فى
ابان الحياة استطاعوا ان يهذبوا من انفسهم ما لم تهذبه العظات
المؤثرة والتوعيدات الرهيبة وقد قال أحدهم عند وفاته « انى
لكونى فى مدة حياتى حفظت على الدوام امام عينى الموت
وجعلته حاضراً فى عقلى فالآن عندما جاءنى الموت لم يجد
فى شيئاً يمكنه ان يحزننى به » وقال آخر « ان ذكر الموت يبين
ان مسرات العالم جميعها باطلة . فلو تصورت ذلك الكفن الحقيقى
المزمع ان تلف به وذلك القبر الذى توضع فيه فلا ريب فى انك
كنت تحتقر كل ما فى العالم من غنى واذا ذكرت انهم سيوارونك
فى التراب وتكون مداساً بالاقدام ومنسياً من الناس

على الدوام لأصبحت لديك كل ايجاد العالم ومراتبه كلا شيء :
 وإذا تأملت بعين فكرك في الدود الحقير الذي يأكل لحبك
 وتصورت الحالة الشنيعة التي سيتحول اليها جسمك لكنت تطرح
 كل ملاذ الدنيا الحاضرة وافراحها تحت قدميك»

ان السجين اذا نقل من سجن الى آخر لا ينبغي ان يعتبر
 نفسه وهو في الطريق بين السجين انه حر طليق . هكذا الانسان
 يؤخذ من التراب ويرد الى التراب ومدة وجوده في هذا العالم هي
 المسافة التي بين البداية والنهاية فلو عرف الانسان من أين أتى وإلى
 اين يذهب لأتضع . فهو أتى من التراب « لانك تراب » ويذهب
 الى التراب « وإلى تراب تعود » (تك ٣ : ١٩) وبهذا الفكر
 استطاع ابراهيم ان يعالج نفسه حينما كان الله يخاطبه مخاطبة الصديق
 لصديقه فانه لم يتعال ويتخذ من تنازل الله لمخاطبته سبباً للكبرياء
 بل امعن في احتقار ذاته وقال « انى قد شرعت اكلم المولى وأنا
 تراب ورماد » (تك ١٨ : ٢٧)

فأحسن دواء نعالج به غرورنا هنا هو ان نعتبر الموت ملازماً
 لنا ونقيم معه دالة ونفكر فيه حينما نعزم على القيام بأى عمل من
 الاعمال فلا يوجد في العالم من يقضي حسناً ويشير بالتوفيق
 والحكمة كالموت ولا يوجد واحد منا الا وشاهد كثيرين
 يموتون فمنهم من دفن أبويه ومنهم من دفن زوجته ومنهم من دفن
 أحد أولاده ومن دفن أخاه أو أخته أو صاحبه . ألا نتذكر

حينئذ كيف كانت أفكارنا حسنة وبأى شيء كنا نسر ولاى شيء
 كنا نحزن . وكيف اختلفت احكامنا عما كنا نحكم به ونحن في
 غفلتنا . كيف اصبحتنا تقدر الفضيلة ونعتبر الصلاح ونمدح ونطوب
 القداسة والكمال ونزدري بالانهماء في العالم ونحتقر الانشغال
 بامجاده والسعي وراء ملاذه . حقاً اننا حينئذ نندمنا على كل خطية
 ارتكبتها وفرحنا لكل حسنة أتيناها . كم حزنا لاننا كنا نطلق
 للنظر الشهوانى العنان وهذا الميت قد أصبح مغلق النظر . كم
 تألمنا لاننا كنا نفتكر في الاثم وهذا الميت قد فقد قوة الفكر . كم
 تأسفنا لاننا اشتبهينا ما للغير أو لاننا حسدنا او لاننا انكرنا
 خالقنا وتعبنا في سبيل جمع أشياء كثيرة وهذا الميت امامنا لم
 يأخذ معه شيئاً مما جمع . فما أحسن ذكر الموت

فلندم النظر اذاً الى صورة الموت ولنتصوره على الدوام .
 اعتقد ان ذلك اليوم الذى يوافيك فيه قد اقترب . اعتقد جيداً
 ان القبر هو مثواك ومقرك . فماذا يكون أمرك اذاً مع هذه
 الفانيات التى تهتم بها ؟ فالاجدر بك ان تضحك عليها وتهزأ بها
 لانه ما الفائدة ان تجاهد حتى تصبح غنياً ثم تلقى في القبر مجرداً من
 كل شيء مدفوعاً الى الفساد والفناء . يا شقاوة اولئك الذين
 يطوفون البر والبحر طلباً للدرهم والدنانير وهم لا يعلمون متى
 يلجئون القبور الضيقة الكربة حيث يكون مسكنهم فى الظلام
 الى الابد

ولو أن محبى الرياسة وطالبي النفوذ والسلطان ينظرون للحال

الذى صار اليه من تقدمهم لكبح ذلك جماح شهواتهم ولتنبيه
نفوسهم وتقوم تصرفاتهم وخذت نيران شوقهم للدنيا . ويا ليت
هذا الفكر لا يبرح من بال احد لكى يعيش الجميع بطهارة
ضمير ويشعرون بشدة مرارة الدنيا ويلفظونها وخيراتها لفظ
النواة . قال احدهم « كما أن الماء يزيل اوساخ الثياب واقدارها
هكذا ذكر الموت يزيل عن القلب صدأ محبة هذه الدنيا » قل لمن
سار منهمكاً مريداً ان يجمع ذهب العالم كله الى حوزته « الموت
الموت » قل لطالب الغنى « الاغنياء يموتون » قل لعاشق العظمة
« العظماء يموتون » قل لمحبي الشهوات « ان من سبقك فى هذه
الطريق مات » قل للمولع بجمال هذه المرأة « تمثل هيئتها بعد أن
يستولى عليها الموت » ليت الناس يذكرون ذلك فتقف مطامعهم
عند حدها

تصور أيها الغافل أن أمامك قبراً سوف تستقر في جوفه
فعليك ان تعمل كل ما هو صالح لترافقك اعمالك الى الحياة الابدية
قال أحد الافاضل « جرت العادة انه اذا ما اريد ادخال جواد فى
حلبة ميدان السبق ان يمرن اولاً على السير فى ذلك الميدان ليختبر
أرضه جيداً حتى لا يصيبه وقت السباق اذى، وأنت على هذا المثال
ان اردت ان تسير فى طريق الموت مطمئناً فعليك أن تختبره جيداً
وتطلع على احواله ما دمت فى الحياة . وقبل مماتك تفرس فى الموت
واختبر الارض التى أنت مزعم ان تعود اليها . وقد يليق بك فى
حال مسيرك فى اضطرابات الحياة أن تعمل كما يعمل ربان السفينة الذى

يجلس في مؤخرها ويديرها . هكذا اجلس أنت في مؤرخ سفينة
 هذه الحياة مفكراً في الموت وبذلك تدبر حياتك حسناً . وكما أن
 المسجونين الذين حان وقت اطلاق سراحهم يكونون وقوفاً بباب
 السجن في انتظار ساعة الخروج منه هكذا ينبغي لك أن تحصر
 فكرك وذهنك وعقلك في باب الموت الذي انت مزعم أن تمر منه .
 وكما أن الرماد يحفظ النار من الانطفاء هكذا ذكر الرماد الذي
 ستنقل اليه يحفظ التقوى ويصونها »

فان فكرت في ظلمة الموت قبل مجيئها انتصرت على الموت
 قبل حلوله لأنك تكون مستعداً لمقابلته فان اهل نينوى لما سمعوا بحكم
 الموت عليهم رجعوا وتابوا الى الله ونجوا من مرارته هكذا أنت
 متى كنت مثابراً على ذكر الموت فلا تغلب اذا اتى ينفذ حكمه عليك
 الموت مرآة حياة الانسان فاذا كانت حياتك شريرة فموتك
 شرير واذا كانت صالحة فموتك صالح . فاذا اردت أن تحول مرارة
 الموت الى حلاوة فاذكره كل يوم . قال القديس انطونيوس وهو
 يخرج انفاسه الاخيرة لتلميذه مكاريوس وأماتاس « عيشا كأنكما
 مزمعان ان تموتا كل يوم » فاذا هاجت فيك محبة العالم فاذكر
 انه يمضى وشهوته . واذا ثارت فيك الآمال للمجد الدنيوى
 فاذكر ساعة الرحيل . واذا آتست في نفسك جنوحاً الى
 الكبرياء فسلها « لماذا وعلام يتكبر التراب والرماد ؟ »
 وهكذا اذكر الموت اذا أراد الشيطان ان يجربك . اذكره عند

ما يعيل بك الحقد الى الانتقام . اذكره عند ما يحول الكسل بينك وبين الذهاب لسماع كلام الله . فكر فيه عند نومك وعند يقظتك . تصوره اذا أتك اهانة أو لحقت بك تهمة . ارسمه أمام عينيك عند كل تجربة . فكل ذلك يصدك عن الوقوع في الخطية وعدم الوقوع في الخطية هو التأهب لاستقبال الموت وهذا يجعل خاتمتنا سهلة ونهايتنا فرحاً ابدياً .

الفصل الثالث عشر

في عبرة زيارة المدافن

« الذهاب الى بيت النوح خير من الذهاب الى بيت الولاية لان ذاك نهاية كل انسان والحي يضعه في قلبه » (جا ٧ : ٢)

يقيم الناس النصب والتماثيل للمشاهير والعظماء . ولكن هذه التماثيل لا تمثل الحقائق بل الفانيات لانه بينما يكون التمثال قائماً يكون الممثل به ثاوياً في جوف الثرى . يصور الناس صوراً شتى لمختلف الاشياء ولكنها صور الزائلات . فبينما ترى صورة الزهرة فتبتهج تجد الزهرة ذابلة ومنشورة ؟ اما تمثال الموت « القبر » فهو صورة حقيقة لا تقنى ، صورة لذلك الجبار الذي يجول العالم كله دون ان يضعف او يكل

ما أكثر تعطش الناس للذهاب الى البساتين والمنزهات
ومنتديات اللهو واللعب وما أعظم زهدهم في التوجه الى الاماكن
التي سوف ينتهون اليها ويرقدون فيها الرقدة الاخيرة . فهم اشبه
باطفال يصرخون طالبين الجمرة والحلوى بايديهم . فخير للانسان
ان يزدري بكل ملهى او محل سرور لان هذين ونظائرها جمرات
للنفس ومن الحكمة ان يقضي المرء اوقاته حيث توجد اجداث
الراجلين الذين سيلحقهم ليتخذ له منهم عبراً ودروساً يتمكن بها
من السير في الحياة بعقل وفطنة . فان رؤية القبور تلاشي الكبرياء
والعظمة وتبدد الميل الى الشر وتذهب بكل اثم راسب في اعماق
الفؤاد قال الحكيم « الحزن خير من الضحك لانه بكاءة الوجه
يصلح القلب » (جا ٧ : ٣)

حقيقتان واضحتان في تاريخ الانسان بالواحدة منهما يتبدىء
وبالآخرى ينتهي وهما « الولادة والموت » واذا راق لنا ان نقف
حين الولادة بجانب سرير الطفل نهزه بغبطة وابتهاج وجب علينا
ايضاً ان نقف امام القبر لنذكر الحقيقة الثانية كما أدركنا الاولى
وحق لنا ان نقرن كلمة الولادة بكلمة الموت حتى لا ينسينا السرور
بالوجود في هذا العالم الحزن بالخروج منه . فيوم الولادة ويوم
الوفاة أمران متلاصقان وحبلان متصلان والانسان يمشي في الدنيا
كأنه عابر في طريق عن يمينه فيها الموت وعن شماله الحياة وانه
كما يدب بنموه في الحياة يدب بانفاسه نحو الممات في آن واحد
وانه لا بد للعاقل ان يحضره ذكر الموت كما يحضره ذكر الحياة وان

اليقين في أعواد النعش والشك في أعمدة القصر

قال أحد القديسين « ان السفينة لا تسافر الا في الوقت الملائم
فتنشر قلوها وتأخذ في المسير بين فرح ركبانها وابتهاجهم
ولكن متى صدمها صخر تحولت الافراح في الحال الى احزان .
كذلك وقت ميلاد الانسان يكون فرح جزيل للأهل والاقرباء
والاصدقاء ولعمري ان هذا جهل عظيم لأن هذا المولود سيموت
يوماً فينقلب الضحك بكاء ويتغير الفرح حزناً »

والحزن عند ذكر الموت أفيد من السرور عند ذكر الميلاد
لان الطرب يخلف فينا الامل الكاذب ، والامل الكاذب يسبب
انغماساً في الشهوات . اما الحزن فانه يولد العبرة والعبرة تجعلنا
نستعد ليوم الرحيل بانتباه تام . ولكننا اهملنا ان نذكر اننا
سنرحل وحصرنا كل افكارنا في البقاء والوجود ، وصح في ذلك
قول لارشفوكو « شيئان لا يستطيع الانسان ان يصدق ببصره
فيهما الشمس والموت » فلا نبتهج لان مجدنا ابتداء بل علينا ان
نذكر يوم انتهائه

في الانسان جسد وروح فالجسد ينزع الى الشر والروح الى
الخير . والجسد شديد الالحاح على الانسان ليرضيه فلا يمكن ان
تكبح جماحه وترد مطامعه الا اذا اخذته الى حيث يقيم الأولون
وتقول له « كم من هؤلاء أرضوك فاذلتمهم ولبوا نداءك فاهنتهم
وهم اليوم في مضاجعهم لا يشعرون بلذة ولا يدرون ابتهاجاً »
قال القديس يوحنا فم الذهب « ان كثيرين يبنون المدافن

والارمس تجاه المدن والقرى لتكون عبرة لهم كلما ينظرون اليها -
يتحققون من ضعف طبيعتهم وزوالها . ولذا ينبغي ان نسمي القبور
« مدرسة التواضع » حتى اذا اراد احد ان يعضى الى مدينة
عظيمة ليتخذ له فيها مركزاً سامياً او رتبة عالية . فانه قبل ان
يلج المدينة لينال فيها ما يبتغي يجد على ابوابها القبور والمدافن
مملوءة جثثاً وعظام أموات مفعمة دوداً ونتاجاً فتتكسر حدة
مطامعه ويرجع عن كبريائه »

وزينون الفيلسوف لما اراد ان يجد واسطة فعالة مؤثرة تهذيب
حياته وضبط حركاته الحسية كان يذهب كل يوم ويمكث بين
القبور مدة يرجع بعدها صاحياً عاقلاً : ولما سئل عن سبب
ذلك قال « لاني لما أرى واثماً ل حال الاموات الذين عدموا كل
ما كان لهم بزوال حيايتهم استخف بالخيرات الزائلة وأحبس نفسي
عن الافتخار بها »

والقديس مكاريوس المصرى الكبير جاءه ذات يوم اخ قائلاً
يا معلم قل لى كلمة اتعظ بها . فقال له امض الى القبور واشتم الموتي
الذين فيها . فضى الاخ وشتمهم ورجهم بالحجارة . وعاد فاخبر
القديس بما حصل فقال له أما خاطبك أحد بشيء ؟ فقال لا
فقال امض غداً وامدحهم ، فضى الاخ ومدحهم قائلاً يا قديسون
انتم ابرار واطهار . وظل هكذا دون ان يسمع محبباً وعاد
فاخبر الشيخ فقال له هل اجابك أحد بشيء ؟ فقال لا . فقال
له الشيخ « ان كنت حقاً قد مت عن العالم مع المسيح ودفنت

معه فاصنع هكذا لأن الميت لا يحس بكرامة أو باهانة وهكذا
تستطيع أن تخلص»

واذا اردنا ان ندرك مقدار التأثير الحسن الذي تخلقه فينا
زيارة المدافن فعلينا ان نتذكر كيف نكون مكتئين ونحن
ذاهبون اليها وكيف نسير اليها باقدام تتلوى وقلوبنا تشعر بالخوف
كأننا منطلقون الى مكان الاعدام . ولنتخيل مع ذلك السرور
الذي يملأنا عندما نعلم اننا ذاهبون الى مكان اجتمعت فيه
اسباب اللهو والسرور . فنحن نخشى ان نرى ضريحاً خشية الحزن
ولو كان نافعاً ونحب مواضع اللذة والسرور ولو كانت مضرّة ، مع
ان الحكيم يقول « سمع الانتهار من الحكيم خير للأسان من
سمع غناء الجهال » (جا ٧ : ٥) والسيد المسيح يقول « طوبى
للحزاني لانهم يتعزون » (مت ٥ : ٤) وقال أيضاً « انتم ستمحزون
ولكن حزنكم يتحول الى فرح » (يو ١٦ : ٢٠) وقال الكتاب
عمن يفضلون فرح العالم « واحول أعيادكم نوحاً وجميع اغانيكم
مراثي » (عا ٨ : ١٠)

فهناك في المضاجع الاخيرة نشاهد سكوناً عميقاً وصمتاً
بليغاً لا جلبة ولا صياح ولا ضحك ولا أنين وقد كان بين الراقدين
من ازعجوا العالم باصواتهم العالية ومن كان ضحكهم يقرع الآذان
ومن كان انينهم يقطع نياط القلوب ولكنهم جميعاً صمتوا عند ما
علموا انهم كما اتوا الى العالم غرباء رحلوا عنه غرباء أيضاً : تشرق

الشمس وتغرب وتتجمع السحب وتتبدد وتتعرى الاشجار عن
اوراقها ثم تعود مخضرة والاموات لا يدرون بشيء من ذلك
كله . تأملوا جيداً في تلك القبور كم قد طوت من أدب وعلم
وعظمة وحكمة : كم قد وارت من هم عالية وآمال كبيرة وكم قد
ذوت تحت ترابها من اجسام اضره وبسات عذبة وعيون ساحرة
ايه أيها الاموات ما بالكم ترقدون ولا تقومون
وتنامون ولا تستيقظون . ما بالكم لا ترجعون الى اوطان
لم يكن يطيب لكم البعد عنها ليلة واحدة فكيف بكم وقد
ابتعدتم عنها السنين الطوال . اين ارجلكم التي كانت تقفز
كالايائل : فلا نسائم الصباح الباردة ولا تغريد الطيور الصادحة
ولا صباح الديكة ولا رنين الاجراس ولا هتاف الرعاة يوقظكم
من رقدتكم هذه . هذا صوت الطرب الذي كانت تعشقه اذانكم
وهذا وجه الفتاة الجميلة التي كانت تحب التطلع اليه عيونكم .
ها محلات الرقص والخلاعة استوحشتكم وأما كن السرور واللهو
قد خلت منكم وتدعوكم . ما بالكم لم تهتموا بهذا الخبر وقد
كان أحب الاخبار لديكم . آه انكم ما اصبحتم تهملون تلك الأمور
الا لأنكم فقدتم تلك القوة التي كنتم تقوون بها عليها .
فلنحرق بأبصارنا في كل قبر من تلك القبور . عند ذلك
تتمثل لنا ذنوبنا وتلوح أمامنا خطايانا : وكلما نذكر ذنباً
جديداً كلما يزيد ارتعابنا وخوفنا حتى نشعر بأن الخطيئة الواحدة

اثقل على اعناقنا من جبل عظيم بعد ان كانت كل خطايانا كلا شيء امامنا . لننظر جيداً فنتصور كأن كل قبر من تلك القبور قد وقف امامنا خطيباً ليبين لنا بفصاحة يعجز عنها ابلغ الخطباء مقدار الجهل والغرور السائدين علينا لأننا ملنا للعالم وأحببناه ثم مقدار الخطأ والتهور لأننا سمحنا لاجسادنا الفانية ان تنصرف على ارواحنا الخالدة .

وكاننا نسمع تلك الاصوات المنبعثة من جوف القبور قد تعالت حتى وصلت الى الجو ففاقت قدرة خطبائنا ومرشديننا لان هؤلاء يخشون ان يثبتوا للعظماء فساد عظمتهم ولذوي الابدان بطلان مجدهم اما اولئك فلمهم بسالة في النصيح وشجاعة في الانذار لو كانت تصل ملوك العالم لصعقوا في قصورهم من الوجل

اسمعهم يقولون « أما زلتم تذكرون مجداً وعظمة وملكاً . وما علة شقائقكم الا المجد والعظمة والملك . مضمحل ذلك المجد . حقيرة تلك العظمة . زائل ذلك الملك . باطل الابطال السكل باطل » (جا ١ : ٢) مجد كالزهر وعظمة كالتراب وملك كالعشب جميعها تذروها الرياح ويكنى لملاشاتها من الزمن ما بين المساء والصباح . تأملوا هنا . هل ترون فرقاً ما بين عظيم وحقير ، ملك وعبد ، غني وفقير . قد انتهى امر التفاضل بينهم وتساوى الجليل بالشنيع والشيخ بالشاب ومن تمتع بالملذات بمن لم يتمتع بها »

فتعالوا هنا ايها المنخدعون بالحياة واقربوا ايها المتكبرون المتشامخون تعالوا لتعرفوا مقدار غروركم وعظيم جهلكم . فهنا

تنتهي آمالكم وهنا يذل تشاؤكم وهنا يحل بكم الفقر المدقع
وهنا يحتفى كل مجد لكم وتغيب جميع ابتساماتكم وينطفئ جمالكم
«قلت للمفتخرين لا تفتخروا وللأشرار لا ترفعوا قرناً. لا ترفعوا
إلى العلي قرنكم» ولكن الله هو القاضي هذا يضعه وهذا يرفعه»
(مز ٧٥ : ٤ و ٥ و ٧)

فليقف فوق رمال هذه القبور المبعثرة وعلى جوانبها المتهدمة
المتساقطة ارباب المطاعم في الحياة وطلاب المجد والعظمة خاشعين
مستكينين خافضي رؤوسهم اجلالاً واكباراً وليسكوا قليلاً عن
التدلل بعزهم وجاههم والتفاخر بفضتهم وذهبهم وليخفوا في
اعماق نفوسهم ابتسامات الهزء والسخرية المترققة على شفاههم .
وليعلموا ان طريق المجد والعظمة التي يسرون فيها وان كانت
مخضرة جميلة مفروشة بالاعشاب مخفوفة بالازهار الاربعة
الا انها تؤدي في نهايتها الى هذا المصير الذي صار اليه
المقبورون

تعالوا ايها الاحياء وقولوا بماذا تفتخرون ؟ هوذا الاموات
يتكلمون فاسمعوهم لانهم عرفوا ما لم تعرفوا واختبروا ما لم تحتمروا
ها هم يسألونكم . بماذا تفتخرون علينا ؟

أبجمالكم ؟ عما قليل يتحول الى شناعة . ليتكم فقدتم هذا
الجمال الغشاش الذي جركم الى الأثم . جمال يظهر اليوم ويختفي غداً
انه لجمال باطل

أبناظركم ؟ ماذا به تنظرون ؟ أليست الشرور والآثام ؟ ليت ما

كان لكم نظر وما تطلعون به الى الخطية التي اهلكتكم . عيون
تنظر اليوم وتكف غداً لا يحق الافتخار بها

أبسمعكم ؟ ماذا تسمعون . أليس صياح المستهزئين وتجديف
الخطاة وتخليق الاشرار ؟ ليت ما كانت لكم آذان لتسمعوها
ما يضركم وينتهن بكم الى الويل . آذان تسمع اليوم وتصم غداً لا
يصح التباهي بها

أبمنطقكم ؟ بماذا تتكلمون ؟ أليس كلاماً ملؤه الافتخار
والخداع والسب والوقية ؟ ليتكم لم تكن لكم السنة تتكلمون
بها ما ستحاسبون عن كل حرف منه (مت ١٢: ٣٦) لسان يتحرك
اليوم ويخرس غداً لا ينبغي التطاول به

بماذا تقتخرون علينا ؟ أبقدرتكم على التنقل من مكان لا آخر ؟
مهلاً . ستخلدون الى المحول . وستفقدون قوة الحركة مثلنا .
أبالغى والجاه والمجد ؟ ستعدمون كل ذلك كما عدمناه . أبسكنى
القصور ؟ القبور متأهبة لاستقبالكم : أباللباس البهى ؟
ستحرق كل حللكم وتزرون بكفن كما اترنا . أبالمضاجع
الوثيرة الناعمة التي تضطجعون عليها ؟ لا بد من اقتراش الحصى
كما افترشناه . أبالروائح الزكية التي تنبعث من ثيابكم ؟ ستخرج
منكم يوماً عفونة زائدة ينفر منها محبوكم كما حدث معنا . فمنا
من كان يتطيب واليوم ينقل الريح نتائمه الى أنوف محبيه .
أبعلمو مراكم ؟ سيدلكم الزمان . أبارتفاع كراسيكم ؟ لا بد
لكم من أن تدرجوا فى اعماق الارض

فلا تفتخروا علينا اذا فأنتم ونحن اشبه برجلين محكوم عليهما
بالاعدام نفذ الحكم في أحدهما وسينفذ بعده في الآخر فلا ينبغي
للثاني ان يفتخر على الأول اذ سيجرى عليه ما جرى على صاحبه
وسيلحق به عما قليل

كم منا كانوا مثلكم : ألم يكن فينا العظماء واصحاب الجاه
والفصحاء وذوو الوجوه الحسنة ؟ وبالامس فقط كنا مثلكم
نفكر في لذة نغمها ومال نكسبه وليال في اللهو تقضيها فدهننا
الحمام وسلبنا كل موجود ومأمول فلم يبق ولم يذر فدعوا عنكم
الغرور واستعدوا للقاء ربكم بالايمان الصحيح والعمل الصالح فهما
وحدهما ينفعانكم يوم يحل بكم ما حل بنا

قال احدهم تحت عنوان « عند منازل الاموات » : — وحينما
أنظر الى مقابر العظماء تموت عاطفة الحسد في فؤادي . وحينما اقرأ
اسماء أولئك الذين ذهبوا تتلاشى امام عيني كل مظاهر العالم الفاتنة
وتبدو مكانها النهاية المحزنة »

اعتاد الكثيرون ان ينقشوا اسماء امواتهم على صفحات
قبورهم فلو قرأت تلك الاسماء لزدت احتقاراً لهذه الحياة وازدراء
لهذه الدنيا . قيل ان دوميتيانوس قيصر اذ شعر بان رجاله
يضمرون له شراً دعاهم الى مأدبة بقصره وادخلهم الى غرفة مظلمة
عليها شارات الحداد وفيها مصباح قليل الضياء ووضع في وسطها
نعشاً بدلاً من الخوان ، وآلات تعذيب وقتل عوضاً عن الاطباق
والملاعق ، واوانى مما يحفظ فيها رماد الاموات في مكان اقتداح الشراب

وكتب على كل اناء من اواني الرماد اسم واحد من المدعوين بحروف سوداء . ولم يكن هناك سوى بعض من العبيد يشخصون افطع الميتات وموسيقى تعزف بالخان محزنة تذيب القلب كهداً فأى خوف وجزع وهلع ملك حينئذ قلوب أولئك الرجال . انهم عندما امرهم القيصر بعودتهم الى منازلهم لم يصدقوا بالنجاة بعد أن شاهدوا الموت أمام اعينهم وادركوا أن الملك قد مثل امامهم صعوبة العذاب الذي تستحقه خيانتهم وهو الموت الزؤام فعاشوا ما بقى من الحياة محترسين مما يؤدى بهم الى ذلك المصير المشؤوم .

فتعالوا نتأمل فى تلك الحكمة عليها تبدد ما تسلط على قلوبنا من الاوهام ولنفحص ما كتب على ظاهر المدافن فماذا نرى ؟ هذا قبر كتب عليه « اسم ملك وتاريخ ملكه ويوم موته » لتجل بخاطرنا عظمة ذلك الملك وجلال حضرته وكيف كان الالوف تحت امره وكيف كان يزين التاج رأسه والذهب الوهاج يلمع على صدره وكيف كانت كلة واحدة منه ترفع وكلة واحدة منه تذلل وكيف كان الجميع يطلبون رضاه ويتمسحون بآثاره ، ولنجزع اذاً عند ما نذكر ذلك ونذكر تلك الضجعة الذليلة التى انتهى اليها بعد ذلك الملك العظيم والمجد الفخيم

هذا قبر آخر . ماذا كتب عليه « اسم ثرى عظيم اقتنى ثروة لا عد لها » فلنذكر كيف واصل ليله بنهاره فى جمع المال وكيف حرم نفسه لذة الراحة والنوم فى سبيل كنزه وتدخيره ، وكيف

عادى الناس وظلمهم وكيف استلب حقوق الارامل والايتم
 ليرضى طمعه الذى لا يشبع . ولننظر كيف ترك كل ما جاهد فى
 جمعه ورضى بقيد ذراعين بعد ان كانت الدنيا على سعتها ضيقة
 امامه . انظر كيف خرج من العالم بدون شيء كما دخل اليه بدون
 شيء (اتي ٦ : ٧) وكيف دخل القبر عرياناً كما خرج من بطن
 أمه عرياناً (اى ١ : ٢١) كان لو وهب ذهب العالم كله لا يعرف
 للقناعة معنى والآن تراه يترك ما ناله بتعبه وجهاده ليتمتع به
 من لم يتعب فيه . ذخر ذخائر ولا يدري من يضمها (مز ٣٩ : ٦)
 وهذا قبر آخر . كتب عليه اسم واحد من اشتهروا بتجبة
 الشهوات . لتتخيل كيف كان يسعى وراء ارضاء شهواته . وكيف
 كان يختفى عن عيون الناس ليبلى وطره واذا به الآن قد فقد كل
 ميل للشهوة وكل رغبة فى اللذة وما عاد يشعر بالخطية التى أتاها
 ولا بالاثم الذى ارتكبه ولم يبق لهما من الاثر الا ما يلطخ سمعته
 ويدنس صيته ويجلب عليهما اللعنة والعار

وهنا قبر آخر يجمع العظام النخرة البالية التى بقيت من ذلك
 الهيكل الانسانى البديع . هنا وجه لامرأة كانت ذات جمال رائع
 فذلك الوجه الذى كان منذ ايام قلائل يسبى القلوب ويستهو
 الافئدة بجماله البديع وذلك النعم الارجوانى الذى كان يبتسم
 فيخلب الالباب قد تحول كل ذلك الى شكل يخيف من يراه ويزعج
 من ينظر اليه . لقد تحولت الابتسامة الحلوة الى عبوسة داثة

تأمل . هنا قبر مراب سلب كثيرين اموالهم بما أخذه منهم
من الربا الفاحش ثم مات دون أن يرد المسلوب وترك امواله لبنيه
فاتفقوها في وقت قصير في الملاهي والمنكرات . وهناك رمس
حقير يجمع عظام رجل كان يعاقر المسكر فمات وهو سكران .
وبالجملة تجد هذه القبور المتجاورة تجمع رفات شيوخ وشبان
ورجال ونساء واطفال وعظماء واقوياء وعلماء وأغنياء وجهلاء
وفقراء واشقياء لأن الكل تحت سلطان الموت على حد سواء
أتريد ان تتعلم اكثر . تعال واكشف هذا القبر لترى جثة
انسان كنت تعرفه كبيراً عظيماً جباراً عنيداً يرفع يده بشدة
ويتكلم بقوة . ها قد ضعف . انظر اليه وقد تحولت عظمته الى
هوان وقوته الى ضعف وصوته الى خرس . تأمل هذا اللسان .
كم مرة تكلم بالشر وكم دفعة تفوه بالفاظ العجب والكبرياء . كم
من لسان فصيح كان اذا تكلم صمتت الناس هو الآن طعام حشرة
حقيرة . وهذه اليد كم مرة ارتفعت للضرب وكم مرة أهانت البائسين
وكم مرة صفعت الوجوه وقبضت الدنانير ولكنك تراها الآن
هادئة . كم من يد هنا يأكلها الدود وكانت اذا ارتفعت خضعت لها
الرؤوس . كم من رأس أكلها الفساد كانت لا تسمح لرأس أخرى
أن ترتفع معها . وهذه العين كم مرة نظرت الشر . كم من عين
كالتى قال عنها الحكيم « لا تشبع من النظر » (جا ١ : ٨) قد
ملأها التراب وسكن فيها الدود
كم من كثيرين من هؤلاء اذلوا الناس فأذلهم الموت وظاموا

الغير فظلمهم القبر وأهانوا الآخرين فأهانهم البلي . كم من كثيرين منهم اشتدت آمالهم وعظمت مطامعهم . سلهم الآن عما في قلوبهم من آمال وفيما يطمعون . لا آمال ولا مطامع . خابت الآمال وذهبت المطامع

لما وقف الفلاسفة يؤبنون اسكندر الاكبر قال احدهم « قد كنا ايها الشخص بالامس نصغى للاستماع منك ولا تقدر على القول فهل تسمع الآن ما نقول » وقال آخر « يامن كان في غضبه الموت لم لم تغضب على الموت » وقال آخر « عهدي بك وأنت ترغب نفسك في امتلاك أرحب البلاد فكيف صبرك الآن على ضيق هذا المكان »

فها قد رأيت المتكبر ساقطاً والعظيم حقيراً والفصيح فهبهاً فقل اذن لمن على شاكلتهم انك الآن رأيت الذين كانوا مثلهم قد فقدوا ما يتيهون هم به اليوم . قل لهم ايها التراب علام هذا التثامخ وقد جئتم من التراب وستصيرون الى التراب

وبعد ذلك ماذا ترون في الدنيا يا محبيها : الدنيا التي انتم تعتبرونها وتعظمونها . ألم تصغر أمام عيونكم . ألم تصبح قيمتها أمامكم كذرة رماد صغيرة . أليس لكم الآن أن تفضلوا الحزن الذي بحسب مشيئة الله الذي ينشئ توبة خلاص بلا ندامة (٢ كو ١٠ : ٧) على فرح العالم الذي يسمع كل محب له قول السيد المسيح « ويل لكم ايها الضاحكون الآن لانكم ستحزنون وتبكون » (لو ٦ : ٢٥)

فباطلا اذاً نجري وراء السرور في هذا العالم . ان زهرة
الحياة لا تنبت الا في التربة التي نبتت فيها أشواك الموت . هكذا
لا نستطيع ان نكتسب لأنفسنا عظة تردنا عما نساق اليه بقوة
شهواتنا البدنية الا اذا تأملنا جيداً في ما صار اليه اسلافنا
ولكن بينما نرى اولئك الراحلين يعلنون بفصاحة تلك
الانذارات نتأمل بين الاحياء فنرى الشرير مكباً على شره والقي
ساعياً لجمع ماله وعاشق المجد يطلبه بشدة وهم لا يدرون ماذا
يتم لهم في مساء هذا اليوم او في صباح الزند وما أحسن ما قاله بوب
الشاعر الانكليزي في هذا الصدد « ان الحمل الصغير يمرح ويلعب
قبل أن يذبح بدقيقة واحدة وربما لحس بلسانه اليد التي ستمد
لتريق دماؤه ، هكذا نحن لانعرف شيئاً مما ينتظرنا بعد لحظة
واحدة » ولهذا يقول الحكيم « قلب الحكماء في بيت النوح
وقلب الجهال في بيت الفرح » (جا ٧ : ٤)



الفصل الرابع عشر

في عبرة الابدية

« وايضاً جعل الابدية في قلوبهم التي بلاها لا يدرك الانسان العمل الذي يعمل الله من البداية الى النهاية » (جا ٣ : ١١)

حياة الانسان لا تنتهي بالموت بل تعقبه حياة ابدية كما صرح الرسول بولس قائلاً « لذلك نحترس ايضاً مستوطنين ككنا او متغربين ان نكون مرضيين عنده . لانه لا بد اننا جميعاً نظهر امام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً » (٢ كو ٥ : ٩ و ١٠) ولقد قال ايضاً احد الافاضل « انى كل مرة اتأمل في يوم الدينونة ارتعد مرتجفاً . ودائماً اسمع ذاك البوق الاخير صارخاً في أذنى وهاتفاً ايها الاموات قوموا واستعدوا للدينونة »

فاذاً يجب علينا ان نفكر دوماً في الابدية لان ذكرها يورث القديسين فرحاً وابتهاجاً والخطاة خوفاً وارتجافاً . وكلا الفريقين يحجى من هذا التأمل نفعاً بليغاً . فهلم بنا اذاً لتأمل في صورة الابدية ونمدق فيها ببصرنا حتى اذا كُنّا على صلاح زدنا فيه نشاطاً ونمواً واذا كُنّا على شر خشنا عاقبته وعدلنا عنه . قال القديس اوغسطينوس « ان كثر عليك التعب فاذاكر

الجزء « وكان احد المؤمنين يتشجع في ضيقاته لانه كان دائماً يقول
« انى اتعب لاجل السماء »

وزى في كلمة الله ان نبياً من انبياء العلي لما اهل ذكر الابدية
اوشك أن يزل ويستقط ولكن لما تذكر الابدية ثاب الى رشده
وادرك عظم خطئه . وهو آساف المرتل الذى غار من نجاح
الاشرار وتقدمهم وارتفاعهم وازدياد سرورهم فيما يكون أولاد
الله واقعين تحت مختلف الآلام فقال « فلما قصدت معرفة هذا اذا
هو تعب في عيني حتى دخلت مقدس الله وانتبهت الى آخرتهم .
حقاً في مزاق جعلتهم . اسقطهم الى البوار » (مز ١٦: ٧٣-١٨)
بل أن الفلاسفة الوثنيين انفسهم كانوا يرتجفون من تصور
الابدية ولما أرادوا ان يصوروها استعملوا رموزاً وتشابيه مخيفة
ومرعبة . فبعضهم صورها بصورة اشر الافاعي نوعاً أى الى
بمجرد فحيحها تقتل البشر . وصورها آخرون بصورة تنين مخيف
فاغرفاه على شفاء حفرة عميقة يرصد الناس ليلبتلعهم احياء . «
وغيرهم يصورون الابدية بصورة حفرة عميقة جداً لها عند
مدخلها أربع درجات . الدرجة الاولى من حديد والثانية من
نحاس والثالثة من فضة والرابعة من ذهب وعلى هذه الدرجات
اطفال وقوف يلعبون بلعب مختلفة وهم غافلون عن خطر السقوط
في هذه الهاوية . والمراد بذلك اظهار تفاقم جهل البشر فمنهم من
يتنزه ومنهم من يضحك ومنهم من يتعلق بمحبة خيرات العالم
وجواهره وهم غير ظانين انهم قد يمكن ان يلقوا دهوراً في جهنم

فيا أيها الاشقياء يامن تسرعون الى الهاوية بخطى واسعة
وانتم لا تدرون وتجرون الى الابدية باطمئنان وانتم لا تشعرون .
قفوا هنيهة قبل ما تهبطون في اعماق الابدية . فكروا فيها قليلا
« من منا يسكن في نار آكلة . من منا يسكن في وقائد ابدية »

(اش ٣٣ : ١٤) قل لنفسك ايها الجاهل الذي تخشى من حرارة
الشمس هل تستطيع ان تحمل اللهب الابدى ؟ ايها المرأة
المتنعمه يا من لا تحتملين أن توخذ يدك بارة هل تستطيعين الصبر
في تلك النار الابدية ؟ ايها الساعى وراء الذات يا من لا تقوى
على احتمال نفس جارك هل تقدر ان تبقى الى الابد بين جثث
الهالكين الكريهة في جهنم ؟ ليسأل كل متكبر وطماع وشهوانى
نفسه قائلاً « ايها النفس المتمردة العاصية التى احببت الاثم
واشتمت الخطية . ألا تعلمين أية مجازاة يجازيك الله بها ؟ انها
نار حامية ولهب مستعر . هل تطيقينهما ؟ اذا كنت لا تحتملين
المثول أمام يدى الله هنا لحظة لتندبى اثمك وشرك . فكيف
تستطيعين احتمال ذلك العذاب المريع ؟ »

فانظر أيها الانسان كيف تداوى سيرتك وتصلحها . ليس من
علاج أعظم تأثيراً من التفكير فى الابدية . فذكر الابدية هو
الذى جعل جميع القديسين يصمون آذانهم عن سماع الشر ويغلقون
أعينهم عن النظر للقبائح . ويسكتون ألسنتهم فلا تنطق بالمكر
والخداع . هو الذى حمل جميع الاتقياء على احتمال المكاره حباً
في الفضيلة . هو الذى جعل يوسف يؤثر الطرح في السجن على

العصيان . وهو الذي قوى الثلاثة الفتية على احتمال نار اتون
 نبوخذ نصر بدلا من احتمال نار غضب القدير . فكل القديسين
 كانوا يهزأون بآلام الحياة لانهم كانوا يعتقدون انها مهما عظمت
 فانها تنتهى بانتهاء العمر ولكنهم كانوا يخشون آلام الابدية
 التى لانهاية لها ولذلك فضلوا أن يعذبوا وقتاً بدلا من كل الاوقات
 وهذا ما هددت به القديسة دميانه العذراء أباهما عند ما أغراه
 القيصر ليسجد للاوثنان اذ قالت له « خير لك يا أبى ان تحتمل
 العذاب برهة وتموت شهيداً فتحيا مع المسيح الى الابد من أن
 تحيا وقتاً وثنياً فتموت مع الشيطان الى الابد »

أن آخاب الملك اذ سمع من ايليا النبي قوله « في المكان الذى
 لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك انت أيضاً »
 يقول الكتاب انه « شق ثيابه وجعل مسحاً على جسده وصام
 واضطجع بالمسح ومشى بسكوت » (١ مل ٢١ : ١٩ و ٢٧)
 فاذا كان الموت الوقتى الهين أزعج آخاب وأرعبه فماذا ينبغي
 أن يعمل من يسير بشره ليلقى به في جهنم الى الابد ؟ قال احد
 الافاضل « ما أكثر الذين يرضون بجهنم ولا يتنازلون عن عشرة
 رديئة أو عن عادة مذمومة »

لقد كان من عادات العصور الأولى عند تنصيب أحد خدام
 الدين انهم يحرقون أمامه قليلا من القطن وكان الغرض من هذه
 العادة ان يتذكر لهيب نار الابدية . فالطريق الى السماء وعرة
 المسلك وبابها ضيق وتجارها شديدة وابليس لا يفتأ يهجم على

المسافرين قصد الايقاع بهم . ولا ريب انه لا يقي الانسان من شر هذه الامور مثل ذكر الآخرة كما قال رب الجنود « اجعلوا قلبكم على طرقكم » (حج ١ : ٥)

قال القديس يوحنا فم الذهب « لان تأمل العذاب الابدى هو بمنزلة الدواء المر الذى ينقي النفس من كل الشرور والخبائث فاذا كنت متغافلاً فاذكر الحس العذارى الجاهلات اللاتى لم يأتين بزيت لمصاييحهن فسقطن . وان كنت مختلساً فاسمع سيدنا قائلاً « خذوه من يديه ورجليه واطرحوه فى الظلمة الخارجية هناك يكون البكاء وصرير الاسنان » وان كنت سكيراً اسمع ما يقوله الغنى لابراهيم « يا ابى ارحمنى وارسل لغازر ليليل طرف أصبعه بماء ويبرد لسانى لاني معذب فى هذا اللهب » وان صارتك الشهوة فافتكر فى اضطرام نار جهنم حتى يحمد اشتعالها فيك »

قيل ان ديونيسيوس الملك المعتصب اخترع من جملة انواع العذاب سجنًا بناه بصورة أذن فيه ثقب صغير كان يستطيع أن يسمع منه كلام المسجونين وصراخهم وتذمرهم . فليت لنا هذه الاذن لنسمع تأوهات الاشرار فى الجحيم وانينهم فى جهنم حتى نعلم كم تجلب الخطية من الويلات على مرتكبيها . ليتأمل محبو العالم كيف انهم ههنا يكرهون ملامسة أى شيء يؤلمهم أما فى الحياة الاخرى فيتراكم عليهم العذاب والالام بنير انقطاع . وهؤلاء الذين يهابون الموت الان يلتمسون هناك الموت فيهرب

منهم . اذا شعرت باحترق منزلك فانك تهرب خوفاً من النار ولا تقف . فان كان خوف العذاب الزمى مخيفاً هكذا فما بالك لا تهرب خوفاً من نار جهنم ؟ فلنتأمل في ذلك جيداً لان ذكر نار غضب القدير يلين قساوة القلب ويهدي المتمردين والعصاة

قال المرتل « تأديباً ادبني الرب والى الموت لم يسلمني »
(مز ١١٨ : ١٨) فكل ما يقاسيه الانسان هنا من الآلام يعتبر هيناً اذا نجا الانسان من الآلام الابدية . قال القديس اوغسطينوس « اضرب ههنا . اقطع ههنا لكي تغفر الى الابد . أبلنا بالفقر ههنا . ارسل لنا العار ههنا . اضعكنا بالامراض ههنا . احزننا واشقنا واتعبنا من البلياء ههنا لكي ترحمنا الى الابد »
لنردد في ذهننا هذا الكلام المريع (الابدية . الابدية .)
لنذكر انه توجد جهنم ولا نهاية لها وانه يوجد مجد ابدى ولا آخر له . الشمس اذ تغيب مساء لا يراها الانسان مع انها موجودة في مكان آخر . هكذا مجد الفضيلة ظاهر والناس لا تراه وشر الرذيلة واضح والقوم لا يبصرون . والموت يتقدم اليهم وهم لا يشاهدون وجههم تتحرك تحتهم لا بتلاعهم وهم لا يشعرون . لان الذي يعرف جيداً مجد الفضيلة ويشعر انه بعيد عنها وشر الرذيلة ويعرف انه متمسك بها يذوب خوفاً وحسرة . وهوذا احد المتأملين جيداً في ذلك يقول « من اجل ذلك ارتاع قدامه . اتأمل فارتعب منه » (اى ٢٣ : ١٥)

فياليت جميع الناس يطبعون صورة الابدية على مصاحف

قلوبهم لانهم لو فعلوا ذلك لرأينا في سيرتهم تحسناً سريعاً وفي
اعمالهم صلاحاً عجبياً وباليتمهم يجعلون صورتها بأزاء أعينهم على
الدوام وصوتها يرن في آذانهم طول الايام . قال بعضهم « أيتها
التصورات المخيفة . تصورات جهنم والدينونة . لا تبرحي من
أمام عقلي حين يجتهد العالم أن يغويني لكي أدنس سيرتي
بواسطة مكايده وحيله الباطلة . يا تصورات الدينونة وجهنم الهائلة
ارتسمي في اذهاننا ولا تزولي من صفحات ذاكرتنا لنستطيع
أن نعرف انتقام العدل الالهى وقيمة النعمة التى أماننا . يا جهنم .
يا جهنم . ان ذكرك وحده يرعبنا »

وكما انه فى ذكر جهنم وعذابها كل خوف للاشرار فى ذكر
السماء وأعجابها كل سعادة للابرار . وكما من قديسين عاشوا ولا
هذيلهم ليلاً ونهاراً الا ذكر فردوس النعيم الذى كانوا يحنون
اليه ويهيمنون به ويتوقون الى الوصول اليه . وكانوا يتسلون
بتصوره فى فكرهم حتى يتاح لهم ان يتطلعوا الى الحقيقة كما قال
الرسول يوحنا « ايها الاحباء نحن أولاد الله ولم يظهر بعد ماذا
سنكون . ولكن نعلم أنه اذا أظهر نكون مثله لاننا سنراه كما
هو » (١ يو ٣ : ٢)

ففى ذكر السماء أعظم تعزية للاتقياء المتغربين فى هذا العالم
وهو الذى يجعلهم يزدرون بكل ما فيه من المشتبهات الحقيرة .
فاذا ما دهمتهم الآلام والاحزان يذكرون أفراح مدينتهم السماوية

وإذا لبست الدنيا أحسن زينتها قالوا أين هذا المنظر الشنيع من جمال بيت أئبنا الذى لا يقوى على وصفه لسان ويهتفون بلسان داود النبى قائلين « ان نسيك يا أورشليم تنسى يمينى . ليلتصق لسانى بجنكى ان لم اذكرك ان لم أفضل أورشليم على أعظم فرحى » (مز ١٣٧ : ٦٥٥)

فما بالناس نحن اذاً نأخذ فى التحدث عما فى العالم من جمال حقير ومجد باطل وننسى أن نلهج بمحاسن مدينة الله العلى اورشليم السمائية . لماذا لا تذكرنا بلايا هذه الحياة بسعادة السماء ؟ لماذا لا تذكرنا مخاوف الدنيا بأمان الملكوت ؟ لماذا لا تذكرنا احزان العالم بافراح النعيم ؟ لماذا لا نرفع عيوننا الى السماء وتطلع فى ذلك المجد الأبدى ؟ ان نفوسنا تميل بنا الى التأمل فى مجد الارض دون مجد السماء . فعلينا اذن أن نصادر أميالننا اذا انحرفت بنا الى التأمل فى الارض ونسر منها اذا رأيناها تنزع بنا الى السماء . فلا يليق بمن خلقوا على صورة الله أن يطلبوا السرور من الامور الفانية بل لنجعل موضوع سرورنا اشتهاى الالجاد الابدية .

ومن لا يسر اذا شعر انه لاجله قد أعدت افراح سرمدية وسعادة خالدة فاذا تأملت فى هذا أخذك الميل الى الشوق والشوق يولد فيك العمل لتحصيل ذلك المجدحتى تقول مع القديس اوغسطينوس « يا أورشليم يا بيت الله السرمدي انت بعد الله بهجتنا وتعزيتنا وسلوتنا . لان ذكر اسمك العذب يخفف حزننا ويلطف عذابنا »

وتقول معه أيضاً « ملكنى ذاتك ايها الخير السامى الذي لا خير
سواه واسعدنى بك يا ينبوع السعادة الكاملة . روحى تتوق اليك
جداً ولذلك هى حقاً ذابلة حتى ابلغ اليك يا حياىى المحبوب . فعلام
تمنى عنى وجهك . أملكك تقول « لا يرانى بشر ويعيش » امتنى
يارب وابصرى . دعنى اراك واموت عن العالم »

الفصل الخامس عشر

فى انتقال الصالح

« ايضاً اذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شراً لانك
انت معى » (مز ٢٣ : ٤)

قد دخل مخلصنا القبر ولكن لم يمكث فيه بل جاوزه . ان
الناس كانوا يرون القبر سجيناً أبدياً وانه مدخل مظلم لا خروج
منه ولكن يسوع جعله مجازاً للمفدين من هذه الدار الى ملكوت
السماء . فالموت والقبر بعد قيامة المسيح غير الموت والقبر قبلها .
والانسان الذى يصبر الى المنتهى ثابتاً فى الايمان والتقوى ينال
الحياة الابدية « ولكن الذى يصبر الى المنتهى فهذا يخلص »
(مت ٢٤ : ١٣) وقال الرسول يوحنا « وهذه هى الغلبة التى تغلب
العالم ايماننا » (١ يو ٥ : ٤) فحياة المؤمن هنا مفعة بالرجاء
والاتكال على الله . فهو به مكتف وعليه يستند حتى الى الموت
يصيح قائلاً « فدى نفسى من العبور الى الحفرة فترى حياىى

النور» (اى ٣٣ : ٢٨) ويقول ايضا « لان الله هذا هو الهنا الى الدهر والابد . هو يبدينا حتى الى الموت » (مز ٤٨ : ١٤) هذا المؤمن يضطجع على فراش الموت منتظراً الساعة التى فيها ينتهى أجله مملوءاً تعزية لا يخشى موتاً ولا دينونة اذ لا سلطان لها عليه كما قال السيد له المجد « من يسمع كلامى ويؤمن بلدى ارسلنى فله حياة ابدية ولا يأتى الى الدينونة بل قد انتقل من الموت الى الحياة » (يو ٥ : ٢٤) وكما قال الحكيم « فى سبيل البر حياة وفى طريق مسلكه لا موت » (ام ١٢ : ٢٨)

معلوم ان الموت هو ألد أعداء البشر والرسول بولس يدعو « آخر عدو يبطل » ولكنه هو نفسه يهتف به قائلاً « اين شوكتك ياموت » (١ كو ١٥ : ٢٦ و ٥٥) وذلك لان الموت عدو لقوم وحبيب لآخرين . عدو للخاطيء وحبيب للثنى والحكيم يقول « مخافة الرب ينبوع حياة للحيدان عن اشراك الموت » (ام ١٤ : ٢٧) . فما اسعد الذين يموتون فى حال البر والقداسة فهؤلاء قد نالوا الطوبى والغبطة كقول الكتاب « وسمعت صوتاً فى السماء قائلاً لي اكتب طوبى للاموات الذين يموتون فى الرب منذ الآن . نعم يقول الروح لكى يستريحوا من أتعابهم . وأعمالهم تتبعهم » (رؤ ١٤ : ١٣)

ان ذلك النبى الذى أرسله الله الى يربعام امره ان لا يقبل ضيافة أحد ولا يأكل ولا يشرب عند أحد بته ولا يدخل بيتاً اصلاً ولكنه اذ خالف الرب هجم عليه اسد عند عودته وقتله

غير أن الاسد لم يجسر أن يأكله أو يمزقه بل جلس فوق جثته يجرسها من بقية الوحوش الى ان أقبل عليها أشخاص حملوها ودفنوها (١ مل ١٣) هكذا الموت يسمح له الله ان يقترب منا ويأخذنا ولكن لا يعذبنا بل يحملنا بسلام الى أماكن الراحة لهذا نجد الابرار اذا سمعت نفوسهم الدعوة الى مفارقة اجسادهم لبوا النداء بسرور وسامحوا مبهجين وهم يقولون « لانك نجيت نفسى من الموت . نعم ورجلى من الزلق لكى اسير قدام الله في نور الاحياء » (مر ٥٦ : ١٣)

فلا يوجد حينئذ شىء يحزن اولاد الله . لا يكدرهم ترك خيرات العالم لانهم لم يضعوا قلوبهم عليها ، ولا تقلقهم مفارقة الملمات الجسدية لانهم لم يتعلقوا بها . ولا يؤلمهم اهمال الامجاد والعظمة لانهم لم ينشغلوا بها فهم يسامون فى كل شىء بفرح عالمين ان لهم مالا افضل فى السموات وباقياً (عب ١٠ : ٣٤) ولذلك لم يحبوا حياتهم حتى الموت (رؤ ١٢ : ١١)

نعم قد تلاً لآت للمؤمن الدنيا بزخرفها ونعيمها ولكنه لم ينخدع بها واخذ هذا التلاؤ يتضاءل أمام عينيه وأبتدأ جسمه البالى الذى حاربته نفسه وقهرت شهواته على الدوام ان ينحل فيتمزى عزاء ابدياً .

بل ان المؤمن المشرف على الموت اذا رأى اهله حوله باكين يشجعهم ويحثهم على سلوك سبيل الصلاح الذى ينجى من الموت . فابراهيم واسحق ويعقوب حين دنو موتهم

وشعورهم به لم يرتعّبوا بل كانوا يستحضرون اولادهم
 وباركونهم ويظهرون كأَنهم لم يكونوا يتوقعون شيئاً جديداً
 يحل بهم . ويوسف وهو في النزع قال لاختوته بثبات « انا أموت
 ولكن الله سيفتقدكم ويصعدكم من هذه الارض » (تك ٥٠ : ٢٤)
 وموسى حين اخبره الله انه سيموت لم يخف بل اوصى اسرائيل
 بوصية الرب ووصف الله بقوله « ان جميع سبله عدل . إله امانة لا
 جور فيه صديق وعادل هو » (تث ٣٢ : ٤) وداود حين انت منيته
 اوصى ابنه سليمان بحفظ وصايا الرب وقال له « انا ذاهب في
 طريق الارض كلها » (١ مل ٢ : ٢) وبولس الرسول حين شعر
 بدنو ارتحاله قال لتيموثاوس « فاني انا الآن اسكب سكباً ووقت
 انحلالى قد حضر » (٢ تي ٤ : ٦) وبطرس الرسول يتكلم عن
 نفسه بلا وجل قائلاً « عالمًا ان خلع مسكنى قريب كما اعلن لى
 ربنا يسوع المسيح ايضاً » (٢ بط ١ : ١٤)

فهناك يضع المؤمن يده في يد ابراهيم واسحق ويعقوب
 وينظر وجه بولس الرسول ويقف مع بطرس ويجلس في الحقول
 المخصصة مع موسى وداود ويصلى في نور شمس النعيم مع
 يوحنا والمجدلية . فيا لها من غبطة عظيمة

أجل . يشعر المؤمن هنا انه سيخسر ممتلكاته وكل ثروته
 ولكنه لا يحزن لانه يكون مشغولاً بالتفكير في ما سيربح في
 السماء . يفكر في المدينة العظيمة التي لها الاساسات التي صانها
 وبارئها الله . يفكر في المساكن الازلية التي لا يصح أن تقابل بها

اعظم قصور ملوك الأرض . يفكر بالخيرات السماوية التي تشبع
شبعاً ابدياً وتسلأه اكتفاء لم يشعر بجزء منه لو امتلك كل
الأرض هنا

فما أعظم راحة المؤمن وهو على فراش الموت وما أسمى هدوء
باله وسكون خاطره وضميره لا يقلقه شيء لان خطاياهم قد غفرت
له وقلبه اشترك بنعمة الله وصليب المسيح . فهو يشتهي حينئذ
أن يظهر محبته الا كخدمة ليسوع بشدة . ذلك المخلص الذي كان
ذكره في قلبه مدة حياته . ذلك المخلص الذي عليه ألقى اتكاله
وهو الآن رجاؤه ومعتمده الوحيد فله قد عاش وله الآن
ينتمقل . وتظهر على وجه المؤمن لوائح السلام الداخلي والتعزية
الالهية وهو يهتف قائلاً « ان عشنا فللرب نعيش وان متنا فللرب
نموت ان عشنا وان متنا فللرب نحن » (رو ١٤ : ٨) ويصيح
أيضاً « جعلت الرب امامي في كل حين لانه عن يميني فلا اتزعزع .
لذلك فرح قلبي وابتهجت روحى . جسدى ايضاً يسكن مطمئناً .
لانك لن تترك نفسى فى الهاوية . لن تدع تقيك يرى فساداً تعرفى
سبيل الحياة . امامك شبع سرور وفي يمينك نعم الى الأبد »
(مز ١٦ : ٨ — ١١)

قال احدهم « ان كثيرين من القديسين كانوا فى اثناء عذابهم
مبتهجين وما سبب ذلك الا أن النفس كانت تزداد قوة كلما كان
الجسد يزداد ضعفاً . وقوة الروح كانت تقوى ايمانهم ، وقطرة

واحدة من النعمة الالهية التي كانت انفسهم مرتوية بها كانت تسكرهم وتختطفهم عن الحواس «

وهكذا جميع القديسين في كل العصور لا تستطيع المخاوف التي تتجمع عند الموت ان ترعجهم واذا رأى المؤمن ما يؤلمه منها فانه يرفع عقله ويتفرس به فيجد مخلصه مصلوباً فيخجل ويتشدد عزمه ويخاطب سيده قائلاً « لقد تألمت قبلي يا مخلصي وقد تألمت اكثر مني بما لاحد له » وقد قال الانبا موسى اسقف اوسيم عند ما قام ليدافع عن المسيحيين أمام مضطهديهم وحاول المؤمنون ان يمنعوه « انى لا أستحق أن أسفك دمي الدنس من أجل من سفك من اجلي دمه الطاهر »

وكيف يشعر المؤمن بألم ورغبته في مشاهدة مخلصه تنسيه جميع الآلام وهوذا المخلص يقول عن الاتقياء « من يد الهاوية افيدهم من الموت اخلصهم . اين أوباؤك ياموت اين شوكتك يهاوية » (هو ١٣ : ١٤) حينئذ تكون عينا البار مرفوعتين الى السماء تشيران الى ان قلبه وأمياله المقدسة تتوق الى الوصول الى ذلك المكان والحصول على تلك السعادة والتطلع الى الابدية قال أحد الافاضل « أن التأمل في الماضي والحاضر والمستقبل كل هذا يملأ قلب الصالح فرحاً وسلواناً فهو ينظر الى الماضي فيجد انه قد استراح والى الحاضر فيرى فيه كل ما يسره يفرح بقرب تركه شقاء العالم . يفرح بقرب دخوله باب السماء وما أحلى ذكر المستقبل عنده لانه يرجو أن يجتمع باله الذي أحبه دون أن يراه كقول

الرسول بطرس « الذى وان لم تروه تحبونه » (١ بط ١ : ٨)
 فمن يستطيع أن يصف مقدار فرح الانسان الصالح وقت
 الموت عند ما يعلم أن ساعة جهاده وتجاربه قد انتهت . ان السلام
 الذى يملأ قلوب المؤمنين حال موتهم يجعل فراشهم وثيرة لينة
 كريش النعام . فلا يمكن أن تشاهد في الاعراس ولا في ولائم
 الاعياد ولا بين الذين ادركوا ساعة النجاح أناساً مبتهجين مثل
 المرضى المؤمنين . أن سلام الله الذى يفوق كل عقل يحفظ
 قلوبهم واذهاهم

وعند ورود ساعة الموت يتلى المؤمن فرحاً وهو يقول يا ابتاه
 فى يدك استردع روحي » (لو ٢٣ : ٤٦) وملاك الرب يستلم
 روحه ليحملها الى الافراح الابدية أمام عرش الله والخروف .
 فما ابرح وما أسعد نهاية ذلك الانسان الذى استحق أن يرى
 المسيح وجهاً لوجه كما هو ويشترك معه فى المجد والقداسة مشابهاً له
 فى ذلك ويشكره لانه يرفعه مع ابواب الموت (مز ٩ : ١٢)
 فمن يستطيع ان يتصور تلك الحالة السعيدة بل ويتصور أقل جزء
 من بهجتها .

تلك هي نهاية المؤمن الذى جاهد وغلب الذى احتمل الضيق
 والآلام بصبر غير ناظر الا الى رئيس الايمان ومكمله يسوع
 (عب ١٢ : ٢) والآن قد انضم الى زمرة الابرار ليتمتع بحياة
 سعيدة لا يعقبها موت ولا تعب وهو يرغم بترنيمات صهيونية
 بدون انقطاع ولا ملل حتى صار يحق لنا أن نهتف مع القائل

«لتمت نفسى موت الابرار ولتكن آخرتى كما خرتهم» (عد ٢٣: ١٠)
 كيف لا والكتاب يصف راحتهم قائلاً «وسمعت صوتاً
 عظيماً من السماء قائلاً هوذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم
 وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون معهم الها لهم . وسيمسح
 الله كل دموعهم من عيونهم والموت لا يكون في ما بعد ولا يكون
 حزن ولا صراخ ولا وجع في ما بعد لان الامور الاولى قد مضت»
 (رؤ ٢١: ٤ و ٣)

ان المرأة الجميلة لا تشعر بجمالها أو تترهب بشهادة الناس
 لها ولكن سرورها يعظم اذا شاهدت جمالها في المرأة هكذا
 المؤمن لا يمكن ان يسر بامانه وفضيلته اذا مدحها الناس وشهدت
 لها الالسنه بقدر ما يرى نفسه في مرآة الموت الصافية . فما أجمل
 ابتهاج نفسه في ذلك الحين . ومهما كشف الانسان عند الموت من
 سعادة أبدية ومجد خالد وميراث لا يفنى فلا يسره ذلك بمقدار علمه
 ان نفسه مطهرة وأنها عاشت عيشة ترضى الله

ان الزارع الذى يبذر حنطته لا يفرح الا اذا رآها قد
 ماتت لأن موتها يسبق أو ان ظهورها مشعرة هكذا الصديق لا
 يحيا ان لم يميت (١ كو ١٥ : ٣٦) فللمؤمن اذاً أن يصرخ ليلاً
 ونهاراً قائلاً « ليأت ملكوتك » (لو ١١ : ٢) فكيف يطيق
 البقاء في سجن الارض وكيف لا يشتاق أن ينطلق الى حضرة إلهه
 ومن ذا الذى يذهب كارهاً الى أخذ أجرته بعد التعب او الى

الحصول على اكليل الظفر وصولاً إلى الفخار بعد ان ينتهي من
المعركة بالانتصار

قال القديس كبريانوس « انه اذا كان انسان ما قاطناً في بيت
جدران مائلة للسقوط وطبقاته مزعزعة الاركان ويشعر أنه ما دام
في هذا البيت فهو تحت خطر الموت فكم تكون أشواقه عظيمة
للخروج منه والابتعاد عنه . هكذا كل الاشياء في هذه الحياة
تهددنا بالخراب الروحى والمؤمن الحقيقى الذى ينشئ من السقوط
في حزنه يشتهي بكليته أن يخرج منها فائزاً بخلص نفسه » ولذلك
يقول الملاك لدانيال اذ أخذ يسأله عن امور « أما أنت فاذهب الى
النهاية فتستريح . وتقوم لقرعتك في نهاية الايام » (دا ١٢ : ١٣)
اننا نرفع أعيننا ونشاهد أشياء كثيرة خلقها الله ولكن
لا نعرف علمها أو مصادرها والرسول بولس يقول « لاننا نعلم
بعض العلم ونتنبأ بعض التنبؤ ولكن متى جاء الكامل فينبئ
يبطل ما هو بعضه » (١ كو ١٣ : ٩ و ١٠) فعلمنا البسيط بما نرى
من شأنه ان يزيد اضطراب اشواقنا دون أن يشبعها من المعرفة
فكم يكون سرورنا حينما نرحل من هذه الحياة الدنيا ونفتح عيوننا
ونرى كل شيء وحصل في لحظة من الزمان على كل حكمة وعلم
ومعرفة نسمو بها على كل العلماء الذين ظهروا في الدنيا . روى
أن فيلسوفاً حكم عليه بالموت ففرح لانه قال « عن قريب أطلع
على حقيقة مستقبل النفس » فاذا كان علم حقيقة واحدة حجب
الموت لذلك الفيلسوف فكم يود المؤمن اذاً أن ينتقل ليشاهد

ما لم ترعين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال انسان (١ كو ٢ : ٩)
 كيف لا يجب المؤمن الانتقال وهو يعلم انه سيشاهد الله
 تعالى . وما دمنا نؤمن ان الله تعالى الممجد المخوف ينتظرنا
 ليكشف لنا وجهه الكريم ويشركنا في افراحه ويمتعنا بامتلاك
 كنوزه السماوية فكيف نطلب أن تتأخر في هذه الحياة ؟
 ان موسى النبي انتهى ان يرى الله قائلا « ارني مجدك » فاجابه
 الله قائلا « لا تقدر ان ترى وجهي لان الانسان لا يراني ويعيش »
 (خر ٣٣ : ١٨ و ٢٠) قال القديس أوغسطينوس « لماذا امسك
 عن ان اقول « امتنى يارب وأراك » ان خسارة كل ما أرى في
 العالم ليس بالشيء امام رؤيتك فلتغمض عيناي عن رؤية كل شيء
 زائل . أودعك ايها الغابات والبساتين والاودية والجبال والبحار
 والينابيع والانهار لاني لست ابالي بعدم رؤية محاسنك لأرى من
 ابدعك وأعطاك هذه المحاسن . لا اطلب أحداً سواك يارب »

فنعمة عظيمة من الله أن ينقذ نفوس الاتقياء من شرور
 هذا العالم الحاضر . ورحمة منه لا يعرف قرارها ان يجعل تلك
 النفس في حضرته المقدسة . قال القديس يوحنا فم الذهب « انه
 لو اتفق أن ملكاً أعد لأنسان ما مسكناً جليلاً داخل قصور
 بلاطه الملوكي ولكنه قبل ان يسكنه فيه اسكنه في كوخ حقير
 فكم تكون اشواقه عظيمة الى الخروج من هذا الكوخ لكي
 يذهب ويقيم في ذلك القصر المنيف . والنفس انما تكون داخل

جسدها في هذا العالم كسجين فيه ولا يمكنها ان تخرج منه الا
بالموت لتنتقل الى بلاط الملك السماوى »

فهيا ايها المؤمن اصعد على أجنحة الرياح الى مقر راحتك .
الهك ينتظرك . الملائكة تستعد لاستقبالك . باب السماء مفتوح
امامك : القديسون الذين سبقوك ينتظرون قدومك اليهم . فمن
منا لا يقول اذاً مع حبقوق « الرب السيد قوتي ويجعل قدمى
كالايائل ويمشيني على مرتفعاتى » (حب ٣ : ١٩)

اسمعوا البار يرم في تابوته قائلاً « اودعك يا شمس الحياة لان
الرب سيكون نورى وحياتى الى الابد . اودعك ايتها الانعام
المطربة لانى اسمع هتاف المجددين فى السماء . اودعك يا فرح
العالم لان يسوع هو فرحى وسلامى . امسحوا دموعكم لا
تبكوا على . دقوا نغمة الفرح وابطلوا نغمة الحزن . صفقوا
بايديكم . أتبكون على رأس توجها الله باكيل المجد وعلى يد تمسك
قيثارات الذهب وعلى قلب اغتسل من الخطيئة ورقص طرباً
وعلى واحد صار فى حضن الخلص . أتبكون على فقير لبس ثوب
الغنى وسقيم صار صحيحاً ومحتقر أخذ مجداً سرمدياً »

لهذا نسمع آساف النبى يصرخ قائلاً « برأيك تهدينى وبعد
الى مجد تأخذنى . من لى فى السماء . ومعك لا أريد شيئاً فى
الارض » (مز ٧٣ : ٥٤) وسمعان الشيخ يقول « الآن
تطلق عبدك ياسيد حسب قولك بسلام . لان عينى قد ابصرتا

« خلاصك » (لو ٢ : ٢٩ و ٣٠) وبولس الرسول يقول « لى اشتها ان
انطلق وأكون مع المسيح ذاك افضل جداً » (فى ١ : ٢٣)
وقد سمعنا عن اتقياء كثيرين صرحوا عند موتهم بانهم
مسرورون وان سعادتهم فى انتقامهم من هذا العالم : روى
عن شيخ تقي انه عندما شعر بدنو أجله جمع اولاده وحفدته
حول سريره وفى الدقائق الاخيرة من حياته تناوم وأخذ يتبسم
ثلاث مرات وعيناه مغمضتان فلما فتحهما سأله واحد من اولاده
عن سبب تبسمه المكرر ثلاث مرات أجاب الشيخ الورع « فى
اول مرة خطر ببالى كل الملذات التى تمتعت بها طول عمرى فلم
اقدر ان امنع ذاتى عن ان اتبسم ضاحكاً على عمى اولئك الذين
يعتبرون تلك الاشياء ذات قيمة مع كونها تشبه فقاقيع الصابون .
وفى ثانى مرة تذكرت كل ما نزل بى مدة حياتى من البلايا والهموم
ففرحت لدنو الساعة التى تذهب عنى فيها اشواك تلك الشدائد
وابداً فى قطف وردھا . وفى ثالث مرة عندما امعنت النظر فى
الموت لم استطع ان امنع نفسى عن الابتسام لافتكارى فى الهول
الذى يلقيه على الناس هذا الملاك المرسل من الله ليكن يضع حداً
لآلامهم ويقودهم الى مقر الراحة والسرور الابدى »

جاء عن القديس اغناطيوس انه اقتيد من سوريّة الى رومية
ليلقى فريسة للوحوش الكاسرة فخشي ان ترفق به الوحوش كما
ترأفت بغيره من القديسين وان لا تمسه وقاراً . فقال « ليت

الوحوش تزداد همماً فان اسنانها ليست الا كرحن فانها ان طحنت
 التقمح لا تقنيه بل تصيره دقيقاً . فلتسحقنى فأصير قرصاً نقياً معداً
 للسماء » وقيل عن القديس بوليكر بوس تلميذ يوحنا الرسول انه
 حينما وضعوه في نار الاستشهاد ربطوه بوتد فقال لهم « دعونى
 من هذا الوثاق فان من وهبى قوة على الاتيان الى النار يعطينى
 صبراً على احتمال الالهيب »

والقديس كبريانوس لما سمع حكم القضاء عليه بالموت قال
 « اشكر الله لتحريره اياى من هذا الجسد » وجاء عن القديس
 باسيليوس ان الامبراطور فالنص أرسل اليه قواده طالباً منه الرجوع
 عن الايمان ليولى المناصب ويصله بالخيرات فرفض ذلك وهزأ بهم
 قائلاً « هبوا ما تعدونى به الاولاد » فلما هدده بالعذاب قال لهم
 « هددوا اعيانكم الالبسين حبل الارجوان المستعبدين لشهواتهم »
 ثم هدده موديسمتوس الوالى بالاستيلاء على املاكه وبالعذاب
 والنفى والقتل فقال « لا يخشى فقد المال من لا يملك شيئاً ولا الغنى
 من يحسب السماء وطنه الحقيقى ولا العذاب من يسلم الروح
 بضربة واحدة ولا الموت من يرى انه الطريق الوحيد الى حضرة
 الله » فقال له الوالى انك تحتل العقل فاجابه « ارجو ان ابقى الى
 الابد محتلاً هكذا »

وهذه آخر كلمات القديس انطونيوس لتلميذه « ادفناني
 تحت الارض ولا تعرف أحداً موضع لحدي حتى اذا جاء يوم

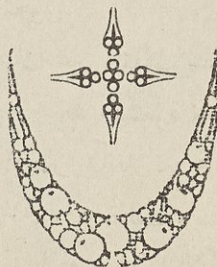
القيامة اقتبل هذا الجسد من يد يسوع المسيح بكر القيامة خالياً من الفساد « وقال القديس باخوميوس لتلاميذه قبل موته « اننى اشاهد يا اولادى الاعزاء ان الله عن قريب يريد ان يدعونى اليه . أما انا فمن دون خوف اقتبل نحو الموت لانى واثق بصلاح الله غير المتناهي »

وقال القديس يوحنا فم الذهب فى رسالة له ارسلها من منفاه الذى نفته اليه الملكة اودكسيا « انى لما خرجت من المدينة ما عدت افكر فى شيء انما اخذت احدث نفسى هكذا . ان نفتنى الملكة . فالارض بكاملها للرب وان احبت أن تنشرنى فقد نشر اشعياء من قبلى وان ارادت أن تلقينى فى البحر فلا ذكر يونان وان شئت أن ترجمنى فى اسوة باستفانوس اول الشهداء وان رامت أن تقطع رأسى فأكون رفيقاً ليوحنا المعمدان . وان آثرت ان تغتصب مالى فعرياناً خرجت من بطى ابنى وعرياناً اعود الى هناك وكانت آخر كلمة لهذا القديس قبل ان يلفظ النفس الاخير « اشكر الله على كل شيء »

وورد فى سيرة أحد الآباء الناسكين فى برية الاسقيط « انه عند موته اجتمع حوله اصحابه وصاروا يبكون اما هو فكان مسروراً ولما سئل عن سبب ذلك اجاب قائلاً « لماذا تبكون مع كونكم تشاهدونى منطلقاً من الاتعاب والشقاء الى مقر النعيم والراحة » وجاء فى اخبار القديسين ان صياداً أوجد احد السائحين يرتل فى حالة احتضاره ترتيلاً شجياً بنعمة مطربة فاقرب منه

الصيد وقال له « كيف ان رجلاً مثلك في ساعة الموت وفي حال
الذل والتعاسة يرغم مثل هذا الترنيم فاجابه السائح « اعلم يا أخي
ان ليس بيني وبين اهلبي سوى هذا الحائط (وأشار الى جسده)
فكلما اراه مائلاً الى السقوط اعلم انه قد دنا وقت اقترابي من آلهي
وتركي زمن غربتي وذهابي عند الرب إلهي لأتمتع به »

وقال آخر وهو يموت « يا موت انت اخر اشواقى لاني بك
اكون مع المسيح الهى الذى احببى » وسئل غيره اى شىء تحتاج ؟
فقال « السماء » وقال آخر « عندما تسمعون انى مت لا تصدقوا
هذا الخبر لانه لا يعتبر قد مات من سيعيا حياة افضل . سأكون
في محل ارقى . سأخرج من خيمة هذا الجسد الترابى العتيقة وادخل
البيت الابدى . سألبس جسداً لا يدانيه الموت ولا تلامسه الخطية .
جسداً مثل جسد مخلصنا الصالح . المولود من الروح لا يموت » قال
احد القديسين « ينبغى ان نسمى يوم موت الابرار بيوم ولادتهم
لان فى هذا اليوم يولدون ولادة جديدة حياة لا يعقبها موت »



الفصل السادس عشر

في موت الأثيم

« اعطوا الرب إلهكم مجداً قبل ان يجعل ظلاماً وقبلما تعثر
ارجلكم على جبال العتمة فتنتظرون نوراً فيجعله ظل موت ويجعله
ظلاماً دامساً » (ار ١٣ : ١٦)

ان السواد الاعظم من الناس يرتجفون رعباً ويستولى عليهم
الفرع والاضطراب عند سماعهم ذكر الموت ولا سيما عند دنوه
منهم لانهم يعلمون بانه الطريق الذى يقضي بهم الى الدينونة الابدية
وان الانطلاق من هذا العالم يقودهم الى تحمل العقاب عما جنت
ايديهم من الشرور التى لم يتوبوا عنها والى نوال العذاب جزاء
لما ارتكبوه من المآثم والخطايا التى لم يغسلوا انفسهم من اقذارها.
فهؤلاء يرومون أن يدوموا في ظلمة هذه الحياة مهما كانت
دامسة هرباً من انكشاف امرهم وانتفاض حكم الله عليهم
ولكنهم يحاولون المستحيل

لهذا ترى الانسان غير التائب ينطرح على فراش موته
متوجعاً متألماً وروحه ترتعد مقشعة مملوءة خوفاً وانزعاجاً من
الموت وما يعقبه : تراه متروكاً بلا تعزية ولا معونة لانه لم يؤمن
بالله ولم يعرفه وقد انكره وخالف وصاياه . ان الموت حرب
شديدة لا يقوى على الدخول في ميدانها الا كل جندي عاش متسلحاً

بالفضائل . فالخاطيء الذي لم يتورع عن ارتكاب الاثم يحس برارة العذاب ويرى الموت كأسمرة لا بدله من ارتشافها وتشتد الوطأة عليه في كل يوم وتضطرب في كل دقيقة جميع حواسه ولا يشعر براحة ولا هدوء ولا يدرى أين يتوجه ولا ممن يلتمس العلاج لدائه . واذا تحركت فيه الندامة يحاول ان يهملها لانه يريد ان يصور نفسه لنفسه بصورة صالحة

ها الموت واقف أمامه يهدده بأخذ روحه في الحال وينذره بانه سيزيل عنه كل الافراح والمجده والممذات وكل ما في العالم . فينظر بارتباك الى ما حوله فلا يرى الا ما يوجنه من الخارج وما يبكته من الداخل وهو اذ ذاك لا يسمع شيئاً ولا يقدر ان يستفيد من احد لان قلبه قد تصلب من زمن مديد بفعل الآثام التي داوم ارتكابها بعناد شديد . فيفتش في صحيفة حياته لعله يجد شيئاً يستر به نفسه العارية من الفضائل فلا يزيده هذا التفكير الا خوفاً وانزعاجاً كما قال الكتاب « نعم نور الاشرار ينطفئ ولا يضيء لهيب ناره . النور يظلم في خيمته وسراجة فوقه ينطفئ » (اى ١٨ : ٥ - ٧)

قال احد الافاضل « ان التفكير في كل من الماضي والحاضر والمستقبل يلقي الرعب في قلب المحتضر الشرير فانه يجد في الماضي بطلان سعيه وراء لذاته . ويرى رداءة سلوكه وكثرة ما ارتكب من القبائح فيتحسر على ما فرط ولات ساعة تحسّر ويرى في الحاضر ما يحيره حيرة غريبة . يرى الفراق محيطاً به .

فراق الاهل والاحباء . فراق الميزات والشهوات . فراق نفسه من جسده . وينظر الى المستقبل فلا يرى الا الله في أعلى السماء قاضياً عادلاً سريعاً مهيباً ونمت قدميه نار غضب لا تنطفئ »

فإذا يعمل الخطيء حينئذ وماذا يرى الا كل ما يملأه جزعاً والتباعاً وبمن يستغيث ويستجير . أبالجد الذي احبه وهو الا ان يفارقه ؟ أم باهله وهم عاجزون عن انقاذه ؟ أم بالاله الذي يعتقد انه عدوله ؟ أجل . يتقلب الخطيء على نراش مرضه ضحية لأشد الاضطرابات والخاوف . يحاول ان يهرب ولا يستطيع . يخرج من أعماق نفسه أحر التأوهات الى لا ندري ان كانت عن ندامة أم عن يأس من رحمة الله ، واذا لاحت أمامه صورة يسوع الذي صلب لاجله زاد انزعاجه واشتد هلمعه فتشخص عيناه وينفتح منه ذلك القم الذي علته غبرة الموت ويرتجف بدنه وتغادر تلك النفس التعيسة جسده الترابي لتنال عقاب ما جنت . قال الحكيم « عند موت انسان شرير يهلك رجاءه ومنتظر الاثمة يبيد »

(ام ١١ : ٧)

فأى هدوء يجده أولئك الراحلون من هذا العالم وهم مثقلون بالذنوب والخطايا وأى سلام يجد مكاناً في قلوبهم المملوءة من كل رجس ودنس . وكيف يستريحون من قلق الضمير وهم يتأكدون ان امامهم عقاباً شديداً وعذاباً مريعاً وانهم سيحاسبون حساباً عسيراً أمام يسوع المسيح القاضي العادل . ذلك الاله الذي عاندوه لاخر نسمة من حياتهم والذي احتقروه حتى دنت نهايتهم .

كيف يستريح ذلك الضمير الذي كان ولم يزل في نومه أما الآن فقد استفاق من غفلته بقوة عظيمة لأن الخوف من جهنم قد ايقظه فراها فاحمها لأبتلاعه الى ابد الدهور . قال الكتاب عن الشرير «صوت رعوب في اذنيه في ساعة سلام يأتيه الخرب» (اي ١٥ : ٢١)

ضمير الانسان لا يستيقظ ولا يتنبه الا اذا ايقظته شوكة الموت فيبتدىء يذكر سيئاته التي نسيها . فيقول الآن اذكر اني اهلكت العبادة . الآن اذكر اني اهتممت بالفقر . الآن اذكر اني سعيت وراء الملذات . الآن اذكر اني كنت اترك كل ما يختص بالله لأنهم كل ما تطلبه مني ميولى الرديئة

أجل . حينذاك يتصور الخاطيء ان كل ما حوله يوبخه ويهدده بما يحل به من العقاب واذ ذاك سله ماذا يقول عن مجده وغروره ؟ فأين اذاً الخيرات التي نسي نفسه لاجل جمعها . انا اؤكد انه يهبها جميعها لمن يستطيع ان يريجه من ذلك القلق الذي لا يطاق والكن والأسفاه فان ثروة العالم كلها لا تشفع فيه . قال الكتاب « تائه هو لاجل الخبز حينما يجده ويعلم ان يوم الظلمة مهياً بين يديه » (اي ١٥ : ٢٣)

قال القديس اوغسطينوس « ستفارقه الخيرات الارضية التي احبها وتصبحه الخطايا التي قد فعلها . فيا ايها الجاهلاء يا من اخطأتم بتكمير اموالكم التي جمعتموها بالوسائل المحرمة ستزع منكم تلك الاموال انزعاً وسيرافقكم ما ارتكبتم في سبيل حبها من المعاصي

ولن تعودوا فيما بعد تتمتعون بمشاهدة الاشخاص الذين كانت
قلوبكم يحبهم المحرم بل سيمكث معكم عوضاً عن ذلك ألم وندم
وانزعاج لما فرط منكم من المآثم والمنكرات»

ومما يزيد رعب الخاطيء حال موته تعلق قلبه بالخيرات التي له
فالموت هو الحد الفاصل بينه وبين اولاده واهله واصحابه وملذاته .
انه حينئذ لا يسهه الا ان يصرخ «ما امر الموت» ولم يكون بكأوه
على امواله التي تفارقه واذا سألته لم تبكى اجابك « آلهتى التي
صملت قد اخذتموها مع الكاهن وذهبتم فماذا لى بعد . وما هذا
تقولون لى مالك » (قض ١٨ : ٢٤) قيل ان القنفذ بعد ان
يكون قد أكل وشبع من ثمار الشجرة المتناثرة على الارض يبتدىء
ان يترعرع فوق ما يتبقى من هذه الثمار فيشبكها بريشه ويحملها
الى وكره محاولا الدخول بها اليه من بابه الذى يجعله عادة ضيقاً
مخافة ان يلججه غيره من الحيوانات فلا يستطيع الدخول فيضطر
ان يلتنى ما كان حاملاً اياه ويدخل فارغاً كما خرج ويذهب تعبته
فيما جمع هباء هكذا الخاطيء يشعر حين الموت ان كل ما تعب فيه
للعالم ذهب هباء منثوراً

وكم يتمنى الخاطيء المشرف على الموت ان يعود الى الحياة مرة
اخرى او ان يسترجع حياته الغابرة وايامه التي قضها في الباطل
او ان يولد ثانية ليسلك سلوكاً جديداً وينزل الى ميدان الحياة مرة
اخرى ليكسب ما يشعر انه خسره الآن . ولكن كل هذه الاماني
تشوقات باطلة لا فائدة منها . بل من شأنها ان تزيد عجزه وتزيد

خوفاً وبيتمدى ضميره ينخسه ويوجنه فيحكم على نفسه
 بالعقاب قبل ان يحكم عليه العدل الالهي ، وحينئذ تحرق الشياطين
 به من كل جانب وهي باذلة كل الجهد في تعذيب ضميره لانه
 ترى انه لم يبق له في الحياة الا برهات وجيزة فهي تريد ان تقلقه
 حتى لا يفكر في امر خلاصه . فتصور له جميع الخطايا التي
 ارتكبها والاماكن التي ارتكبها فيها . وتذكره بكل اثم آتاه
 كان هو قد نسيه واهمله . قد كان الشيطان قبلاً يجتهد ان ينسى
 الانسان ما يرتكب من الذنوب ويطمئن باله من جهة العقاب
 الالهي ويعده بالرحمة الالهية ، اما الآن فبالعكس يذكره بخطايا
 ويقول له « كيف ترجو رحمة الله انت الذي قضيت حياتك معانداً
 اياه وكيف يغفر لك خطاياك وهو الذي اوصاك ان لا ترتكبها ؟ »
 بل يرى الخطايء ان الخطايا نفسها تنتصب امامه وتقول له « احببتنا
 في العالم الارضي فراقفناك الى العالم السماوي »

ان من يتفرس في البحر حال سكونه ويشاهده رائقاً صافياً
 يحكم على عمقه انه خال من الاوساخ . ولكن من ينظره في
 حال هيجانه يندهش لما يراه مخفياً فيه من الاقدار والاعوجاج
 الطافية على وجه الماء . هكذا يرى الخطاة في حال صحتهم وصفو
 عيشهم وراحة بالهم ولكن مهلاً حتى تأتي عواصف الموت فتري
 ضائهم تمذف ماحوته من ادناس الخطايا واقدار الذنوب وتكون
 لهم شوكة حادة تنفذ الى قلوبهم ولا يدعها تستريح مطلقاً

ان نيرون قيصر رومية لما أعجب بقصيدة هوميروس التي نظمها على حريق تروادة أراد أن يمثل ذلك أمامه فاعز بحرق مدينة رومية ووقف على شرفة عالية يقرأ شعر هوميروس والمدينة تشتعل واهلها يصرخون نساء ورجالا كباراً وصغاراً طالبين المعونة ولا معونة . هكذا الشيطان يقف بجانب الخاطيء الذي أطاعه وبينما يكون الخاطيء متعذباً من خطاياه ومحترقاً من توبيخ الضمير يكون الشيطان ضاحكاً مسروراً لانه استطاع ان يخذله كل الطريق حتى سلمه الى الهاوية

فالويل لمن لا يتوب قبل حلول ساعة موته فان ملائكة الله يقبلون وقتئذ عليه والغضب يتقدمهم ونار الله الآكلة تراققهم فيستولى عليه الانزعاج والرعب ويحاول الفرار من فوق سرير احتضاره ولكن انى تكون له القدرة على ذلك . حينئذ لا يجد لديه وسيلة الا الندم والتوسل وهل يجدى الندم بعد العدم . يستغيث « ارحموني ارحموني ولا تحضروني أمام الديان ونفسي مدنسة بالشرور والخطايا ولا تفصلوني عن الجسد وأنا ملوث بالنتانة والخطيئة اتركوني زماناً يسيراً لكي اتوب وأرجع الى الله » فتسمع نفسه صوت ملائكة الله قائلين لها « أيتها النفس الشقية . لقد صرفت ايامك كلها فى الكسل والتواني والآث تريدين التوبة والنجاة ان ذلك من المحال لان نجمك قد أفل وموتك قد دنا واقترب . الله يدعوك لتداني على ما عملتي فاخرجي ايتها النفس الخاطئة لتتألي عقابك . لان وقت الخلاص قد انقضى وحبل الرجاء قد انقطع »

وكل هذا اتماماً لقول الكتاب الالهى « كم ينطفى سراج الاشرار
ويأتى عليهم بوارهم أو يقيم لهم أوجاعاً في غضبه . أو يكونون
كالبئن قدام الريح وكالعصافه التى تسرقها الزوبعة.... لتنظر عيناه
هلاكه ومن حمة القدير يشرب » (اى ٢١ : ١٧ و ١٨ و ٢٠)

فما أعظم الحزن الذى يلحق الخاطيء . حينئذ لو تجمع كل ذل
فى العالم لما ساوى أسى الخاطيء وحرقته . فما أروع الموت للنفس
التى ليست فى المسيح اذ يكون لها مضجع مملوء بالانين ومنظر
يفتت الاكباد وكلمات كلها مرارة وهى ترتعد كلما قربت من باب
الجحيم فتسمع صراخ الارواح المعذبة فيه وتلتفت الى تحت فترى
الابالسة فى العذاب الابدى وتتعلق باهداب الاطباء لينقذوها
من السقوط فى تلك الهوة الملتبته وتتمنى ان تدفع كل ثروة العالم
من أجل ساعة تعيشها ولا يمكن وقد قبض الشيطان عليها فلا بد لها
من النزول . وهنا من يقدر ان يتصور عويل النفس الهالكة وهى
تنحدر الى اعماق الجحيم . ان مقابر الجحيم الهائلة تتمعجب وظلمة
الدل الحالكة ترتعب حينما تسمع صوت عويل النفس الهالكة
وهى نازلة وسط اللهيب المتصاعد

كثيرون من الفلاسفة الكفار الذين عاشوا يدعون الناس
انى الكفر والاحاد عندما دنت ساعة موتهم وشعروا بهولها
وبرارة كأس الحمام التى تقدم لمن يموتون فى الخطية اعترفوا
بضلالهم وشر غواياتهم

فلقد قال شارل التاسع (نيرون الحديث) وقت احتضاره

ما هذه الدماء . ما هذا القتل : هوة عميقة تريد ان تبتلعني ، يا لهول
لقد اتبعت مشورة الاشرار ، انى لا أعرف أين أنا ، انى مرتعش
وخائف وركبتاى غير ثابتتين ، ماذا أعمل انى هالك الى الابد .
أنا أعرف ذلك ومتأكد منه

وفولتير بعد ان قضى حياته كلها فى الكفر والضلال مجدفاً
على الله صرخ ساعة موته قائلاً أيها المسيح أيها الرب يسوع وكانت
تحنقه العبرات ويبكى بكاء مرأً لانه أصبح متروكاً من الله
والناس . ولم يستطع اطباؤه واصدقاؤه ان يتحملوا هذا المنظر
المؤلم فهربوا من جوار فراش موته قائلين ان آلامه وعذابه أشد
مما رأينا فى زيارتنا للمرضى

وتوما بيثى الذي بذل كل جهده فى مقاومة الدين المسيحى
ومما كسبه من يبشر بالانجيل صرخ عند موته بتألم شديد قائلاً يارب
ساعدنى ، يارب ساعدنى . يامن صليت على عود الصليب ساعدنى
والسرفرئيس بنيبورت الكافر اصبح قبل موته بثلاثة أيام
هيكل عظام بسبب شدة آلام نفسه لتجديفه على الله وكان يقول
ساعة احتضاره « هالك وملعون انا الى الابد لانى طعنت المسيح
بالحرية فى جنبه . جهنم تحق والهلاك محيط بى فمن ينجينى »

وميرابو عند موته تبرع بمبلغ ثلاثة آلاف من الجنيهات
لمن يبرهن له على عدم وجود جهنم . وشاسترس^١ عند احتضاره
طلب مخدراً ليزيل مخاوف العقاب من فكره

كان اتيان الن جاحداً وكانت امرأته تقية فاضلة فلما دنا أجله

وانطرح على فراش الموت وقربت ساعة انطلاقه من هذه الدار
 الفانية سأله أحد الحاضرين قائلاً « أتستهي ان يتدين أولادك
 بدينك أو بدين امهم ؟ » فاجاب على الفور « بدين امهم » وجرى
 مثل ذلك مع الدكتور بولس أحد كفرة جرمانيا المشهورين
 الذي كان ينكر وجود الخالق له المجد وينكر المعجزات والوحي
 وخلود النفس فانه لما مرض مرض الوفاة قال « انى قريب من
 الموت وسينتهي وجودى » وبقي ينتظر الفناء بنفس لا تعرف
 الغزاء الا انه قبل موته بقليل بقي بضع ساعات لا يتكلم ولا يبدى
 حركة . وظن الحاضرون انه لم يعد قادراً على الكلام ولكنه عاد
 وفتح عينيه وتطلع الى السقف كأنه يرى ما لا يراه الا القريبون
 من ابواب الموت وحاول الجلوس وقال « حقاً توجد حياة اخرى »
 ثم اسلم الروح .

وقال أحد العلماء الأشرار عند موته « سأترك جسدى فى
 القبر وروحي فى أعظم منه » وقال جورج الرابع ملك انكلترا
 عند احتضاره « ما هذا انه الموت يا ابنى . لقد خدعوني » فما ارب
 ان يرى الانسان فى آخر دقيقة من عمره انه قضى حياته فى سبيل
 البطل والضلال وانه لم يبق له سوى توقع الهلاك المريع

فانظروا وتعجبوا فان ذاك الذى كان بالامس ذا هبة وسطوة
 فراه اليوم مرتعداً فاقد السلطة والجاه وهو يتوسل لقليل
 من الرحمة ولكن ليس من يرثى اليه أو يعطف عليه ، ها هو بين
 مخالب الموت أسير ينوح ويسكب دموعاً حارة . يبكى اذا ما

استعرض ايماله وقساوة قلبه وعدم ايمانه . ويتألم ويتعذب عند ما يتصور العذاب الذي سيحصده وظلام النار التي سيستقر بها وهيئة الشياطين الخيفة التي سيجاورها فاذا يعمل في تلك الساعة الرهيبة وكيف يتخلص من تلك الحالة المزعجة ؟ فما اشقاك واتعسك يا من تهانوت في أمر خلاصك ، انك الآن تتحقق انك كنت مخدوعاً ومغروراً وانك سعت باطلا .

الفصل السابع عشر

في ان توبة الخطيء عند الموت لا تقبل غالباً

« أنا أمضي وستطلبوني وتموتون في خطيئكم » (يو ٨: ٢١)
« الشريعت الشرير » (مز ٣٤: ٢١)

ان الخطاة الآثمة يقضون حياتهم يعبدون الهاً غير الله ويسجدون لاله غير الله ويحبون الهاً غير الله ولا يذكرون الله الا حين شعورهم بقرب ساعة انطلاقهم اليه .. ولذلك لا يسمعون منه سوى القول المربع « انعطفوا الى الاشياء التي احببتموها واخلطوا التي ارتكبتموها واطلبوا منها الغوث والمعونة لانكم عشتُم لها وقضيتُم حياتكم في خدمتها »

آه . ان الناس يخشون الخطيئة ويخافون من عقابها ولكن هلة تجامرهم على السير فيها هو توهمهم انهم يتوبون حال الموت وان

توبتهم تقبل منهم . قبل أن يلفظوا النفس الاخير يقولون لله
« أخطأنا » ويعتبرون ذلك كافياً لخلاصهم ولم يسمعوا قول الله
الرهيب « فاذكر خالقك في أيام شبابك قبل أن تأتى أيام الشر أو
تجىء السنون اذ تقول ليس لى فيها سرور » (جا ١٢ : ١)
وكأن لسان حال الخاطيء الذى يؤجل توبته للساعة الاخيرة
أو لحين الشيخوخة يقول « اللهم انى أعدك بأن أتوب عن الشر
ولكن متى عدمت قوتى ولم يبق لى وقت لاغيظك فيه .
وسأخلص اليك المحبة ولكن متى عجزت عن التصرف بها فى
ما يلد حواسي . وساندم على اهانتى اياك ولكن متى ضعفت
ولم تعد فى قوة للاستمرار فى اهانتك . وسوف أعترف وأقر بأننى
أخطأت اذا ما ربطت يداى ورجلاى عن السير فى طريق الخطيئة »
ياغبي . انك لا تهاون اذا دعيت لوليمة أو اذا فتحت امامك
ابواب للربح . انك تجد لتحصل على كل شىء الا على رضى الله .
فكيف تلمس هذا الرضى حين موتك ؟ وانت لم تسع اليه قط
فى حياتك ؟

لو أن حصاناً جمع من صاحبه وركض هارباً حتى أعترضه نهر
فوقف ، فهل من الصواب ان نظن أنه قصد بوقوفه تمكين صاحبه
من مسكه ؟ وألا ينطبق هذا المثل على من يركض طول حياته
وراء شهواته حتى اذا ما اعترضه نهر الموت طلب الرحمة ؟ .
قال أحد الابهاء « من تركه الخطايا قبل أن يتركها لا يعتبر راعباً

عنها بمحض اختياره بل يعتبر محروماً منها رغم ارادته «
والدليل على ذلك أن كثيرين ممن اصابوا بامراض خطيرة أظهروا
التوبة لأنهم ظنوا ان ساعة موتهم قد أقربت فلما ان عادت اليهم
الصحة رجعوا الى سابق عهدهم من معاداة الله . فلم تكن توبتهم
اذن عن كرهه في الخطيئة بل خوفاً من انتقام العدل الالهى . وتوبة
كهذه لا تقبل مطلقاً . نعم أن الله وعد بقبول الخطاة حين يرجعون
اليه تائبين . ولكن توبة الخاطيء في ساعة موته لا تعتبر توبة
حقيقية صادقة مقبولة لانها انما هي توبة اضطرارية ناتجة عن الخوف
الشديد . ان شمعى الذى سب داود الملك مرة رجع وطلب منه
السماح لما وقع تحت يده لكن داود مع كونه اطلق سبيله كلف ابنه
سليمان بقتله (٢ صم ١٦ ، ١ مل ٢ : ٨ و ٦) هكذا كثيرون من
الناس على هذه الصورة . لما يجدون انفسهم قد وقعوا تحت يد الله
القوية يتوبون توبة اضطرارية ولكنها لا تقبل منهم لانها جاءت
بعد فوات الفرصة وفي ساعة ضيقة لا تمكنهم من الاستعداد لها
كما ينبغي .

ان من لا يحب الله في حالة الحرية وسعة الوقت يكون أقل
حباً حين يحضره الموت ويرى جهنم فاعرة فاها لا ابتلاعه .
ان مقاساة الازواج والامور الناتجة عن الحزن تؤثر على
قوى النفس ولا تدعها تمتلك عواطفها فكهم بالحرى رهبة
الموت وهي أشد تأثيراً لانها تهد أركان العقل ولا تعطى الانسان
فرصة ليتشجع فيها ويستعد للتوبة الحقيقية . ولقد قال الحكيم

« ليس لأنسان سلطان على الروح ليمسك الروح ولا سلطان على يوم الموت » (جا ٨ : ٨)

فمن يظن ان توبته في حالة مرض الموت تقبل منه انما يتوهم المستحيل . لان المريض دائماً مشغول في أحوال مرضه . اليوم الحمى شديدة . غداً تنازلت قليلاً . أمس شعر بخفة المرض ونام مستريحاً . واليوم ثقل المرض عليه وقضى الليل ارقاً . هذا الدواء افاد وغيره لم يفد . وهكذا يستعرض أحوال مرضه حتى يباغته الموت .

اذا كان رئيس السفينة جباناً ولا يمكنه ان يسيرها في حالة اعتدال الطقس فكيف يمكنه ان يدفعها للسير والطقس في قلب ؟ هكذا اذا لم يعمل الخاطيء للتوبة وهو في حالة الصحة فكيف يجاهد في سبيلها وهو في حالة المرض والضعف واضطراب الفكر هذا وغير خاف ان البعض لا يطول معهم المرض والبعض لا ينذرهم بالموت مرض يسبقه فقد يموتون بغتة بنقطة دم أو بداء السكتة القلبية والحاصل ان كثيرين فكروا في التوبة ولكنهم أرجأوها الى ما قبل الرحيل فانقضى العمر ولم ينتهزوا الفرصة وانقضى الموت عليهم بغتة وهوى بهم الى جهنم وهم الآن في عذاب أبدي وحسرة لانهائية

ان الملك القوى اذا أراد الاستيلاء على المدينة يفاوض اهلهما أولاً باللين فاذا رفضوا التسليم له حاصر المدينة بغير رحمة واستولى عليها بقوته الغاشمة . هكذا الخاطيء الذي يرفض في حياته نعمة الله

وعدله فان الرحمة تنساه اذا طلبها وهو في طريقه الى الجحيم
 انتم ترفضون الصالح معه في الوقت الذي يطلبه منكم فهو ايضاً
 يأبى أن يرتضى بمسالمتكم حين يأتى وقت تطلبونه فيه مكرهين وهو
 القائل « انا أمضي وستطلبوني وتموتون في خطيئتم » أى انسان
 يغفل عن نجاة نفسه قصداً وتعمداً ؟ وأى انسان محبوس في سجن
 ضيق يمكنه أن يحل القيود من رجليه ومع ذلك يتباطأ ؟ وأى
 مريض يعطى له دواء مفيد ولا يتجرعه ؟

ما أجهل الذى يشعر انه يكسب الخلاص عندما يحضره
 الموت بمجرد لفظة يجود بها وما هى اذاً قيمة قول بطرس الرسول
 « وان كان البار بالجهد يخلص فالفاجر والخطيء اين يظهران »
 (١ بط ٤ : ١٨) وما هو معنى قول الرسول بولس « انه بضيقات
 كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الله » (اع ١٤ : ٢٢) أو
 ما قاله مخلصنا الصالح « ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى
 يؤدى الى الحياة » (مت ٧ : ١٤)

فالانسان الذى يهده روع ضميره بقوله « سأتوب عند
 ما يقترب الموت » يمثل دور قايين لانه حزن على قتل اخيه ولكن
 بعد ان سمع انه سيكون مطروداً مهاناً (تك ٤ : ١٣ و ١٤) وكحزن
 هاجر على اغصاب مولاتها ولكن بعد ان سمعت الامر بطردها
 (تك ١٦) وكتوبة شاول حينما ندم على عدم قتله العملاقة بعد
 ان علم انه من أجل ذلك سيفقد الملك (١ صم ١٥) هكذا يقول
 الله لكل خاطيء يريد التوبة عند الموت . انت لم تتب لانك

تجنبني او لانك تكره الخطيئة بل لان الخطيئة ستمتلي عنك وجهها
تستعد لا بتلاعك

انهم يريدون الآن ان يخلعوا ثوب الشر القذر ويلبسوا ثوب
البر المقدس لا كرهاً في الشر ولا حباً في البر . بل لانهم رأوا أن
حالتهم الحاضرة المؤلمة يزيد بها الشر ألماً والبر يزيل خوفها فهم
اشبهه بجسم منتن حلي باجل اللباس

ان شمشون الذي كان يقوى على كل خطر عندما كان مع الله
وكانت نعمة الله معه، لما رأى ان الله خلصه مراراً من بين ايدي دليلة
التي سقطت في حبائلها اغتر بالامل معتقداً بأن لا خطر من استمرار
سقوطه لان الله في كل مرة يخلصه وهذا هو نفس الامل الذي يخدع
الخطاة . انهم يتصورون انه لا يأتي يوم فيه يتمخلى الله عنهم كما تمخلى
عن شمشون . فشمسون اذا اعطاه الرب قوة بد ان اوتقته دليلة
مرة واثنتين وثلاثاً لينجو ظن انه اذا باح لها بسر قوته ينجو ايضاً
لانه قال « اخرج حسب كل مرة وانتفض . ولم يعلم ان الرب فارقه »
(قض ١٦ : ٢٠) وهكذا كثيرون اذا اوقعتهم خطاياهم في بلية
يقولون عندما ينقذنا الرب منها نعيش له فاذا انتقذهم منها يعودون
بخطاياهم اليها ويقولون كما نجونا منها في المرة الاولى تنجو في المرة
الثانية وهكذا الى ان تنتهي الحياة وعندئذ يقولون « خلصنا يارب
فلا نعود للخطية فيقول لهم « لم يبق بعد زمان لكم لتعودوا
للخطيئة ولكنها لاصقة بكم وستموتون بها » كثيرون هم اولئك
الذين لا يستعدون للموت ارتكائاً على ان الخطيئة هينة وان الله لا يتركهم

ويظنون على هذا الوهم حتى تأتي ساعة الموت فيعرفون ان الله كان بعيداً عنهم وان الشيطان خدعهم كشاول ملك اسرائيل الذي ذهب يطلب الرب فسمع صوت صموئيل النبي يقول له « لماذا تسألني والرب قد فارقك وصار عدوك » (١ صم ٢٨ : ١٦)

وهل تظن ايها الخاطيء الذي داومت على ارتكاب الخطيئة والقفها نفسك طول حياتك انك تجد طريقة للخلاص منها في لحظة من الزمان ؟ قيل عن مثيرداطس المتمرّد المشهور انه كان مواظباً على استعمال العشب المسموم المسمى « سوكران » غذاء له وكان يأكله على الدوام فصار ذلك العشب مألوفاً عنده حتى اذا اراد يوماً الانتحار للتخلص من مصيبة داهمته طلب ذلك العشب واكل منه بكثرة فلم يؤثر فيه ولم يبلغه مناه. وهذا الامر عينه يعرض للخطايء المسكين فانه لا استمراره على ارتكاب الخطيئة كل يوم تصوير في شخصه طبيعة ثانية بحيث لا يمكنه ان يتخلص منها عند دنوه من حافة القبر ولا تفيد الارشادات والنصائح في ازالة ما ثبت فيه من الشر لان تأثيرها في نفسه يخف شيئاً فشيئاً لكثرة تكرارها حتى يضمحل اخيراً . فالذين يسكنون بقرب مطحنة ذات جمجمة قوية ونهر دائم الخريف او بحر كثير الهيجان يعلمون بالاختبار ان الصوت الذي كان يزعمهم في أول الامر خفت وطأة تأثيره لديهم لكثرة تعودهم على سماعه حتى اصبحوا لا يشعرون به . هكذا حقائق الدين كلما تكرر رفضنا لها كلما ضعف تأثيرها فينا حتى نشرف على الموت وقد فقدنا تأثيرها بالكلية ولم يبق الا تأثير الخطيئة

فالتوبة للخاطيء المدنف اذا اشبه بالحجر الثقيل لذي اليدين
الضعيفتين وما هو ذلك الحجر الثقيل ؟ هو ملكاته الرديئة
المستحيلة الى طبعه .

وهل تظن ايها الخاطيء التعيس انك اذا ملت للافكار المقدسة
يسكت عنك ابليس وهو يعلم ان اوان رحيلك قد دنا . انه يجمع
كل قواه حتى لا تقلت من يده تلك النفس التي تملك عليها طيلة
أيام حياتها . ان آخر يوم في الحروب هو اشدّها هولاً لان فيه
ينتهى كل شيء فآخر أيام حياتك هو اشد أيامك هولاً والشيطان
يزيدك فيه رعباً وخوفاً . قال الراى « لان ابليس نزل اليكم وبه
غضب عظيم عالماً ان له زماناً قليلاً » (رؤ ١٢ : ١٢)

ان اعتماد الانسان على رحمة الله مع استمراره في ارتكاب
الاثم وهم باطل لانه اذا كان الله رحوماً فلا ينبغي ان تكون رحمته
خاصة بانسان دون كل البشر فرحمة الله عامة للجميع فلو رحم انساناً
قضى حياته في الشر والاثم لكان ذلك منه قساوة على كل البشر
ولامتلاّت الدنيا من الشر لانه اذا يرى كل انسان ان الله قبل
الخاطيء بعدما قضى حياته بعيداً عنه فانه يسلك هو ايضاً هذا السبيل
لينال حظه من العالم ولا يمنعه ذلك من ان تكون له الحياة الابدية
بمجرد قوله ساعة الموت « اللهم اغفر لى »

قال أحدهم « لقد رفض الله ان تقدم له ذبيحة من احد هذه
الطيور « البوم والغواص والكركى » (لا ١١ : ١٧) وذلك لأن
الاول يحتفى في النهار ويظهر في الليل والثاني يظل حياته ساكناً

ولا يصيح بصوت عذب الا عند موته والثالث له راحة فم
كرهية طالما كان حياً وعند موته تتحول الى عرف زكي . وعلى
هذا المنوال ترفض توبة الخطيء المحتضر لانه لم يعمل لها في
نهار الحياة ولكنه طالبها في ليل الموت ولانه أهمل طلب الرحمة في
حياته والتمسها في ساعته الأخيرة ولانه أرسل من فمه وهو حي
راثة التجديف النتنه على اسم الله ولم يفكر في عبادته الا وهو
يلفظ النفس الاخير »

ان كثيرين اذا سمعوا هذا الكلام اجابوك فوراً « وما هو
قولك في اللص . ألم يخلص في آخر نسمة من حياته ؟ » يا للنباوة .
كم من المواقظ سمع اللص . انه لم تطرق أذنيه ولا كلمة واحدة
من كلام الله . وفي يقيني ان اللص أتى ما لم يأت أعظم القديسين .
لان ايمانه الذي به خلص كان عظيماً للغاية . انه آمن بالمسيح
ولكن ليس وهو يصنع المعجزات ويأتي العجائب بل آمن به
وهو معلق على عود الصليب نظيره . انه آمن قبل ان تحدث الزلزلة
التي رهنّت على لاهوت ابن الله . ان التلاميذ كلهم قد هربوا وضاع
رجاؤهم اذ رأوا المخلص معلقاً على الصليب أما اللص فابن ايمانه
به وهو يراه مهاناً من الجميع فهل لم يكن حقاً عظيماً ايمان مثل هذا ؟
وهب ان الله قبل اللص في آخر حياته فهل لا تخشى ان يكون
مصيرك الهلاك اذا اعتمدت على هذا الامل ؟ لقد سمعت ان يونان
النبي طرح في البحر فابتلعه الحوت وقذفه على الشاطئ حياً

(يون ٢ : ١٠) فهل تدفع بنفسك في البحر على أمل ان تنجو
كما نجى يونان . لقد سمعت ان الثلاثة القتية طرحوا في اتون
النار ولم يحترقوا فهل طرح نفسك في النار وانت تأمل النجاة
مثلهم ، ويوسف الصديق نال الوزارة في مصر بعد أن التى في الحب
(تك ٤١) فهل تتوهم انك اذا طرحت نفسك في جب تصل الى منصب
الوزارة فلا ينبغي اذاً ان تستند على خبر ذلك اللص الذى عاش
خاطئاً وقبل فشتان بين حالتك وحالته . تذكر يهوذا الذى ندم
وقال « اخطأت » ثم لشدة تأثره مضى وخنق نفسه ومات
هالكاً (مت ٢٧ : ٥٤) وقال شاول الملك اخطأت (١ صم ١٥
: ٣٠) وقال فرعون المتقسى « اخطأت » (خر ٩ : ٢٧)
وقال بلعام « اخطأت » (عد ٢٢ : ٣٤) ولكن هؤلاء
كلهم هلكوا لان توبتهم لم تكن صحيحة لان الخاطئ المائت
اذا بكى فليس على خطيئته بل على عقابها . ان منح المخلص الخلاص
الى اللص كان امتيازاً خصوصياً نظراً للزمان والمكان والظروف
الملابسة وقد لحظ القديس أوغسطينوس ان المسيح سلك مع
اللص سلوك طيب تخرج فى احدى المدارس العليا وهو يريد ان
يشهر براعته ففتش على أسقم مريض فوهبه الصحة مجاناً وبه نال
شهرة فائقة فلا يصح فيما بعد أن يأتى كل مريض ويطلب منه
الشفاء مجاناً فیسوع المسيح أراد أن يعلن فرط رحمته للخطاة
فشفق وخلص أشرم فلا ينبغي ان تعتمد انت على ذلك راجياً
ان يخلصك في آخر حياتك كما خلصه والا انتفت الفضيلة من العالم

وكانت المكافأة في السماء على الرذيلة طول الحياة مع كاة وجيزة
يقولها الانسان عند الموت . قال القديس اوغسطينوس أيضاً
« أن السيد المسيح خلص اللص لثلاثين عاماً وقد جعله وحيداً
لثلاثين عاماً » واذا أردنا أن نستفيد حقاً فلا نجعل لانفسنا عيناً
واحدة فقط ننظر بها اللص الايمن بل لنجعل لنا عينيْن نرى بالواحدة
اللص الايمن وبالأخرى الايسر . فلماذا ننظرون خلاص اللص
الايمن ولا ننظرون هلاك اللص الايسر . عن يمين الخلص خلص
واحد وعن يساره هلك واحد ، فلماذا تعتمد على حالة الذي كان
عن يمينه ولا تعتبر من حالة الذي كان عن يساره . انظر الى هذا
اللص الايسر فانه كان يشاهد الزلزلة المظيمة التي حدثت حين
الصلب ويرى تزلزل الصخور وتشقق الاحجار وقيام الاموات
من القبور حتى أن قائد المائة والذين كانوا معه يحرسون يسوع
لما رأوا الزلزلة وما كان خافوا جداً وقالوا حقاً كان هذا ابن الله
(مت ٢٧ : ٥١ - ٥٤) وليكنه مع ذلك لم يؤمن ، فهل تنتظر
عند موتك ان يقدم لك الله أدلة على لاهوته اكثر من ذلك ؟
وأية قدرة تكون لك حينئذ أيها الخاطيء على عمل الصلاح الذي
تبرهن به على توبتك لان الرسول يوحنا يقول « فاصنعوا أثماراً
تليق بالتوبة » (لو ٣ : ٨) قال القديس اوغسطينوس « هذه هي
العقوبة العادلة على الخطيئة . وهي ان الخاطيء لا يريد ان يصنع
صلاحاً حينما يكون قادراً عليه . واذا اراد بعد أن يصنعه فترول
منه القدرة على صنعه »

قال احدهم « ان الذى لا تدرك احكامه من عاداته ان يعلق مبدأ القداسة أو خلاص الناس على فعل ما هو صالح زهيد لا اعتبار له فاذا فعلوه يمنحهم جلت مكارمه فيا بعدنعمة فائقة ويصونهم صوناً خصوصياً حتى انهم يبلغون الى نعيم الملكوت لا محالة واذا تفاضوا عن فعله يعدمهم التأييدات الخصوصية والنعم الوافرة التى حسب رأي العلماء اللاهوتيين لا يلتزم تعالى ان يعطيها للبشر ويتركهم يتبعون اراءهم الخادعة فيهلكون . قال له المجد » لانهم مبصرين ولا يبصرون وسامعين ولا يسمعون ولا يفهمون » (مت ١٣ : ١٣) فهم اشبه بميت فى قبره مقيد اليدين والرجلين معصوب العينين . فالخطيء لا يقدر أن يتوب حين وفاته لانه يكون حينئذ مشدود العينين بعمى روحى يجعله يجهل الله اكثر مما يجهله فى حياته

فلا يستطيع احد ان يخلص ما لم تساعده نعمة الله واما الذى يرذل هذه النعمة فى حياته فان الله يرفعها عنه حين مماته حتى لا يقوى على التوبة والخلاص مهما طلبهما بدموع .

قال المخلص « صلوا لى لا يكون هربكم فى شتاء » (مت ٢٤ : ٢٠) فاذا كان الشتاء غير مناسب للسفر من جهة لأخرى فان ساعة الموت اكثر عدم ملائمة للسفر الى الحياة الابدية . ونضرب لكم بعض الامثلة . يوليانوس الملك الجاحد الذى كفر بالسيد المسيح واضطهد قديسيه وحاول ان يبنى الهيكل ليكذب نبوته

خرجت نار من الارض وصدمت ما بناه ومع ذلك لم يرتدع بل حينما سار الى حرب الفرس تعهد بأبادة المسيحية بعد رجوعه ولكنه طعن في قلبه برمح افقده الحياة وشعر بقوة من اضطره الا انه لم يؤمن بل أخذ من دمه السائل من صدره ونثره في الجو وصرخ قائلاً « لقد غلبت أخيراً ايها الجليلي »

وحكى عن شاب تعلق قلبه بفتاة تعلقاً شديداً حتى نقلها الى قصره وعاشرها مدة حياته دون أن يسمع نصيحة او يقبل ارشاداً ولما ادركه المرض واشتد عليه، زاره أحد خدام الله فسأله ماذا ينبغي أن أفعل لأخلص فسر به الخادم وأخذ يطلب منه أن يني ديونه ويرد ما لديه من الودائع لأصحابها ويغفر لمن اساء اليه فقبل أن يجري ذلك بكل سرور وبلا توان ثم طلب منه أخيراً أن يطرد عنه الفتاة . فحينئذ تأوه وقال له « لقد صعبت علي الامر وطلبت مني ما لا أستطيع اجابته » فأخذ يحسن إليه طردها حتى لا يخسر نفسه فأجابه « لا أستطيع » فهدده بعذاب جهنم فأجابه « لا أستطيع » فشوقه الى سعادة السماء فأجابه « لا أستطيع » وهكذا أخذ يعهده ويتوعده وهو يجابوب « لا أستطيع » الى ان قال بلهجة الاصرار قلت ولا زلت أقول « لا أستطيع » ثم جمع قواه الضعيفة الباقية فيه وقبض على مساعد تلك الشقية وقال لها بصوت مرتفع « كمت عزي في حياتي وستكونين كذلك في مماتي » ثم اجتذبها بعنف وضمها الى صدره واحتضنها وقبلها وفي الحال

اشتد عليه المرض واضطربت حركة قلبه ثم فاضت روحه
المالكة

وكان أحد الخطاة الغارقين في الرذيلة اذا نصح له أحد اصدقائه
ان يتركها كي لا تملك نفسه اجابه يا صاح أن الذهاب الى جهنم
حسن من أجلها . وشارل الثاني ملك انكلترا قال وهو يحتضر
« لاتدعوا نلي المسكينة تموت جوعاً » (اشارة الى حبيبته نلي
جوين) وبرنز الشاعر الانكليزي لم يذكر عند موته سوى عدوه
مانثيون المحامي الذي طالبه بالدين وهدده بالسجن فلم يقل سوى
« ذاك اللعين مانثيون »

هكذا هكذا يهلك الخطاة واذ يقول واحد منهم لله سامحني
مجاوبه متى عودت لسانك على قول هذه العبارة التي ما لفظتها قط
وقد طلبت منك مراراً ان تقولها فكنت تأبى بقساوة شديدة .
قيل عن رجل شقي اشرف على الموت . وكان أحد الجالسين حوله
يطلب منه ان يطلب المغفرة من الله فقال له « كيف يسوغ لي هذا
ولي أربعون سنة وانا أرفض التوبة »
فاحذر ايها الخطايء ولا تعلق توبتك على أى وقت غير
« الآن »

الفصل الثامن عشر

« في ان يوم الموت يأتي بغتة »

« لا تفتخر بالغد لأنك لا تعلم ماذا يلبه يوم » (ام ٢٧ : ١)

قال أحد الحكماء « ليس شيء أكيداً مثل الموت، اما وقت مجيئه فلا شيء مجهول نظيره ». وقال القديس اوغسطينوس « ان الله أظهر حسن حكمته خاصة في أنه أخفى عنا معرفة يوم موتنا ليلزمنا بحسن التصرف كل أيام حياتنا والالتصاق بالقداسة لاننا لو نحصل على معرفة اليوم الذي نموت فيه لكنا لا محالة نتقاعد عن أفعال التوبة ومباشرة الاعمال الصالحة ونؤخرها الى السنة الاخيرة ومن السنة الاخيرة الى الشهر الاخير ومن الشهر الاخير الى الأسبوع الاخير ومن الأسبوع الاخير الى اليوم الاخير ومن اليوم الاخير الى الساعة الاخيرة وهكذا نؤجل حتى نعدم خلاصنا بالكلية » ولهذا قال السيد المسيح « فكونوا أتم اذاً مستعدين لانه في ساعة لا تظنون يأتي ابن الانسان » (لو ١٢ : ٤٠)

وقال الرسول بولس « ان يوم الرب كلص في الليل هكذا يجيء . لانه حينما يقولون سلام وأمان حينئذ يفاجئهم هلاك يئمة كالخناص للحبلى فلا ينجون » (١ تس ٥ : ٣) وقال الرب

لملاك كنيسة ساردس « كن ساهراً وشدد ما بقي الذي هو عتيد ان يموت لانى لم اجد أعمالك كاملة أمام الله . فاذا ذكر كيف أخذت وسمعت واحفظ وتب فانى ان لم تسهر أقدم عليك كلص ولا تعلم أية ساعة أقدم عليك » (رؤ ٣ : ٢ و ٣)

وقال المخلص أيضاً « طوبى لأولئك العبيد الذين اذا جاء سيدهم يجدهم ساهرين .. وان أنى في الهزيع الثانى أوأتى في الهزيع الثالث ووجدهم هكذا فطوبى لأولئك العبيد » (لو ١٢ : ٣٧ و ٣٨) كانوا فى تلك الايام يقسمون الليل الى أربعة هزاع . وعمر الانسان يشبه بالليل ويراد بالهزيع الاول سن الصبوة وبالثانى سن الشبوبة وبالثالث سن الرجولية وبالرابع سن الشيخوخة . فيريد المخلص ان نكون مستعدين ومستيقظين فى كل هزيع أى فى كل سن ووقت من حياتنا لئلا يأتى بغتة فيجدنا نياماً (مر ١٣ : ٣٦) ان الله لأجل خيرنا أخفى عنا معرفة ساعة موتنا وذلك لنستعد لمجيئه كل حين : وحيث أن الموت ممكن ان يحىء فى كل مكان وكل زمان فالمطلوب منا ان ننتظره هكذا . قال الحكيم « لان الانسان ايضاً لا يعرف وقته » (جا ٩ : ١٢) وقال داود عن ابنه الذى مرض وصلى لاجله « لانى قلت من يعلم . ربما يرحمنى الرب ويحيى الولد » (٢ صم ١٢ : ٢٢) فنحن لا نعلم اذا متى نموت ولكننا نعلم جيداً اننا لا بد ان نموت

و مع ان جميع البشر يعلمون جيداً انهم لا بد يموتون الا أن ابليس ما برح يغرى الكثيرين موهماً اياهم ان الموت بعيد عنهم

حتى يزيل ذكره من افكارهم بالكلية وهكذا ترى الشيوخ الذين
 طعنوا في السن والمرضى الذين انهكت الالوجاع قواهم يحدعون
 أنفسهم بطول العمر وامتداد الزمن . ولكن أيها الاغبياء . كم
 وكم عدد أولئك الذين شاهدناهم وجالساها وصاحبناهم وعلى يقين
 منا ماتوا غفلة بدون أن يلفظوا لنا كلمة وداع . أدرك الموت بعضهم
 فجأة بينما كانوا جالسين وبعضهم بينما كانوا سائرين وآخرين بينما
 كانوا في فراشهم نائمين . ومما لا ريب فيه ان احداً منهم ما كان
 يخطر بباله انه سيموت أو يضمحل بغتة على هذا الشكل الذي
 مات به .

بل وكم عدد أولئك الذين كانوا يحسبون حساب السنين
 المستقبلية ولم يدعمهم الموت يلفظون الالفاظ الاخيرة . امثال
 ذلك الغنى الغبي الذي بينما كان يحسب حساب المستقبل قيل له
 « يا غبي في هذه الليلة تطلب نفسك منك »

فالموت أمر محقق وازمان الذي ينقضى أجلك فيه غير
 معروف ، فعليك اذاً أن تجهد نفسك في السهر دائماً . وجدير بك
 أن تتدبر احوالك وتجعل كل يوم كأنه اليوم الاخير لك في هذه
 الحياة . كثيرون يبنون بيوتاً ولا يسكنونها وآخرون يذخرون
 ذخيرة السنة المقبلة ولا يدركونها . وغيرهم يصرفون افكارهم
 الى الزمان الذي لا يضمنون الوصول اليه ويتغافلون عن التأهب
 للموت الذي يعرفون انه لا بد منه « وانما نهاية كل شيء قد
 اقتربت . فتعقلوا واصحوا للصلوات . اصحوا واسهروا لان

ابليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتصقاً من يتلمعه هو «
(١ بط ٤ : ٧ ، ٥ : ٨)

فإذا كنت تحرص على الأشياء التي لا تضمنها فكيف لا تحرص
على ذاتك مع علمك الأكيد بموتك ؟ لماذا تهتم بالظل الزائل ولا
تبالى بالحقيقة الثابتة ؟ نعم أن أيام حياتك غير معروف عددها ولكن
زواها واضمحلالها أمر لا ريب فيه ، فإذا لاتهم بما لا تعلم حقيقة
بل كن مستعداً لساعة الموت التي تتأكدها وهيء لك زاداً
للطريق « كل ما تجده يدك لتفعله فافعله بقوتك لأنه ليس
من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية التي أنت
ذاهب إليها » (جا ٩ : ١٠)

قال سليمان الحكيم « الكل على ما للكل . حادثة واحدة
للصديق وللشرير للصالح وللظاهر وللنجس . للذابح وللذي
لا يذبح . للصالح الخاطيء . الخالف كالذي يخاف الحلف . هذا
أشر كل ما عمل تحت الشمس ان حادثة واحدة للجميع وايضاً
قلب بنى البشر ملآن من الشر والحقارة في قلوبهم وهم أحياء وبعد
ذلك يذهبون الى الاموات . لأنه من يستثنى . لكل الاحياء
يوجد رجاء فان الكلب الحي خير من الاسد الميت . لان الاحياء
يعلمون انهم سيموتون . أما الموتى فلا يعلمون شيئاً وليس لهم
أجر بعد لان ذكرهم نسي . ومحبتهم وبغضتهم وحسدتهم هلكت
منذ زمان ولا نصيب لهم بعد الى الابد في كل ما عمل تحت
الشمس » (جا ٩ : ٢٠ - ٦) ومع ذلك نجد الكثيرين ينشغلون

بالملاهي مع علمهم بأن الزمن قصير . ومع أن التوعدات رهيبة فهم معرضون عنها ويأملون أن يعيشوا مئات السنين فان كنت ياغبى لاجل نوال خير زمني تهجر النوم وتهمل تناول الطعام مخافة أن يضيع عليك الوقت فما بالك لا تطرح عنك كل اهتمام أَرْضِي وتصرف هذه الحياة القصيرة في ربح الحياة الدائمة

فاجتهد واعمل ولا تكن متواكلاً متغافلاً اذ لست تعلم زمان نهايتك فلا تنخدع وتصرف هذا الزمان في آمالك الباطلة ورجائك الكاذب بقولك « اليوم » و « غداً » فربما يدركك ما أدرك العذارى الجاهلات اللواتي كان لهن زمان أضعنه في الأمل الكاذب وطلبنه أخيراً بدموع ولكن لم يجدنه (مت ٢٥) فلا تستند على ما يأتي من الزمان ولا تلمس عمراً طويلاً وانما اطلب ان تكون عيشتك مرضية لله تعالى فلا تهتم بالسنين الكثيرة بل بالسنين الصالحة . ان شاول الملك أخبر عنه الكتاب انه « ملك سنتين » (١ صم ١٣ : ١) مع أنه ملك عشرين سنة . ذلك لان الوحي أسقط المدة التي قضاه شاول في شروره وارتكاب الخطايا والآثام كأنها ليست من عمره . فكل ما تضعه من العمر في شرورك واهوائك لا يحسب لك بل عليك

فاسرع من الآن واعمل الصالحات ولا تؤجل عملاً منها فان جهنم مزدحمة بكثيرين ممن أخروا توبتهم . اولئك الخطاة الذين باغتهم الموت في وقت تمتعهم باللذات الموهومة فهوى بهم الى قرار الجحيم حيث النار التي لا تطفأ والدود الذي لا يموت

كان معنا أناس في مثل هذا اليوم من العام الغابر نفتش عنهم الآن فلا نجدهم، لقد تركونا وسكنوا القبور المظلمة، ليتهم يقومون الآن ويأتون إلينا ليعرفونا قيمة هذا الزمن الذي نصرفه في الاهتمام بالباطيل . كم يتنهدون الآن على كل دقيقة لم يصرفوها في ما يرضي الله . ليت أحدهم يقوم فينا خطيباً ليشرح لنا غباوتنا في التهاون ويرينا أنه لو أتيح له الرجوع للعالم مرة أخرى لما ترك دقيقة واحدة دون أن ينفقها في عمل يتمجد به اسم الله

فما أجهل الذي يؤجل عمل اليوم الى الغد . ان أهل نينوى يعطون درساً بليغاً للمتغافلين ، فانهم حينما سمعوا الانذار بهلاك مدينتهم بعد أربعين يوماً لم يقولوا لنصبر حتى آخر يوم وحينئذ نتوب بل اسرعوا بالتوبة . فمن يترك نفسه خاطئاً على أمل التوبة بعد حين اشبه بمن يحاول ان يرقص على فم هوة عميقة أو بمن يريد أن يجرب فعل السم فيشرب منه قليلاً أو بمن يدوس على الشوك ليعرف مقدار ألمه . كثيرون يخاطرون باللعب والانهماك في اللذات وهم على باب القبر وعلى فم الهاوية

ان الآخرة معلقة بدقيقة واحدة ويظن الاغبياء ان هذه الدقيقة هي دقيقة الموت فقط فيصرفون دقائق حياتهم في خدمة العالم منتظرين دقيقة الموت ليتوبوا فيها ولعمري انهم جهلاء اذ يظنون ان عمل خلاصهم الابدى يتم بسهولة بدون احتراس والرسول

بطرس يقول « لذلك بالاكثرا اجتهدوا أيها الاخوة ان تجعلوا دعوتكم واختياركم ثابتين » (٢ بط ١: ١٠) ويقول الرسول بولس « تمموا خلاصكم بخوف ورعدة » (في ٢: ١٢) واذا قارنا بين حال أولئك الذين عاشوا يقاومون عواطفهم الجسدية وجاهدوا جهاداً عنيفاً ضد العالم وحالنا نحن الذين نعيش عيشة التنزه والتبرج فهل نعتبر انفسنا مسيحيين والصوت الالهى يقول « وان كان البار بالجهد يخلص فالفاجر والخطيء ان يظهر ان » (١ بط ٤: ٨)

ان الله لا يجب ان يرانا فى حالة الالهال ولذلك لا يفتأ يبين لنا عظم خطر هذه الحالة وكيف ان سيوف الموت مسلولة فوق رقابنا وسهامه الملتهبة الحادة مسددة الى صدورنا . فعليك اذا ان تحاسب نفسك على تصرفاتك فى ايام حياتك قبل ان يحاسبك عليها الديان . هل هيات نفسك واعدت ذاتك ؟ أمامك هذا الوقت فهو كاف لان تصلح فيه أمورك . لا تهتم بالغد لان الغد ليل بهيم لا تعلم ما هو مخبأ فيه . اذا كان لك دين على أحد أفلا تسرع لتقاضيه مخافة ان يموت فيضيع مالك ؟ فلماذا لا تحرص هذا الحرص على نفسك ؟ ولماذا لا تقول « يجب على ان اتوب الى الله قربما أموت حالا اذ الموت والحياة فى يد الله » أليست نفسك ذات قيمة عندك كدراهم والدنانير فى نظرك . ألم تسمع قول السيد له المجد « لانه ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » (مت ١٦ : ٢٦) فلو كان لديك كل غنى

العالم ولكنك خسرت نفسك فانت فقير وبائس . ولكن اذا ربحت نفسك وكنت مجرداً من كل غنى ومجد عالمي فانت سعيد وغني تدبر في نفسك تفهم . لماذا أخفى الله عنا معرفة يوم الموت ؟ ذلك لكي نكون على الدوام متذكرين انقضاء حياتنا وزوالها ولكي نتوقع الموت كل حين . وهذا التوقع يجعلنا ان نحفظ انفسنا من الزلل وان ننظر الى العالم كشئ زائل وهوذا الكتاب ينبهنا كأنه يقول لنا لماذا تتغافلون هل انكشفت لكم أبواب الموت او عاينتم أبواب ظل الهاوية (اى ٣٨ : ١٧)

كتب شيشرون عن ديونيسيوس انه لما سمع أحد رجاله المدعو ذيموكليس يغبط أصحاب الاجاد والاموال أراد ان يوضح له كم يعانى هؤلاء من الشقاء والتعب فأمر اعوانه ان يهيئوا كرسياً من ذهب يحيط به الخدم بلباس بهن ثم أوعز الى ذيموكليس ان يجلس على الكرسي وأمر العبيد ان يكونوا طوع أمره ثم نصب أمامه مائدة ملكية فاخرة وأخذ ذيموكليس يأكل ويشرب ويطرب ويحسد نفسه لانه استحق ان يتمتع ولو ساعة بما يتمتع به أصحاب التيجان : حينئذ رفع وجهه الى فوق فرأى سيفاً قاطعاً ماضياً معلقاً بخيط دقيق فوق رأسه ففي الحال تغير وجهه وجمد الدم في عروقه وأخذته الرعدة ولم تكن المناظر الجميلة المحيطة به كافية لان تنزع الخوف من قلبه ولم تبق له عينا تنظران شيئاً سوى السيف المعلق فوق رأسه ومن ثم طفق يستغيث الى الملك ليأذن له بالفرار والخلاص من ذلك الكرسي

كرسى السعادة لانه لا يريد أن يكون سعيداً . وهذا يشبه حالتنا نحن فسيف الموت معلق على الدوام فوق رؤوسنا . ونحن معرضون فى كل دقيقة لسقوطه علينا فيجب ان لا نجعل الشره يستولى علينا لتتلاذ باطعمة الدنيا وننسى سيف الموت الحاد « بل عظوا أنفسكم كل يوم ما دام الوقت يدعى اليوم لى لا يقسى أحد منكم بغيرور الخطية » (عب ٣ : ١٣)

كتب المستر فرانك كرين يقول « ان احسن ما تجده فى هذه الحياة هو يومك الحاضر . انه كنز عجيب وجوهرة نادرة وكلاهما لك وحدك دون سواك . ان الزمن لا ينقسم الى ثلاثة اوقات . الماضى والحاضر والمستقبل . بل هو قسم واحد لا غير هو « الآن » وانك تستطيع أن تفعل اى شىء اذا عمدت اليه فى يومك الحالى »

وذكر آخر على سبيل المثال « قال النهار للانسان « تعال معي ودعنا نعمل الاعمال سوية » فأجاب الانسان « أية أعمال ؟ » أجابه النهار « الاعمال الجميلة . فصديقك مريض وزيارة منك تخفف عنه آلامه ، وشقيقتك فقيرة وحزينة ويهمها ان تسأل عن حالتها وتأخذ معك بعض الهدايا لأولادها اليتامى . واخوك تائه فى الغابة التى كنتما تلعبان فيها وأنتما صغيران وربما امكنك أن ترشده الى الطريق و . . » فقاطعه الانسان وقال له « هذه اعمال أريد أن اعملها مع غيرك فى المستقبل واما أنت فتعال واجلس هنا بجانبى فانى اريد ان تساعدنى على الحصول على

٥٠٠٠ جنيه » فجلس النهار بجانبه ومرت علمها الساعات الى ان دنا وقت رحيل النهار فهب قائماً وقال للانسان « استودعك الله » فرد عليه الانسان قائلاً « مع السلامة . لماذا تنظر الي هذه النظرة الغريبة ؟ سأقوم بكل ما امرتني به مع احد اخوتك » فقال النهار « لم يبق لى اخوة » وتركه ومضى . ولدى خروجه من الباب التقى بالليل داخلا على الانسان »

ان من اراد الدخول في النهار الى مدينة محاصرة ويده تذكرة مرور يفتح له واذا تأخر الى زمن الليل يمنع من الدخول ولو كرر قرع الباب . هكذا من قرع باب مدينة اورشليم في مساء عمره فلا يفتح له . قال المرتل « يعودون عند المساء يهرون مثل السكاب... اما انت يارب فتمضحك بهم » (مز ٥٩ : ٨٠٦)
 قيل ان احد المصورين كان ماهراً جداً في الرسم الا انه عندما كان يريد رسم انسان كان يبتدىء برسمه من القدم وكان يتفق احياناً ان القماش لا يكفي فتمبقي الصورة بدون رأس او برأس غير كامل وهكذا نرى كثيرين يبتدئون خدمتهم من القدم اى بعمل الامور الزمنية تاركين الرأس اى اعمال التوبة الى الآخر ، قال الرسول بواس « فانظروا كيف تسلكون بالتدقيق لا كجهلاء بل كحكماء مفتدين الوقت لان الايام شريرة » (اف ٥ : ١٥ و ١٦)



الفصل التاسع عشر

في وجوب اغتنام الفرصة

« هذا وانكم عارفون الوقت انها الآن ساعة لنستيقظ من النوم .. قد تناهى الليل وتقارب النهار فلنخلع أعمال الظلمة ونلبس اسلحة النور » (رو ١٣: ١١ و ١٢)

كان أحد الوعاظ يتأمل في قوله « هوذا الآن وقت مقبول . هوذا الآن يوم خلاص » (٢ كو ٦: ٢) استعداداً لعظة يتلوها في الكنيسة فنام ورأى في حلم انه حمل الى جهنم وشاهد الشياطين مجتمعين يأترون على طريقة يقودون الناس بها الى جهنم فقال شيطان أرى ان نجول ونوسوس في صدور الناس بان الكتاب المقدس حديث خرافة وان دعوى الوحى من اباطيل الاوهام . فقال شيطان آخر وما فائدة ذلك والناس يؤمنون بوجود الخالق فلنبذل الجهد في ان تقنعهم بأن لاوجود لاله ولا لمخلص ولا لنعيم ولا لجحيم فيفعلون ما يشاؤون . فقال آخر ان ذلك لاينفع لان الله طبع هذه الأمور على قلوبهم وكتبها على صفحات ضمائرهم فقام من بين الشياطين شيطان مارد وقال كل ذلك لاينفع والافق عندى ان نظوف كل الارض ونترك الناس يعتقدون بوجود الخالق والمخلص ونقول لهم انه سيكون جزاء وعقاب ولكن لا داعي الى الاسراع في التوبة ونجتهد في تأخير توبتهم من يوم الى يوم وكلما عزموا

على التوبة نحرضهم على التسويف فيها ونطمعهم في رحمة الله حتى يموتوا في خطاياهم فسر ابليس وكل جنوده بهذه الحيلة الخبيثة وتفرقوا في كل مكان يحدعون الناس بها .

وفي الحقيقة ان هذا الخداع قد اضل كثيرين فاجلوا توبتهم من يوم الى آخر حتى جاء الموت واختطف نفوسهم الى الجحيم . ولنلاحظ ان اكثر سكان الجحيم ليسوا من الكافرين بل ممن اخدعوا بهذه الغواية ولقد قال احد الحكماء « ان الهالكين برحمة الله اكثر من الهالكين بعدله » فاحذر ايها القارىء العزيز من هذا الشر العظيم واعلم انك لا تعرف ما يأتى به الغد . ربما يأتى وتكون قد فارقت الحياة فاسمع صوت الرب « اليوم ان سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم » (عب ٤ : ٧)

قال احدهم تحت عنوان « الغد لا يأتى ابداً — هوذا الآن يوم خلاص (٢ كو ٦ : ٢) قد قيل ان طريق جهنم معبدة بالنيات الحسنة . الناس يقصدون ان يخلصوا ولكن ليس الآن بل يترقبون وقتاً اكثر مناسبة . يظنون ان الغد يأتى حالا ولكنهم ينسون ان غداً لا يأتى ابداً . ان الغد إما لا يشرق واما لا يغرب على احد اولاد آدم . اما اليوم فهو كل مالنا . هو الوقت المقبول . من يستطيع ان يخبر ماذا يكون في الغد واين نكون نحن حينئذ . فلربما تكون ايها المتغافل رافعاً عينيك في العذاب وصارخاً طالباً نقطة ماء لتبرد بها لسانك المعذب من اللهب » ان فرعون ملك مصر لما قال له موسى متى اصلي من اجلك

لترفع عنك الضفادع قال له « غداً » مع ان الضفادع كانت تعذبه
 (خر ٨ : ٩) وهذا شأن الكثيرين من الذين احاطت بهم الشياطين
 محاولة سلب نفوسهم فاذا سألتهم متى تعزمون ان تنجوا بحياتكم
 فانهم يقولون « غداً » ولكن هيهات ان يحصلوا على هذا الغد .
 ان أم نيرون اذ ارادت ان تردعه عن بذخه المفرط جاءته يوماً
 وهو يب رجلًا ثلثماية الف قرش وبسطت ذلك المبلغ على الارض
 قطعاً متفرقة لكي يبصر بعينه مقدار العطية المتجاوزة الحد .
 وياليت الذين يقولون « غداً » يعرفون كم غد مر عليهم وهم غافلون
 قال احدهم « ما اعظم قيمة الزمن ، كف لا ونحن اذا تصرفنا
 به حسناً حصلنا على الله نفسه » وقال القديس اوغسطينوس
 « ان الابدية عينها لو صرفت كلها في التوبة لما كانت طويلة بالنسبة
 لما يملكه الانسان من الخير بها » قيل ان انساناً صرف حياته
 في نسيان الله تعالى وارتكاب المآثم . فاعتراه داء عضال ذات ليلة
 فصرخ حينئذ قائلاً « اللهم امنحني بعض دقائق من الزمان . اطل
 حياتي الى غد » فلم يحصل على ذلك الزمان اليسير ليرتب امر
 نفسه ويحاسب ضميره بعد ان كان قد أضيع اياماً كثيرة وفرصاً
 عديدة بغير ان يسعى فيها للخلاص

فمن ثم يجب ان نحترس جيداً ولا نفضل قائلين ان لنا عمراً باقياً
 نتوب فيه فكم من كثيرين اجلوا توبتهم ارتكباناً على انهم يتوبون
 في المستقبل ولكنهم ماتوا فجأة ، ومن المؤكد انه ولا واحد منهم
 كان يفكر ان الموت سيدركه بغتة . لا يغرنك الشيطان ويحرضك

على فعل الشر وهو يقول لك « افعل هذه الخطية الآن ثم اندم عليها غداً » بل يجب عليك ان تجاوبه قائلاً « من يعلم ان هذا اليوم ليس هو آخر ايام حياتى . وان لحقنى الموت اثناء ارتكابى هذا الشر فأى ويل وأى تعاسة يحلان لى ؟ » وفضلاً عن ذلك فان الكتاب يقول « اطلبوا الرب ما دام يوجد ادعوه وهو قريب » (اش ٥٥ : ٦)

قال سليمان الحكيم « لان الانسان ايضاً لا يعرف وقته . كالاسماك التى تؤخذ بشبكة مهلكة وكالعصافير التى تؤخذ بالشرك كذلك تقتنص بنو البشر فى وقت شر اذ يقع عليهم بغمة » (جا ٩ : ١٢) فهذا الزمان الذى نحن فيه هو أتمن شئ لدينا ويجب ان نقدره حق قدره فهو كنز عظيم اذا ضاع منا فليس من الممكن ان نستعيضه وسيكون هذا الزمان موضوع نوحنا وندبنا فى جهنم حيث نقول « أواه من يعطينا ساعة واحدة من الزمن لكى نتوب فيها ونرجع الى الله » هذا الزمان الذى نستخف به عميد ان يكون شيئاً مشتمى : ولكن لا يناله احد . فلا ندع فرصة تمر علينا قبل ان نصلح فيها خطانا ونستغفر الله على ما أئتمنا به ونتوب له توبة صادقة تقيّة صادرة من كل القلب « مفتدين الوقت لان الايام شريرة » (اف ٥ : ١٦)

لننهض من رقدة تعامينا ولنفتح ابصارنا لنرى كيف قضينا السنين الغابرة من حياتنا وتندم على ما فات ونعقد اليأس ونوجه العزم الى اصلاح الخلل وتدارك امور النفس قبل فوات

الفرصة ولا نعيش الزمان الباقي في الجسد لشهوات الناس بل لارادة الله (١ بط ٤ : ٢)

ان الزمن الذي نحن فيه ثمين ولم يعط لنا الا لنصرفه في تقديس نفوسنا وجعلها صالحة بين الصالحين في مقام الابرار والصدّيقين .
انه زمن مجهول المقدار لا نعرف أنحن في وسطه او في منتهاه
فمن الممكن ايها الانسان انك لا تكون في الغد بين
الاحياء ولا بين أخوتك وبنيك واصدقائك ولا فوق الارض
التي ملكت . ولا في البيت الذي بنيت ولا امام الدنانير التي
جمعت . بل بين ألوف من الديدان وبقايا من العظام النخرة
في حفرة مظلمة ضيقة . وربما يكون جسدك في هذه الحفرة
ونفسك في حفرة أعمق منها . تراها الحجر المضطرم وحيطانها
اللهيب المحتدم . وها الرسول ينبهنا قائلاً « فسيروا زمان غربتكم
بحوف » (١ بط ١ : ١٧)

البدار البدار ايها المسيحي العزيز الى انتهاب الوقت وصرفه
في تقوى الله وكسب نعمته ورضاه . سيروا أيها المسيحيون في
النور ما دام لكم نور الزمان فسوف يأتيكم ليل الابدية الذي
لا تستطيعون ان تسيروا فيه خطوة واحدة بل تقفون فيه على
الحّد الذي بلغتموه في نهار الزمان . سيروا ما دام بيدكم مصباح
الحياة الى ان تبلغوا ابواب الفردوس حتى اذا هبت ريح المنون
واطفأت مصباح حياتكم تدخلون الجنة بسلام آمين . « لان

زمان الحياة الذى مضى يكفيننا لنكون قد عملنا ارادة الامم «
(١ بط ٤ : ٣)

اعتبر أيها الانسان ان ندامتك ستكون ابدية ما لم تنتهز
فرصة هذه الحياة لتكتسب ملكوت السماء . ليت شعري ماذا
يكون مقدار حزنك لما ترى انه كان يمكنك بقليل من الاجتهاد
في زمن الحياة ان ترجع هذا الملك السماوى الذى خسرت لاجل
لذة وقتية . ما كان أشد غيظ عيسو وما كان أمر أسفه لما استفاق
ورأى ان اخاه الصغير قد اكتسب بكورينته التى باعها اياه بأكلة
عدس فقد كان يتنهد ويبكى وينتحب وهكذا سيكون مصيرك
انت الذى بعت ملكوت السموات لاجل خيرات وقتية زائلة

قل لى يا من تؤجل توبتك متكللا على الرحمة الالهية من
أين تعلم ان هناك يعطى لك زمان لتتوب فيه ؟ كيف تؤجل وقت
التوبة مع كوننا نراك تسرع فى جمع الاموال وارتكاب الشرور .
كيف تسرع الى قضاء الامور العالمية بهذا المقدار واذا طلب
منك عمل صالح فلا نسمع منك الا لفظة « غدا » مع ان المرتل
يقول « أسرع ولم اتوان لحفظ وصاياك » (مز ١١٩ : ٦٠)

ان علة هلاك معظم الناس هو انهم يتوانون عن التوبة
والعمل الصالح عقب سماعهم كلمة الله والرب يقول « تأتى
ساعة وهي الآن » (يو ٤ : ٢٣) . وذكر عن القديس انطونيوس
انه دخل الكنيسة يوما فسمع فصل الانجيل يقال فيه « يعوزك
شئ واحد . اذهب بع كل مالك واعط الفقراء فيكون لك كنز

في السماء وتعال اتبعني حاملاً الصليب » (مر ١٠ : ٢١) فأطاع
في الحال ووزع ماله على المحتاجين وقضى حياته في البرية لا يملك
سوى قوت يومه

ان الكتاب قد حدد وقت الرجوع الى الله بقوله « فالله الآن
يأمر جميع الناس في كل مكان ان يتوبوا متفاضياً عن ازمة الجهل »
(اع ١٧ : ٣٠) وذلك لان الرجوع الى الله حالا هو حسن ومضمون
لخلاص النفس والله نفسه يطلب سرعة رجوعنا بقوله « ارجعوا
عند توبيخي هاأنذا أفيض لكم روحي . أعلمكم كلماتي »
(ام ١ : ٢٣) وقال لوكا « اسرع وانزل لانه ينبغي ان امكث
اليوم في بيتك » (لو ١٩ : ٥) وقد حصل أن كثيرين رجعوا
حالا عندما تأثروا من سماع الكلمة فنالوا الخلاص كيوشيا الملك
الصالح والسامرية وزكا والخصي وكرنيليوس والسجان ولكن
الاسف نرى كثيرين يؤجلون الوقت خادعين ذواتهم

كثيراً ما يعزم انسان على التوبة ولكنه يؤجل حتى ينتهي
من بعض المسائل التي تعيقه . وآخر الى ان يتفرغ من عمل يباشره .
والحال أن اعمال الدنيا ومشاعلها لا انقطاع لها ومسائل الحياة لا
تنتهى قط . والتوبة لا تدخل لها ويجب ان لا تتوقف على مثل
هذه الامور . فمن ينتظر أن يتوب حتى ينتهي من أمور الحياة
هو أشبه بانسان يكون قاصداً ان يعبر نهراً واذ يجد السفينة صغيرة
وامواج النهر تلعب بها يخشى ويخاف من العبور وينوي في نفسه
ان ينتظر حتى ينقطع مجرى النهر . ويعبره بأقدامه ولكنه باطلاً

ينتظر لان النهر لا ييبس وهو تبعاً لذلك لن يصل الى الشاطئ .
 الثانى فتنقضي حياته دون ان يبلغ غايته . وهكذا مسائل الحياة
 لا تنتهي واعمال الدنيا لا تفرغ حتى خروج الروح . ولو فرضنا
 ان مجارى النهر تنقطع فشوق الانسان الى العالم لا ينقطع . ومحبه
 لهذه الحياة لا تجف فكم من مرات سمعنا عن اناس كانوا وهم فى
 حالة المرض الشديد بل وفى وقت الاحتضار مشغولين بأمور الحياة
 ويسألون عنها باهتمام ؟

كم هى المدة التى يضعها الكتاب أماننا ليكون لنا ان نتوب
 فيها ؟ انه يمددها ب « ساعة واحدة » « انكم عارفون الوقت انها
 الآن ساعة لنستيقظ من النوم » (رؤ ١٣ : ١١) كما انه يوجد
 توعده للناس بان الموت يأتيهم بغتة (رؤ ٣ : ٣) قال استاذ لتلاميذه
 « يجب ان تتوبوا قبل الموت بيوم » فأجابوه ومن يعلمنا بيوم
 الموت ؟ فقال لهم « اذاً توبوا من الآن »

لقد يرى واحد نفسه فى مستقبل العمر ونضارة الشباب
 فيقول لا اتقيد من الآن بالدين وأضيق الخناق على نفسى فحينما
 تأتيني الشيخوخة حينئذ أتوب . ولكن هل الحياة مضمونة
 للشبان . كم من الشبان ماتوا فى فجر حياتهم ؟ اذهبوا الى القبور
 واسألوها عن ضمتهم بين جوانحها فتجيبكم « انى اضم الناس
 من كل طبقة ومن كل سن فلا فرق عندى بين شيوخ وشبان
 وأطفال ورجال ونساء الكل عندى على حد سواء »
 وقال أحد الافاضل « لا يفرك ايها الانسان كون سراج

حياتك وهاجاً مستدلاً بذلك على ان فيه زيتاً كثيراً فلا ينطفئ
الا بعد زمن طويل . لان مقدار الزيت الذي فيه لا يعلمه
الا الله وحده وفضلاً عن ذلك فان سراج الحياة يظل مضيئاً بكثير
أو بقليل من الزيت حتى ينطفئ انطفاء لا نور بعده »

وقال احد الحكماء « ان مثل الدنيا كالسفر في طريق أوله المهد
وأخره اللحد . وفيما بينهما منازل معدودة . وان كل سنة كمنزلة .
وكل شهر كفرسخ . وكل يوم كميل . وكل نفس كخطوة . والناس
يسرون فيه متسابقين فالبعض يقطعون كل الطريق بينما يكون باقياً
لغيرهم منها فرسخ أو أكثر أو أقل

ان المسابقة لانتهاز الفرصة حالا هو من أهم الامور الدينية .
ان كثيرين يسابقون في الاعمال الدنيوية التي تهملهم قبل ان يدركهم
الموت ولكنهم لو ماتوا قبل ان يتمموا اعمالهم هذه فلا حرج
عليهم . ولكن يجب ان يسرعوا في اتمام عمل التوبة لانهم
اذا ماتوا بدون توبة قضى عليهم بسجن الهاوية . اما التائبون
توبة حقيقية فلا يهلك منهم واحد

اذا كان روح الله قد أثر فيك وانت تسمع صوت الله بوجوب
التوبة فانهمض اليها بعزم القلب في نفس هذه الدقيقة لتنال نعمة
الخلاص بالمسيح قبلما تذهب الفرصة منك .

اقم قديماً بالمدن اليونانية تمثال كتب عليه شعر بصورة
محادثة بين احد المارة وبينه تشرح المغزى من اقامة هذا التمثال

واليك المحادثة :—

« ما هو اسمك ايها التمثال ؟ »

« يدعو نى الفرصة »

« ومن صنعك ؟ »

« ليسيبوس »

« ولماذا أنت واقف على اطراف اصابعك ؟ »

« لأري اننى لا أبقى الا دقيقة واحدة »

« وما هى الاجنحة التى على قدميك ؟ »

« لأري كيف أمر بسرعة »

« ولكن لماذا هذا الشعر الطويل على جبهتك ؟ »

« لكى يقبض على الناس حينما يرونى »

« اذاً ما سبب صلح رأسك من الخلف ؟ »

« لأري اننى اذا مررت مرة فلا يمكن القبض على »

« فاذاً حسبنا لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع » (غلا ٦: ١٠)

وبما ان الناس ليس لهم مدة ثابتة يضمنون البقاء فيها على قيد

الحياة فيجب عليهم ان يبادروا الى التوبة بدون تأخير . فلا تؤجل

توبتك لئلا يأتى وقت فيه يقفل باب التوبة . وتكون كالذين

عزموا على السفر فى البحر ولكنهم يهملون أخذ طعامهم معهم

ولا يفظنون الى ذلك الا بعد ان يعرضهم الجوع بأنياه اذ

يكونون قد ابتعدوا عن بلادهم ولا يمكنهم الرجوع اليها .

فالانسان اذ ينصرف من هذه الدنيا لا يوجد له هناك مجال

يشترى فيه زيتاً فضلاً عن ذلك فان الاسواق جميعها تكون
قد اقلت

ان الانسان لا يعلم ان كان يعيش للغد أو لا يعيش ومع
ذلك يهمل التوبة راجياً ان يتوب في المستقبل . ان المرء
الذى يرث ميراثاً وافرّاً لا جناح عليه اذا انفق منه شيئاً . اما
الذى ليس له سوى قوت يومه فلا ينبغي له ان يبذر ما هو محتاج
اليه . فهذه الحياة ليس لك فيها نصيب ولا يوم واحد . فلم تتوقع
العام المقبل لتهتم بالتوبة ؟ وكيف تعد نفسك بسعة الايام وطول
الاعوام وأنت فقير من الزمان افتقاراً كلياً ولا تملك منه شيئاً
حتى ولا ساعة واحدة ؟ فلا يندعك هذا الزمان ولا تعش
مغروراً فانك فقير ومسكين . فربما فى هذا اليوم تحرم من هذه
الحياة وتندم بشدة لانك أضعتها هدرّاً فى ما لم تخصص له . لا
تعد نفسك بطول العمر فهذا الامل قد أهلك كثيرين . والله يريد
ان ترجع اليه ولكن فى هذه اللحظة وهي كافية لتوبتك . فلا
تنتظر الغد بل اهتم باليوم لانه يقول « فى وقت مقبول سمعتك
وفى يوم خلاص أعنتك » (٢ كو ٦ : ٢)



الفصل العشرون

في قيامة الاموات

« ان كان الأموات لا يقومون فلنأكل ونشرب لاننا غداً نموت » (١ كو ١٥ : ٣٢)

عقيدة قيامة الاموات أس العقائد المسيحية وعليها تتأسس هذه الديانة لانه اذا بطل رجاء القيامة بطل رجاء الخلاص ورجاء السعادة الابدية والحق انه ان كنا نموت موت البهائم فخير لنا أن نحيا حياتها ونتمتع بكل مشتميات الدنيا . ومثل هذا القول خلاصة أقوال الفلاسفة الايبكوريين . ولكن اعتقاد القيامة الذي يحسبه أعظم الفلاسفة من أفطع ضروب الجبل هو ركن رجاء المؤمنين وسرورهم وما كان موضع الهزء والضحك في أريوس باغوس (اع ١٧ : ١٩) هو موضوع ترانيم النصر للمسيحي في ساعة الموت وعند دخوله السماء

قال أحد الكفرة « الغاية الوحيدة من الوجود على وجه الارض هي التلذذ والتنعيم . هنا السعادة الحقيقية . وما وراء الستار وما بعد الحياة كذب وخداع لا وجود له » فقالت له ام فقدت وحيدها « سيدى . كان لى ولد وحيد . كان عزى وفخرى وموضوع أفراحي وآمالى . فقدته . فاذا كان حقيقة كما تزعم ان السعادة على وجه الارض فقط واما بعد الحياة فلا

وجود لها فكيف يمكننى ان أفرح بعد وفاته وأتعم بالحياة اذا لم
أكن على يقين من انى سأراه يوماً فى جنة الخلود وأمتع العين
برؤياه»

لا يزال كثيرون يصرحون بأن الموت نهاية الحياة وأن من
يموت يعود الى عناصره الاولى فيختلط بعضها بالهواء وبعضها
بالماء وبعضها بالتراب ويصير بعض هذه الاجزاء نباتاً وبعضها
حيواناً ويستبعدون ان يقوم الجسد بعد ذلك ويرجع كما كان. وهذا
جهل عظيم بقدره الله الذي يقول عن نفسه «هل يستحيل على
الرب شيء» (تك ١٨: ١٤)

وحقيقة الخلود والقيامة وان تكن روحية فانه لنا فى ظواهر
المادة وحالاتها ما يبرهن لنا هذه الحقيقة ويقربها من الادراك
والتصديق فاذا كان الانسان فى استطاعته أن يصنع أوراقاً لامعة
شفافة من خرق بالية ويصنع من الرمل زجاجاً وبلوراً. واذا كنا نرى
الاشجار تفقد خضرتها ثم تعود اليها والفصول الاربعة يعود كل
واحد منها بعد ذهابه. والبذرة بعد ان تلتقى فى الارض وتموت
تنبت نباتاً جيداً حسناً. فهل بعد ذلك يعجز الله عن اقامة جسد
الانسان حياً كما كان وهو هو الذى سبق وأوجد هذا الجسد
من العدم

قال السيد المسيح «الحق الحق أقول لكم ان لم تقع حبة
الحنطة فى الارض وتمت فهى تبقى وحدها. ولكن ان ماتت تأتى
بثمر كثير» (يو ١٢: ٢٤) فالبذرة اذاً فى موتها لم تتلاش بل

استعدت للتغيير من حال الى حال هكذا في امر موت الانسان ينقل من هيئة الى هيئة وهو هو بعينه . ان شجرة البلوط الكاملة تختلف في الهيئة والصفات عن البذرة التي نشأت منها ولكن حياتها هي عين حياة البذرة . قال القديس اوغسطينوس « اذا كان ممكناً لله ان يزيد في الحبة جرماً لم يكن فيها قبلاً أفلا يستطيع في القيامة أن يعيد ما كان في جسد الانسان »

وقال احدهم « وحينما ينتهى سفر السائح في هذا العالم يموت ليعيش في عالم أفضل . ليس الموت الا انتقال . ليس الموت طى الجناحين بل اعدادهما لطيران أطول . والموت ليس الاصطدام بصخر مخفى بل هو دخول سريع الى فرصة ظاهرة للعيان »

حكى ان ابنة صغيرة كانت تجول في حديقة حول بيت أبيها فرأت عشاً في شجرة قريباً من الارض فنظرت واذا فيه اربع بيضات منقوشة نقشاً جميلاً كما يكون بيض العصفير عادة فأسرعت وأخبرت أمها بما رأت واتفق أنها ذهبت في اليوم التالى لزيارة بيت عمها وبقيت عندهم اسبوعين ثم عادت الى بيت أبيها وأول شيء فعلته أنها دخلت الحديقة لترى العش فلم تجد فيه البيضات بل وجدت قشورها فخرت لذلك وذهبت تخبر أمها بالامر والدموع ملء عينيها فقالت لها أمها لا تحزنى يا عزيزتى فان أفضل شيء في تلك البيضات قد خرج منها وطار الى السماء والذى بقى منها انما هو قشورها التي لا فائدة منها . وهذا شأن

اجسادنا نموت فتخرج ارواحنا وتذهب الى خالقها وتبقى تلك
الرمم الثاقبة . وقد أدرك المصريون الاقدمون هذه الحقيقة
ومثلوها على هذه الصورة فاننا نجدهم في نقوشهم وصورهم
يمثلون الميت ملقى على سريرته ونفسه خارجة من جنبه في
شكل طائر

وقد دعيت القيامة قيامة الاجساد خوفاً من أن يظن أحد
أن النفس تموت مع الجسد لان النفس خالدة لا يمكن أن يتسلط
عليها فناء

وقد قال الحكيم عن كيفية موت الانسان « فيرجع التراب
(الجسد) الى الارض كما كان وترجع الروح الى الله الذي أعطاها »
(جا ١٢ : ٧) أما أين تكون النفوس بعد الموت فقد ذكر
الكتاب أن ارواح الابرار تكون بعد الموت في الفردوس
مع المسيح لتأخذ عربون السعادة والمجد (مت ١٧ : ٣ ، لو ١٦
٢٢ ، ٢٣ : ٤٣ ، يو ١١ : ٢٦ ، ١٤ : ٣ ، ٢ كو ٥ : ١ — ٨
، في ١ : ٢٣ ، ١ تس ٥ : ١٠) ونفوس الاشعار تحفظ في سجن
الظلام الى حكم اليوم العظيم (لو ١٦ : ٢٣ و ٢٤ ، ١ بط ٣ : ١٩
، ٢ بط ٢ : ٩ ، يه ٦ و ٧) أما مكافأة النفس التقية بالوجود في
السماء ومجازاة النفس التعميسة بالطرح في جهنم فلا يكون الا بعد
أن تلبس النفوس اجسادها لانه عدل هو أن تكافأ النفس في
الجسد الذي أحسنت فيه وتجازى النفس في الجسد الذي اساءت
به فالعيون التي منعت نفسها عن التلذذ بالمنظر العالمية والالسنه

التي ابت أن تذوق لذة الدنيا والآذان التي حرمت ذاتها التمتع
 بأصوات هذا الوجود هي التي ستموز بكل سعادة في
 العالم الآخر . اما الاعين الشريرة والافواه الكاذبة والاعضاء
 الفاسدة فلا بد أيضاً أن تجازي بكل شقاء في الحياة
 الآتية ولا يكون ذلك للنفس وحدها أو للجسد وحده بل
 للنفس اذا لبست جسدها أما قبل القيامة فكلاهما محفوظ
 لتلك الساعة

ففي هذا العالم لا تقوى النفس على اتيان أى أمر بلا الجسد
 فهو الآلة التي به تتم كل شيء والنفس والجسد كلاهما في ارتباط
 كلّي لا يدرك فهكذا بعد انفصال النفس عن الجسد بالموت تعود اليه
 بالقيامة لتسأل عن جميع افعالها وتجازى عليها . ليس من العدل
 أن تكافأ النفس دون الجسد لانه هو الذي قاسى المشقات وقام
 بخدمتها اذا كانت صالحة فتعب وجاهد في احتمال الالاعاب
 والاسهار والاصوام . فيجب أن يشارك النفس في اجمادها
 واذا كانت غير صالحة فهو الذي سقط في الرذيلة وتمتع بالشهوات
 وتلذذ وشبع وينبغي أن يشارك النفس في عذابها . وقال السيد
 المسيح « ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس
 لا يقدرون أن يقتلوها . بل خافوا بالحرى من الذي يقدر أن
 يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم » (مت ١٠ : ٢٨)

فلا بد اذاً من القيامة ليأخذ كل واحد نصيبه كما قال ابراهيم
 للغنى « اذكر انك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر

البلايا والآن هو يتمزى وانت تتعذب» (لو ١٦ : ٢٥) ان ما نراه في هذا العالم كثيراً ما يدهشنا ويحاول ان يفشلنا . نحزن عندما نرى الرذيلة قائمة والفضيلة مكسورة الجناح . نتألم عندما نرى الافاضل محتقرين والاراذل ممجدين فلا بد اذاً من قيامة يخرج بعدها الذين فعلوا الصالحات الى قيامة الحياة والذين فعلوا السيئات الى قيامة الدينونة (يو ٥ : ٢٨ و ٢٩) نعم لا بد من قيامة فيها تتمجد الفضيلة وتندحر الرذيلة ويتمتع الاتقياء ويتعذب الاشرار .

أما الكيفية التي تقوم بها الاجساد فقد سئل عنها الرسول بولس بهذا السؤال « كيف يقام الاموات وبأى جسم يأتون » فأجاب « يا غبي . الذي تزرعه لا يحيا ان لم يمت والذي تزرعه لست تزرع الجسم الذي سوف يصير بل حبة مجردة ربما من حنطة او أحد البواق . ولكن الله يعطيها جسماً كما أراد هكذا ايضاً قيامة الاموات يزرع في فساد ويقام في عدم فساد . . . لان هذا الفاسد لا بد أن يلبس عدم فساد وهذا المائت يلبس عدم موت » (١ كو ١٥ : ٣٥ — ٣٨ و ٤٢ و ٥٣)

فالقيامة اذاً هي تغيير وليست استحالة والجسد المقام يشابه الجسد الذي يموت من بعض الوجوه والا يكون العمل خلية وليس قيامة . واذا كنا ننكر مشابة الاجساد الطبيعية للاجساد المقامة مشابة خاصة فاننا ننكر القيامة نفسها ولكن يوجد فرق بين المشابهة الخاصة والمشابهة المطلقة الكلية لان هذه يتحتم بموجبها

ان كل ذرة دقيقة في الجسد المائت ينبغي ان توجد في الجسد
المقام ويمكننا ان نوضح ذلك بملاحظة الفرق بين جسد الانسان
وقت الطفولية وجسده وقت الشبوية وجسده وقت الشيخوخة
فع انه يختلف عن بعضه في هذه الاعداد الا انه هو الجسد
بعينه لم يتغير بغيره فالجسد المقام اذاً يكون جسداً ولكن
ليس في صورته الطبيعية اذ انه يمنح عدم الفساد والخلود
والروحانية ليكون مناسباً للعالم الابدى فلا يقوم الاعمى اعمى
ولا الاعرج أعرج ولا الضعيف ضعيفاً بل يقوم السكل اصحاء
كاملين

ولكن ما أعظم الفرق الذى سيكون بين اجساد الابرار واجساد
الاشرار التى تقوم وياله من اختلاف جسيم بينهما . قال دانيال النبي
« وكثيرون من الراقدين فى تراب الارض يستيقظون . هؤلاء الى
الحياة الأبدية وهؤلاء الى العار للازدراء الابدى . والفاهمون
يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين الى البر كالكواكب
الى ابد الدهور » (دا ١٢ : ٢ و ٣) فيقوم الابرار باجساد بهية
لامعة لا تحس باى تعب أو شقاء . لن يجوعوا ولن يعطشوا ولا
تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحر (رؤ ٧ : ١٦) ولن تسود
عليهم الشهوة لانهم يكونون كملائكة الله (مت ٢٢ : ٣٠)
ولا يكون جسدهم بعد لحماً ولا دماً (١ كو ١٥ : ٥٠) والفخر
الاعظم والوعد الاكمل انه سيكون كجسد المسيح « ولكن نعلم
انه اذا أظهر نكون مثله لاننا سنراه كما هو » (١ يو ٣ : ٢)

وقال الرسول بولس « الذى سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده » (في ٣ : ٢١)

فيالها من سعادة عظيمة تحيط باولئك الذين صلبوا الجسد مع الاهواء والشهوات (غلاطية ٥ : ٢٤) وما أحسن قول بعضهم في ذلك « يسير المؤمن في هذه الحياة وغايته التمتع بالله ومشاركة الطبيعة الالهية بالصفات الحسنى وتجلياتها المحسوسة بين البشر الى ان يأتيه الموت ولا يكون الموت لمن يؤمن بالخلود الاحادثة بسيطة تفك روحه من اسرها الترابى لتمدها حياة أعظم وأكمل وأمجى فيكون مثله في ذلك مثل دودة تدفن نفسها بشرقتها . تموت بكيانها الظاهر لا لتفنى بل لتقوم فراشة جميلة لها اجنحة تطير بها عن الارض وتخلق في الفضاء حيثما تريد فتكون بظهرها الثانى أجمل وأقوى وأكمل »

فجسد الاتقياء الذى اقع واستعبد (١ كو ٩ : ٢٧) وجسد الشهداء الذى تقطع وتمزق واحترق لا بد ان يعود صحيحاً بل يأخذ اسمى حالات المجد فتضمم الجراحات وتلاّئ بالمد في القيامة . روى بعضهم « انه كان من عادة الرومانيين انه عندما يحضر القائد الظافر الى مدينته يذهب اولا الى بيته خفية فيستريح فيه ويتمتع بأصحابه واهله مدة اسبوع او أسبوعين الى ان يأتي الوقت المعين الذى فيه يخرج من بيته ويدخل المدينة رسمياً وحينئذ يعترف به وتفتح له الابواب ليدخل بالعز والمجد ويسير بموكب حافل في وسط المدينة الى الكلايتول (دار الحكومة)

بين هتاف الفرح وضجات السرور . هكذا أيضاً أولئك القديسون الذين جاهدوا وظفروا وانتقلوا سيقومون الى المجد ويعلن مجدهم في مواكب الابرار وينالون ملء السعادة »

اما الخطاة فيقومون بأجساد مملوءة شناعة ومتشحة بالسواد فتنبعث منها الروائح الكريهة فيألفها من تعاسة شديدة ويألف من حزن مفرط يحيقان بأولئك الهالكين المرذولين عند اتحاد انفسهم بأجسادهم فتذكر النفس عندما ترى الجسد كل ما ارتكبت فيه من الشرور وكل ما استخدمته فيه من المعاصي فتقول له « ايها الجسد الملعون اني لاجل رغبتى فى ان انعمك هلكت » فيجوابها قائلاً « ايتها النفس اللعينة الشقية . انت التى كنت حاصلة على العقل والفضة فلماذا تنازلت معي وساعدتني على ارتكاب كل تلك الشرور الى سببت لى الهلاك الابدى »

أما كيف تكون القيامة فيقول الرسول بولس « فى لحظة فى طرفة عين عند البوق الاخير . فانه سيبوق فيقام الاموات عديمي فساد ونحن نتغير » (١ كو ١٥ : ٥٢) وقال السيد المسيح « فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الاربع رياح من اقضاء السموات الى اقضاءها » (مت ٢٤ : ٣١) فتمى صدر أمر الله الى ملائكته باحضار جميع بنى البشر حينئذ تنحدر قوته الى أعماق القبور فتنبعث العظم الرميم . وكل من اجساد مندثرة ضمن طيات الارض ولكن الله الذى يخبئنا عنه الكتاب انه هو الذى يحيى الموتى ويدعو الاشياء غير الموجودة

كأنها موجودة (رو ٤ : ١٧) يأمر جميع الناس قاطبة ان يقوموا حينئذ يسلم البحر الاموات الذين فيه ويسلم الموت والهاوية الذين فيهما (رؤ ٢٠ : ١٣) وهكذا تأخذ البرية أن تلد ميلاداً جديداً وهذا العمل العجيب لا يحتاج الى سنين متعددة لان قدرة الله لا تقف عند زمان ولا مكان بل كما قال الرسول بولس « في لحظة » . أجل . حينما يصدر الامر الالهي بانتهاء العالم ينتهى فى الحال « من أجل ذلك فى يوم واحد ستأتى ضرباتها موت وحزن وجوع وتحترق بالنار لان الرب الاله الذى يدينها قوى » (رؤ ١٨ : ٨) والارض والسموات تبس كثوب تبلى كرداء يطويها فتتغير (عب ١ : ١٠ - ١٢) وقال الرسول بطرس « ولكن سيأتى كلص فى الليل يوم الرب الذى فيه تزول السموات بضجيج وتنحل العناصر محترقة وتحترق الارض والمصنوعات التى فيها » (٢ بط ٣ : ١٠)

حينئذ تنقطع اصوات العصافير المغردة وينقطع هتاف الطرب والسرور وتقف حركة الحياة فلا تعود تسمع صوت فأس الخطاب كما فى ايام العصور الاولى ولا دوى الآلات صادراً من شوارع العمل . وكيف التلميذ عن التأمل فى كتبه والمصور عن التفرس فى جلال الشمس وقت الغيب وينقطع الخطيب قبل انتهاء خطابته ويصير فوق استطاعة الشاعر ان يحرك الاوتار الخالدة ويخلع الملك ثوبه الارجوانى ويضع الفلاح معوله ولا يكون هناك حاجة بعد للعلماء ، وسيف الغضب المعلن والذى كان ممنوعاً عن

العمل مدة فتح باب للتوبة يعود فيتم عمله بقوة مهلكة على عالم فاجر . ويقفل باب التوبة في وجه كل من لم يدخله قبل ذلك . نعم فكل ما نراه في هذا العالم من الفساد والشر والظلم والنفاق سينزول عما قريب

فهي يا ملائكة الله انذروا الخطاة يوم الدينونة العظيم . واطلمي ايها السماء واحجبي عنهم انوارك واهطلي ايها النار من العلاء واحرقى مقتنياتهم وانقضي ايها الارض من اسفل واتلعى جميع قصورهم . فهذه هي النهاية التي تضمحل فيها كل المدن والقرى والممالك والقصور والحصون . هذه هي النهاية المزمعة أن تلاشى كل غنى وكل مجد عالمي وتنعمت زمنية « قد جاء الوقت . بلغ اليوم فلا يفرحن الشارى ولا يحزنن البائع لان الغضب على كل جمهورهم » (حز ١٢ : ٧)

قال القديس يوحنا فم الذهب « انى لما أتأمل مجيء الديان وكيف تصرخ الابواق بصوت عظيم وكيف تفتح القبور وكيف تفرغ اللحود وكيف ينشر الاموات من القبور كالمستفيقيين من الرقاد . وكيف ترجع الانفس الى اجسادها فعند ما أفكر بهذا ياأخوتى اغبط وامدح المنتظرين المنتبين واندب وانتحب على الغافلين المهملين »

أجل في ذلك اليوم يخرج كل انسان من الجوف الذى ضمه واسكن ما أعظم الاختلاف بين الحالتين . حالة الناس قبل القيامة وحالتهم بعدها . فترون ذلك الذى كان بالامس يرجف العالم

منه خوفاً ورهبة في غاية الفزع والاضطراب . قد فارقه بأسه
وكل مجده فيسأل أين سلطى وجاهي . أين عظمتي وأهتي ؟ فيجواب
« أنت لم تخرج من لحدك لتعود الى مجدك الاول بل لتساق
للمحاكمة »

قال الرائي « ونظرت لما فتح الختم السادس واذا زلزلة عظيمة
حدثت والشمس صارت سوداء كمسح من شعر والقمر صار كالدم
ونجوم السماء سقطت على الارض كما تطرح شجرة التين ثمرها
اذا هزتها ريح عظيمة . والسماء انفلقت كدرج ملتف وكل جبل
وجزيرة ترحزها من موضعها . وملوك الارض والعطاء والاغنياء
والامراء والاقوياء وكل عبد وكل حر اخفوا أنفسهم في المغاير
وفي صخور الجبال . وهم يقولون للجبال والصخور اسقطي علينا
واخفيينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الخروف .
لانه قد جاء يوم غضب—ه العظيم ومن يستطيع الوقوف »
(رؤ ٦ : ١٢-١٧)

قد كانوا في الحياة الاولى مفتونين بالشهوات ومغرمين
بالنجاح ومتملئين بالذات أما الآن فقد ماتت فيهم تلك
العواطف المهلكة ولم يبق لهم الا الخضوع للقوة القادرة التي
تسيطر عليهم حينئذ ليجابوا عما أتوه في حياتهم على الارض .
ترى أين يفر الخاطيء من ذلك الهول ؟ قد يحاول ان يلتجئ
الى القصور الشائخة والابراج الحصينة ولكنها حينئذ تكون
قد هدمت . ولعمري كيف يكون حال اولئك وهم يرون قصورهم

التي تعبوا في هندستها ونقشها تلتهمها النار التهاماً . وماذا يكون
 شأن التجار وهم يرون اللهب يدخل مخازنهم ويأكل ما بها .
 أجل سيسمع حينئذ بكاء وعويل لم يعرف منذ انشاء العالم .
 ستدوس المرأة ولدها الرضيع وهي لا تشعر ويهمل الاب ابنه
 وهو لا يدري . أجل هو يوم بوق وهتاف على المدن المحصنة
 وعلى الشرف الرفيعة (صف ١ : ١٦) أما الابرار فلن يدنو
 منهم شر ولا يقترب منهم خطر بل يخطفون جميعاً لملاقاة الرب
 في الهواء (١ تس ٤ : ١٧)

الفصل الحادى والعشرون

في يوم مجيء الرب العظيم الثانى

« لان يوم الرب عظيم ومخوف جداً فمن يطيقه ؟ » (يو ٢ : ١١)

لقد جاءت ايام عديدة على العالم اشتد هولها وعظم خطرها
 كيوم الطوفان ويوم احراق سدوم وعمورة ويوم قتل اطفال
 بيت لحم وكم من ايام حدثت فيها زلازل وبراكين اهلكت ما
 لا يحصى من النفوس وهدمت البيوت الشاخنة وأزالت عز مدن
 عامرة ولكن هذه الايام ظل وخيال ليوم الرب العظيم الذى يأتى
 فيه ثانية في مجده (مت ٢٥ : ٣١)

لقد اتى المخلص أولاً وديعاً متواضعاً فاتخذ العالم من اتضاعه

سبباً لاحتقاره واذلاله ، وأتى ليسكب على الناس فيض رحمته فاتخذ العالم من رحمته سبباً ليسيء الى هذا الاله الجليل الصبر والجلود . فمن الواجب اذاً في مجيئه الثاني ان يأتي ليصلح هذين الجرمين اللذين اجرم بهما البشر فيأتي أولاً بعظمته وثانياً بعلله . فهذا الخروف الوديع الذي بصبر عجيب في هذه الحياة احتمل من الخطاة اهانات وافتراءات عديدة يصير أسداً مفترساً ، مجرد النظر اليه يولى الخطاة رعباً ويلبسهم ثياباً من الخوف والرجز دون أن يكون لهم أقل أمل في الرحمة . ان الخطاة لا يعرفونه الآن بل يظهر لهم انه اله لا يبصر الاثم او لا يبنضه او كأنه لا يشعر بما يهان به اسمه القدوس . الا انهم سيعلمون وقتئذ ان الله يبغض الخطيئة بغضاً عظيماً

ان حزقيال النبي رأى في رؤياه كرويين لكل منهما وجهان الوجه الواحد وجه انسان والوجه الثاني وجه أسد (حز ٣١ : ١٨ و ١٩) وهذا يمثل لنا أنهم تمثيل سيدنا يسوع المسيح المتصف بوجهين الاول وجه انسان أنيس حلیم وديع وهو الذي ينظر به الى الخطاة منذ مات عنهم الى يوم القيامة والوجه الثاني وجه أسد وهو الذي يلتفت به اليهم يوم الدينونة

قال المرتل « الرب قد ملك فلتبتهج الارض ولتفرح الجبال الكثيرة . السحاب والضباب حوله . العدل والحق قاعدة كرسيه قدامه تذهب نار وتحرق اعداءه حوله . اضاءت بروقه المسكونة . رأت الارض وارتعدت . ذابت الجبال مثل الشمع قدام الرب

سيد الارض كلها . أخبرت السموات بعدله ورأى جميع الشعوب
مجده » (مز ٩٧ : ١ - ٦)

ان الملك اذا عزم على ان يدخل مدينة طائعة يدخلها بالحبة
ومعه عساكره وهم لا بسون ثياب السرور وحلل الافراح ويقبلون
على تلك المدينة بالسلام والتحية والتكريم وكل محبة . أما اذا
كانت المدينة عاصية فيوافي مغضباً عليها وعساكره مدججة بالسلاح
لمحاربتها بشدة وقساوة . وهكذا ربنا يسوع ملك المجد كان مجيئه
الاول بصلح وسلام الى العالم . وملائكته اهدوا المسكونة التحية
قائلين « وعلى الارض السلام » (لو ٢ : ١٤) واما مجيئه الثانى
فانه سيكون بروح الشدة والغضب لانه يأتى للانتقام والمجازاة
وتعذيب الخطاة

فينذاك يصح القول « اين مراحمك القديمة » ؟ كنت اراك
في مجيئك الاول وديعاً متواضعاً كالحمل واليوم أراك قوياً مزججراً
كالاسد . كنت أراك تفتح ذراعيك ليقبل اليك الخاطيء واليوم
اراك تطرده الى النار المؤبدة . كيف استجحات تلك المحبة الى
بغضة ؟ انها هي الخطيئة يا الهى التى جعلتك تغضب ويحق لك أن
تغضب على مرتكبىها لانك سبقت ومت لاجلهم

انه قبل ان تحرب اورشليم حسب نبوة الخلص على يد تيطس
الرومانى سبق خرابها بعض حوادث دنت عليه فظهر نجم ذو ذنب
يشبه سيفاً مجرداً . وظهر رجل جعل يطوف قبل فتح المدينة

بأربع سنين الشوارع والازقة كالمجنون وهو يصيح « صوت
 من اربع جهات العالم صوت على اورشليم . صوت على الهيكل
 صوت على الحصن . صوت على جميع الناس » وهكذا يسبق مجيء
 المخلص ما يدل على رهبته فتمتدح الشمس والقمر والنجوم والافلاك
 على مقاومة العالم واعلان غضب الديان الآتى على السحاب بقوة ومجد
 عظيم فتظلم الشمس والقمر وتحدث زلازل عظيمة وتنحل العناصر
 وتضطرب الجمادات وهذه المخلوقات ولو انها لم ترتكب خطيئة
 أو تبشر ذنباً غير ان الله لى يظهر عظمة دينوته سيفنيها لأن
 الاشرار اتخذوها آلات لتنفيذ ما ربههم فيهلك الارض لانها
 حملتهم ويفى النور لانه أضاء لهم وهم مستغرقون فى الخطية « ولولوا
 لان يوم الرب قريب قادم كخراب من القادر على كل شىء . لذلك
 ترحنى كل الايدى ويذوب كل قلب انسان » (اش ١٣ : ٧ و٦)
 فياله من فرق عظيم بين يوم قيامة ابن الله من القبر وبين اليوم
 الذى يجيء فيه ليدين العالم فى اليوم الأول كان ينادى لكل انسان
 بالسلام وفى الثانى يرسل صوته بغضب فيزعج كل المسكونة
 ماذا يكون فى ذلك الوقت حال الانسان غير التائب الذى
 كان متغافلا عن الامور الروحية ؟ ألا ينزعج قلبه وترتعد فرائضه
 حينما يرى علامات قرب مجيء المسيح للدينونة وماذا يعمل
 حينئذ اذ يرى الاعمال العالمية قد بطلت . وان ائمن وأعز خيرات
 الدنيا قد أصبحت عديمة القيمة والفائدة . وكيف يكون حاله حينما

يرى الرب يسوع الذي طالما ازدري بانجيئه واستهزأ بوصاياه آتياً
 في السحاب ليضع اعداءه تحت موطى قدميه ، ألا يقول للجبال
 اسقطي علي وللا كام غطيني من وجه الجالس على العرش ومن
 غضب الخروف . لانه قد جاء يوم غضبه العظيم ومن يستطيع
 الوقوف (رؤ ٦ : ١٦ و ١٧)

فعلى هذا الشكل المريع يظهر الديان العادل والغضب يتقدمه
 وذلك دليل على مبلغ الصرامة الى سيدين بها العالم حتى أن
 مجرد رؤية يسوع قادماً في غضبه لهي أشد من عذاب جهنم . قال
 ملاخي النبي « فهوذا يأتي اليوم المتقد كالتنور وكل المستكبرين
 وكل فاعلي الشر يكونون قشاً ويحرقهم اليوم الآتي قال رب الجنود
 فلا يبقى لهم أصلاً ولا فرعاً » (ملا ٤ : ١)

أى خجل وأى خوف يشعر بهما انسان يقف أمام ملك اهانته
 أو قاض تعدى عليه وأية رعدة تعتري العبد حينما يرى سيده
 ناقماً عليه بغضب شديد وكم يداخل من الرعب والاضطراب تلك
 النفس التي تكون قد احتقرت يسوع واذدرت به عندما تراه آتياً
 ليدينها . قال زكريا النبي « فينظرون الى الذي طعنوه وينوحون
 عليه كمنائح على وحيد له ويكونون في مرارة عليه كمن هو في
 مرارة على بكره » (زك ١٢ : ١٠) ذكر أن الباشق يخيف انواعاً
 من العصافير خوفاً شديداً حتى أنها عندما تراه تحاول التخلص
 منه ولو بزج نفسها في بئر عميق أو أتون متقد وهكذا

في يوم الدينونة يتمنى ان يفعل الهالكون ويختارون أن يطرحوا في أعماق اللجج لو كان ذلك ينجيهم من الامثال امام رب القوات وقد سل عليهم سيف الانتقام. قال الكتاب الالهي « وفي تلك الايام سيطلب الناس الموت ولا يجدونه ويرغبون ان يموتوا فيهرب الموت منهم » (رؤ ٩ : ٦)

قال الرب عن كيفية مجيئه « وحينئذ يبصرون ابن الانسان آتياً في سحابة بقوة ومجد كثير » (لو ٢١ : ٢٧) فياله من مشهد قاس على الخطاة حينما يرون ان الديان هو هو الذي مات على الصليب لأجل خلاصهم . وانه هو هو بعينه الذي طرحوا كلامه خلفهم ، وما اعظم الخزي الذي يستولى على الخاطيء حينئذ وما اشد نحسات ضميره . فخلصنا سيأتي للدينونة بالجسد الذي مات به وبالجراحات التي اراها لتلاميذه عقب قيامته . فينظر اليه الابرار بفرح لانهم نالوا الخلاص بهذه الجراحات وينظر اليه الاشرا بخوف عظيم لانهم لم يعملوا ليستفيدوا من هذه الجراحات شيئاً انه حينما مثل اخوة يوسف امامه في مصر وقال لهم « أنا يوسف اخوكم الذي بعتموه الى مصر » يقول الكتاب « فلم يستطع اخوته ان يجيبوه لانهم ارتاعوا منه » (تك ٤٥ : ٣ و ٤) قال القديس اوغسطينوس « ان السيد المسيح قد اختفى في مجيئه الاول تحت حجاب ناسوته ولكنه سيأتي في يوم الدينونة بلاء لاهوته . فاذا كان جل شأنه في حالة ترديه ضعفنا جعل اعداءه يسقطون على

الارض بكلمة واحده منه عندما قال لهم في ليلة آلامه « أنا هو » (يو ١٨ : ٦) فإذا يحدث اذا لاح في مقدمة الجيش السماوى بكل عزته وقدرته . انه يرفع صوته بصيحة أرهب من أصوات الرعود ويكرر كلامه السابق قائلاً « أنا هو » انا هو الذى اهتتموه وكفرتم به وصلبتموه . « أنا هو » « هوذا اسم الرب يأتى من بعيد غضبه مشتعل والحريق عظيم . شفتاه ممتلئتان سخطاً ولسانه كنار آكلة » (اش ٣٠ : ٢٧ — ٣٣)

ان الاسرائيليين لما شاهدوا البروق والرعود فى جبل سيناء داخلهم الخوف جداً وقالوا لموسى « تكلم أنت معنا فنسمع . ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت » (خر ١٩ : ٢٠) فكيف يعمل الخاطيء عندما يرى علامات ذلك اليوم ولا سبيل امامه للهرب ؟ ان آدم حينما سمع صوت الرب بعد المخالفة اختبأ بين الاشجار . أما الشرير فلن يجد له ملجأ بين الشجر لانها حينئذ تحترق باغصانها من هيبه الرب ..

قال الكتاب « فارتجت الارض وارتعشت اسس الجبال . ارتعدت وارتجت لانه غضب . صعد دخان من انفه ونار من فمه اكلت . جمر اشتعلت منه . طأطأ السموات ونزل وضياب تحت رجليه . ركب على كروب وطار وهف على أجنحة الرياح . جعل الظلمة ستره حوله مظلمته ضياب المياه وظلام الغمام . من الشعاع قدامه عبرت سحبه . برد وجر نار . أرعد الرب من السموات

والعلی أعطی صوته برداً وجر نار . أرسل سهامه فشتهم وبروقاً
كثيرة فأزعجهم » (مز ١٨: ٧-١٤)

فإذا يقول حينئذ أولئك الذين قدم لهم المسيح ذاته
وافتداهم بألامه المقدسة وموته ولم يخلصوا له بل اساؤا اليه
بخطايا متعددة مزدرين بدمه المسفوك « فكم عقاباً أشر تظنون
انه يحسب مستحقاً من داس ابن الله وحسب دم العهد الذي قدس
به دنساً وازدري بروح النعمة فاننا نعرف الذي قال لى الانتقام
انا أجازى يقول الرب. وايضاً الرب يدين شعبه . مخيف هو
الوقوع في يدي الله الحى » (عب ١٠: ٢٩ - ٣١)

اننا نجد في هذا الزمن كثيرين من البشر لا يخافون يسوع
ولا يهابونه كما يهابون احقر الناس . انهم يخشون ان يقترفوا
اثماً ضد أحد فيدفعه الغيظ الى الانتقام منهم ولكنهم يرتكبون
مخالفة الله والتجديف على اسمه بغير مبالاة « القائلين لله ابعد عنا
وماذا يفعل التقدير لهم » (اي ٢٢: ١٧) « لذلك تقلدوا الكبرياء
لبسوا كثوب ظلمهم . جحظت عيونهم من الشحم . جاوزوا
تصورات القلب . يستهزئون ويتكلمون بالشر ظالماً من
العلاء يتكلمون . جعلوا افواههم فى السماء والسننتهم تتمشى فى
الارض . . وقالوا كيف يعلم الله وهل عند العلى معرفة »
(مز ٧٣: ٦-١١)

فلأجل ذلك قد خصص يسوع يوماً معيناً وهو يوم

الدينونة العامة الذى فيه يعلن يسوع ذاته ليعرف الجميع انه هو السيد العظيم المطلق التصرف . ومن ثم لا يدعى هذا اليوم يوم رحمة أو يوم رأفة أو يوم غفران بل يقول عنه صفنيا النبي « قريب يوم الرب العظيم قريب وسريع جداً . صوت يوم الرب . يصرخ حينئذ الجبار مرأ . ذلك اليوم يوم سحق يوم ضيق وشدة يوم خراب ودمار يوم ظلام وقتام يوم سحب وضباب . . . وأضايق الناس فيمشون كالعمي لانهم أخطأوا الى الرب فيسحق دمهم كالتراب ولحمهم كالجلة . لا فضتهم ولا ذهبهم يستطيع انقاذهم في يوم غضب الرب بل بنار غيرته تؤكل الارض كلها . لانه يصنع فناء باغثاً لكل سكان الارض » (صف ١ : ١٤ - ١٨)

ونور المسيح في ذلك اليوم سيكون للابرار سروراً وبهجة وللأشرار حزناً عظيماً وكدرأً جسيماً فيمكون بكاء مرأً وينتحبون انتحاباً شديداً لانهم لم يعملوا لينتفعوا من موته العظيم ليتطهروا بدمه الثمين . وعند مشاهدتهم جلال مجده السماوى وسمو بهاء عزته الربانية يطأطئون رؤوسهم ويحنون هاماتهم تحت موطيء قدميه . قال القديس يوحنا فم الذهب « في ذلك اليوم يهمل الانسان كل الكنوز التى جمعها ويذهب الى هناك عرياناً ذليلاً عابساً خائفاً : ويقف الجميع في موقف الدينونة الرهيب حيث ترتجف الملائكة . حيث تنفتح اسفار اعمالنا حيث الدود العديم

الشفقة وحيث الزمهرير القارص حيث النوح الذي لا عزاء بعده
حيث الدموع المنهملة كالطل . حيث الظلام الحالك . فماذا عسانا
نحتمل حين نقف حاملين اثقال خطايانا على اعناقنا فترى في تلك
الساعة تلك اللسن المتكلمة بالالحاد وبالباطل تلتهب في السعير .
التهاباً متواصلاً . واسنان النامين تصر ندماً وحسرة . وافواه
المجدفين تسد بجمر النار المضطربة وأيدي محبي الفضة ترتعش
كالتقصبة المروضه . والاعين التي كانت تألف نظر الشر لا ترى
إلا اللهب المشتعل والعذاب المر

« فإين عند ذلك الانسباء والاهل ؟ أين حينئذ الاب
الشفوق ؟ اين حينئذ الام المتحننة ؟ اين الاخوة الاحباء ؟ اين
حينئذ سلطة ملوك الارض ؟ اين الذين كانوا يجحدون العقاب ؟
فكم من ندامة تستحوذ عليهم وكم يندبون وينوحون ولا أحد
يرحمهم وكم يتنهدون ولا من يشفق عليهم . فياله من حزن مفرط .
الأجل لذة وقتية ومجد حقير زائل نحرم انفسنا من ذلك المجد
الحقيقي ونورثها العذاب الابدى الذي لا يطاق ؟ »



الفصل الثاني والعشرون

في الدينونة العامة

« ان كنت تراقب الآثام يارب يا سيد فمن يقف » (مز ١٣٠: ٣)

ان كثيرين يعتبرون الدينونة العامة ضرباً من ضروب الخرافات ولذلك لا ترى في اخلاقهم تحسناً ولا في سلوكهم استقامة لانه ما من احد يعتقد « ان كل كلمة بطلاة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين » (مت ١٢: ٣٦) ومع ذلك يعمن في شره ويقيم في اثمه . فهل فينا من يصدق بالدينونة العامة ؟ كثيرون يقولون نعم . ولكن ما هي الاعمال التي تتمونها لتكسبوا بها الفخر في ذلك اليوم ؟ هل التوغل في محبة العالم . والانهماك العظيم في ملاذه . والسعي المتواصل في طلب مجده ؟ . اذا كنتم تريدون ان تعرفوا هل انتم تصدقون بالدينونة العامة أم لا تصدقون فعليكم بفحص تصرفاتكم لتروا انفسكم انكم اذا دعيتم لما يخص اجسادكم واميالكم البدنية سارعتم وعدوتم . واذا طلب منكم ان تعملوا امراً يرضي الله انتحلتم الاعذار التي بها تعتذرون وضيق الصدر الذي يستولى عليكم . ان الذي يشعر بانه مززع ان يقف امام قاض في محكمة عالمية لا يظهر اهمالا في

الاستعداد مثل اهل الكم انتم الذين ستقفون أمام القاضي العادل
في محكمة الديونة الرهيبة

قال أحدهم « كيف تقولون انكم تؤمنون بوجود ديان
سيدينكم على افعالكم وانتم لا تعملون له حساباً ؟ فان كنتم تؤمنون
ان المسيح سوف يدينكم فحسناً تفعلون . ولكن لماذا لا تخافونه
ولماذا تجدفون عليه في حين سخطكم . وتحلفون باسمه زوراً .
وتغيظونه وتحزنونه في ملاهيكم . لماذا تفضلون بشري على رضاه ؟
ولماذا تؤثرن تركه على ترك عشرة دنسة تملون اليها ؟ ولماذا
تصرفون الاموال الباهظة على اسباب الفساد ولا تقدمون منها
اليسير لديانكم ؟ اتجسرون على اتيان هذا العمل مع واحد تعرفون
انه سيدينكم ؟ كيف لا وانتم حتى في الكنائس تستهينون به
فتضحكون وتمزحون بل تسجدون لاصنامكم المقيمة في قلوبكم وهو
قائم أمامكم »

قال الرائي « ورأيت الاموات صغاراً وكباراً واقفين أمام
الله » (رؤ ٢٩ : ١٢) فسيحضر اذاً جميع البشر ليدانوا سواء
رضوا أو لم يرضوا . وليس أحد من أعظم ملوك العالم يسمو بهذا
المقدار حتى يترك . وليس احد من أحقر فقراء العالم يكون دنيئاً بهذا
المقدار حتى يهمل . ففي هذا المحشد الذي سيحشد للدينونة
سياًتى الشيوخ والاحداث ، الاقوياء والفقراء ، الاسرى والامراء ،
العبيد والاحرار ، وبالجملة عموم الجنس البشرى
فما أعظم هذا الجمهور فالجمع بدون استثناء سيقفون امام

كرمي الديان ليعطى كل واحد حساباً عما صنع خيراً كان أم شراً .
وما أشد صعوبة تلك المحاكمة ولذلك يقول المرتل « لاتدخل في
المحاكمة مع عبدك » (مز ١٤٣ : ٢)

ان القائد المنتصر يرجع الى المدينة فرحاً يعدد مفاخر انتصاره
وبعكس ذلك القائد المنكسر فانه يرجع مطاطيء الرأس ذليلاً وربما حدا
به الخزي الى الانتحار . فهكذا يقف البار في يوم الدينونة كقائد
حارب وانتصر يفتخر بما تعب في سبيل الصلاح وأما الخطائي
فبماذا يفتخر . كان في الحياة يفتخر بشروعه وأما هنا فماذا يقول
هل يتباهى بانه جمع ثروة طائلة لاجلها كان يوقره أناس . هل يفتخر
بانه سمى حتى نال اسمى الرتب وحظي بأجل المراكز . هل يفتخر
بانه تمتع بكل الشهوات والملذات ؟ كل ذلك قد انتهى أوانه ولم
يبق الا ان يحتمل عقابه

فما ظنك اذا أيها الانسان ؟ الدينونة آتية ولا ريب ومقبلة
ولا شك . فعلى أى شيء تتكل ؟ أعلى رحمة الله ؟ كيف لا وقد ملائكة
الله بها حتى فاضت . وتظن ان الله سيحاسبك على سيئاتك فقط ؟
كلا . تأمل . اذا جلس الديان العادل للمحاكمة يضع أمام عينيك
من الجهة الواحدة كل ما فعلت من الشر وكل ما اهملت من الخير
ومن الجهة الاخرى يضع أمامك حسناته الكثيرة التي جاد عليك
بها ورحمته الوافرة التي غمرت بك . يريك كل البلايا التي خلصك
منها وكل الخيرات التي تفضل عليك بها حتى تقابل بنفسك
الأحسانات التي وهبها لك مع الخطايا التي كنت تقدمها له

فيها من خيبة وعار عظيمين وياله من خزي لا يوصف لمن يرى مديوناً لذلك الديان العادل . فالى اين يهرب ؟ ينظر الى فوق فيرى الديان مستشيطاً من الغضب والى اسفل فيرى جهنم مفتوحة لا بتلاعه « من يقف أمام سخطه ومن يقوم فى حمو غضبه . غيظه ينسكب كالنار والصخور تهدم منه » (نا ١ : ٦)

قال بعضهم « لا تروعن الرعود العظيمة ولا امطار النار المتكاثرة ولا الصواعق المهلكة ولا السواد المدهم الذى تتسربل به الشمس بقدر ما يروعن وقوفى بنجل عظيم أمام الله والناس وانا احمل خطايى »

ان عبيد داود الملك الذين خلق نصف لحامهم ومزقت ثيابهم لم يستطيعوا ان يظهروا امام الناس (٢ صم ١٠ : ٥) فكم بالحرى الذين جردهم الشيطان من كل فضيلة وابعدهم عن كل صلاح وهم يظهرون أمام الخليقة بهذا المظهر والشيطان يجذبهم امام الله كأنهم اسراء وغنائمه . وحقاً ما قاله دانيال النبي « وكثيرون من الراقدين فى تراب الارض يستيقظون الى العار للازدراء الابدى » (دا ١٢ : ٢)

وقد ذكر عن ييوس أحد أعيان روميه انه لما جيء به الى محفل الشيوخ المشيرين لحاكمته وعين الخلق الذين أتوا للمشاهدة المحاكمة اخذ منه الخجل مأخذاً عظيماً عندما شرع القاضي يستجوبه ولم يقو على احتمال وقوفه هذا الموقف فاستل مديّة كان قد أخفاها تحت ثيابه وطعن بها نفسه فخر صريعاً ولكن هيهات ان يكون للاشرار

في يوم الدينونة قدرة على اماتة انفسهم ليتخلصوا من ذلك العار الذي لا يوصف

سيكون خجل الاشرار في ذلك اليوم عظيماً وسيكون لهم من الحزن والضيق بقدر ما يكون للابرار من الفرح والسرور ويزداد خزيهم وعذابهم عندما يقارنون بين حالتهم وحالة الابرار الآن وبين الحالة التي كان عليها كل منهما في الحياة فيتذكرون الغنى الباطل والمجد الكاذب والملاذ الدنيئة التي كانوا بها يتلذذون والتي كانوا يفتخرون بها على اولاد الله ويدركون ان مالحقهم الآن من العار العظيم انما كان بسببها بينما تحولت أحزان المؤمنين الى سلام خالد .

وهل يستطيع أى خاطيء أن يعتذر ؟ هوذا المخلص قد أقام الابرار ليدين بهم الاشرار . قال الرسول بولس « أستم تعلمون ان القديسين سيدينون العالم » (١ كو ٦ : ٢) وكيف ذلك ؟ أيقدر أشقى الخطاة أن يقول في يوم الدينونة الرهيب يارب انك كنت تخلص أصاغر الخطاة فقط فلم تجاسر على الاتيان اليك لاني كنت من أشر الخطاة نوعاً فلذلك مت باليأس ؟ وهب انه وجد من يقول ذلك أفلا يظهر له زكا العشار وهو يقول لقد كنت اشقى الخطاة ومع ذلك قبلني المسيح . ولنفرض ان لصاً اقترب من المسيح قائلاً يارب كانت خطيئتي السرقة فظننت انها من الخطايا التي لا تقبل توبة عنها ولذلك لم اتقدم اليك في الحياة تائباً ملتمساً المغفرة ولكن عندما يحدق ببصره وينظر اللص الذي خلس على الصليب

جالساً بجانب السيد بلباس بهي فماذا يكون موقفه ؟ وإذا قال الزانية
لقد كنت اعتبر خطيئتي أعظم من أن تغفر ولذلك لم أتقدم إليك
ملتصماً بالخلاص فإنه يرتد خائباً عند ما يرى راحاب الزانية والمرأة
الخاطئة اللتين قبل المسيح توبتهما وغفر لهما

وليس ذلك فقط بل سيكون خزي الخطاة من المسيحيين عظيمًا
حينما يواجههم الله بكثيرين من الوثنيين الذين كانوا لا يعرفون الله
مدة طويلة من حياتهم ولكنهم عندما سمعوا صوته اطاعوه وتابوا
عن خطاياهم . ألم يقل المخلص « ملكة التيسن ستقوم في الدين
مع هذا الجيل وتدينه لأنها أتت من اقاصي الارض لتسمع
حكمة سليمان وهوذا أعظم من سليمان ههنا » ، « رجال
نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويدينونه لأنهم تابوا
بمناداة يونان وهوذا أعظم من يونان ههنا » (مت ١٢: ٤١ و ٤٢) .
ألا يقول المسيحي الخاطيء حينئذ مع القائل « تجعلنا مثلاً بين
الشعوب لانغاض الرأس بين الأمم . اليوم كله خجلي أمامي وخزي
وجهي قد غطاني » (مز ٤٤: ١٤ و ١٥)

فواأسفاه على الانسان الذي يفتش حينئذ في سفر حياته
فلا يجد فضيلة يستر بها عورته ولذلك يقول الله لملاك كنيسته
اللاودكيين « أشير عليك أن تشتري مني . . . وثياباً بيضاء
لكي تلبس فلا يظهر خزي عريتك » (رؤ ٣: ١٨) ويقول الرسول
بولس « وإن كنا لا بسين لا نوجد عراة » (٢ كو ٥: ٣) وحق الله
في اقامة دعواه على الخطاة ظاهر لا يمكن انكاره فلو كنت في أي

حقام أو رتبة ولحقتك امانة من أى انسان أفما كنت تسعى
للانتقام منه ؟ فكيف اذا لا ينتقم الله لنفسه من اهانوه بشرورهم
وهو قادر على الانتقام وكيف لا يدين البشر وهو خالقهم والمحسن
اليهم ؟

أما الديان فهو سيدنا ومخلصنا يسوع المسيح وبحق ينبغي أن
يدين البشر لانه هو الاله القادر على كل شيء الذى جاء
لخلاصهم ومات لاجلهم فمن حقه ان يحاسبهم على هذه النعمة
التي تفضل عليهم بها ليرى هل اعتبروها أم أنكروها ويتضح
ذلك من قول المخلص نفسه « الآب لا يدين احداً بل قد أعطى كل
الدينونة لابن » (يو ٥ : ٢٢) وقول بطرس عنه « بأن هذا
هو المعين من الله ذياناً للأحياء والاموات » (اع ١٠ : ٤٢)
وقول بولس « لانه أقام يوماً هو فيه مزعم ان يدين المسكونة
بالعدل برجل قد عينه مقدماً للجميع ايماناً اذ اقامه من الاموات »
(اع ١٧ : ٣١)

قال احدهم « فحينئذ يأتي ابن الله يسوع المسيح حاملاً
علامة الانتصار وملائكة السماء تخدم عزته الالهية فترفع القبائل
اصواتها وتعترف صارخة بصوت واحد هلاويا : هلاويا . المجد لك
يا ابن الله يسوع المسيح . وأما الذين أنكروه واحتقروا انجيله
الظاهر فيطرقون وجوههم . وتذرف عيونهم دموعاً : وتظهر
خوفهم ويصرخون من مرارة قلوبهم . الحجل يغطي وجوههم .
ويقولون ايها الجبال اسقطي علينا وغطينا من أمام وجه الجالس

على الكرسي . الذى لا يقبل لنا عذراً الآن لانه قد اندرنا قائلاً .
توبوا قبل يوم الدين والا فستموتون بخطاياكم . هذا هو يوم النعمة
أما الزمان المقبول فقدمضى . يطلبون الموت فيبتعد عنهم ويطلبون
الفناء ولا يفنون يتذكرون حينئذ العظات والاندازات التى كانت
توجه اليهم فى الحياة ولم يكونوا يعيروها اهتماماً ولكن باطلاً كل
ذلك لان اليوم يوم الحصاد . يعرفون الذى انكروه ويقولون انه
هو المسيح المخلص الذى كلمهم بانجيله الطاهر حيث قال لهم توبوا
وارجعوا عن طريقكم الرديئة فتحيوا وتعالوا الي وانا أريحكم . يقولون
رفضنا تعليمه الصادق واحتقرنا انجيله المقدس ورسله الذين بشرونا
باسمه وحسبنا قولهم مخترعاً او حديثاً من الاحاديث الفارغة . ضللنا
ولا هادى لنا ولا منقذ ولا مخلص . اسقط علينا ايها الجبال وغطينا
من أمام وجه الجالس على الكرسي الذى سفك دمه الطاهر لاجلنا
واخذنا خاصة له وقربنا اليه ونحن ابتعدنا عنه بارادتنا وبآثامنا
استوجبنا نقمته . انكرناه قدام الناس فاستوجبنا ان ينكرنا
قدام ابيه الذى فى السموات . حينئذ تسطع هيبه العلي على
الجالسين لدى عزته وتقع الرعدة الاخيرة فى قلوب بنى البشر
الذين احتقروه وخالفوا نوااميسه الالهية ورفضوا كلمته
المكتوبة ويلتفت اليهم بزجره وغضبه آمراً ملائكته اذ يقول
لهم اجمعوا الزوان واحزموه حزمأ حزمأ واطرحوه فى بحيرة النار
الى الابد ويلتفت الى الاشرار ويقول لهم اذهبوا من أمام وجهى
الى النار المؤبدة المعدة لابليس وجنوده اذهبوا يا ملاعين . قسيتم

قلوبكم فلم ترجعوا الى لاشفيكم . عيوناً أعطيتكم لتبصروا فاغمضتموها
 وآذاناً لتسمعوا كلما نطق فلم تسمعوا . فانا الآن لا اسمع
 صراخكم واغمض عين رحمتي عنكم فتهلكون من أمام وجهي .
 كتبت لكم ناموسي في قلوبكم فحيتموه بأثامكم وأرسلت
 لكم مبشرين فاحتقرتموهم . صرت انساناً وكلمتكم بالمحبة كما يكلم
 الاب ابنه فصممتم آذانكم ولم تريدوا ان تسمعوا قولي . فتحت
 لكم باب نعمتي فرجعت الى الوراء ولم تدخلوا . رفضتموني
 ورفضتم انجيلي وكلتي كلمة الحق . داويتكم فلم تريدوا ان تشفوا
 فظهرت ذنوبكم الآن وأمرت العناصر ان تشتكي عليكم .
 احببتكم مبغضين بغضة بي . اتفقتم على صنع الشر لتضطهدوني .
 واحببتكم ملذاتكم اكثر مني انا الذي سفكت دمي لأجلكم .
 اضطباراً اضطبرت عليكم والهمت المبشرين باسمي ان يندروكم
 فانذروكم ولم تسمعوا لهم وستم بخطاياكم . فالآن قد صقلت سيفي
 وهبأت قوسي وملأت اناء رجزى وابعدت رحمتي عنكم فمن
 يخلصكم من يدي أو من ينجيكم من نقمتي او من يشفع فيكم
 لدي . رفضتموني انا شفيعكم الوحيد وبعتموني بملذات الحياة
 القصيرة التي لم أطل أيامكم فيها الا لتتوبوا وتعودوا الي ، وما
 شفقتكم على انفسكم التي اشتريتها بدمي ولا رجعتكم عن رجاساتكم .
 اجيبوني الآن واعطوني حساباً على كل ما صنعتكم . أجيبوا
 الآن ماذا فعلتم بنعمتي التي كانت تفرع ابواب قلوبكم ولم تريدوا
 ان تفتحوها لها . لقد قسمت قلوبكم واغلظتم اعناقكم وتمردتم على

بأفعالكم فلو كانت لكم حجة صحيحة لعذرتكم ولكن لا حجة لكم . الآن تدانون بأفعالكم وهي تحكم عليكم بارث النار الابدية التي قد أعدت لابليس وجنوده فاذهبوا عنى ياملاعين الى النار المؤبدة حيث البكاء وصرير الاسنان . فياها من ساعة مرعبة وياله من يوم يسيل الجمد »

ولننظر الان كيفية المحاسبة وماهية الدينونة وكيف يدين الله البشر . قال يوحنا الرسول في سفر الرؤيا « ورأيت الاموات صغاراً وكباراً واقفين امام الله وانفتحت اسفار وانفتح سفر اخر هو سفر الحياة ودين الاموات مما هو مكتوب في الاسفار بحسب اعمالهم » (رؤ ٢٠ : ١٢) وقال دانيال النبي « كنت أرى انه وضعت عروش وجلس القديم الايام . لباسه ابيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي وعرشه هيب نار وبكراته نار متقدة . نهر نار جرى وخرج من قدمه . الوف الوف تدمه وربوات ربوات وقوف قدمه . جلس الدين وفتحت الاسفار » (دا ٧ : ١٠ و ٩)

فدينونة بني آدم حينئذ ستكون بموجب أسفار . قال القديس أوغسطينوس « الويل لحياة الناس الحميدة اذا فحصتها يا الهى بحق » وكيف يقوون على الجواب حينما يتكلم عليهم بغضبه ويرجفهم بغيظه (مز ٢ : ٥) واول أسفار الدينونة هو « الكتاب المقدس » قال السيد المسيح « من ردلتى ولم يقبل كلامى فله من يدينه . الكلام الذى تكلمت به هو يدينه فى اليوم الاخير » (يو ١٢ : ٤٨) . فى ذلك اليوم يقف المسيح ويسأل كل واحد قائلاً : ماذا

عملت بانجيلي هل أطعت التعاليم التي ذخرتها لك فيه . هل لهجت
بشرائعي ونواميسي . هل اتخذتها دستوراً لحياتك واعمالك وهل
جعلتها عمادك وموضوع فرحك وسرورك في حياتك ام رفضتها
ولم تكثرث بها واعتبرتها هدياناً. هل اخضعت نفسك لها أو تمردت
عليها طوعاً لا رادتك وأفكارك. هل أسكنتها في قلبك كرب بيت
لكي تتسلط عليك وتديرك حسب ارادتها أو جعلتها عرضة
لتمويهاتك وتحريفاتك وتأويلاتك الكاذبة حسب ميل قلبك الشرير
الممتلئ بالغرور . هل اتخذتها سراجاً تستضيء به أم آثرت أن
تعيش في الظلام . هل قبلت الكلمة معتبراً اياها خارجة من فمي
قادرة أن تنقي قلبك وتمنحك الخلاص . هل حفظت طريقي ووصايتي
وسلكت بموجبها أو أهملتها وأطعت أوامر ابليس عدوك وعدوي؟
فان اتخذ الانسان كتاب الله مصباحاً له وسار مهتدياً به
يحصل على النجاة اما اذا أهمل ذلك الخلاص الذي تكلم به الرب
فلا يمكن أن ينجو . سيقف الكتاب المقدس في ذلك اليوم ويشتكى
على كل من تعداه وأهمله ولم يتمم ما فيه

وبما أن الديان العادل غيور على كلمته فسيقضى على اولئك
الاشرار بقضاء كتابه الكريم ذلك القضاء المريع القائل لاني
دعوت فايتم ومددت يدي وليس من يبالي بل رفضتم مشورتي .
ابغضتم العلم ولم تختاروا مخافة الرب لم ترضوا مشورتي . وردلتم
كل توبيخى فكلوا الآن من ثمر طريقكم واشبعوا من مؤامراتكم
(ام ١ : ٢٤ - ٣١)

ويوجد أيضاً سفر آخر يدين به المسيح البشر وهو « سفر
الضمير » ولهذا يقول الرسول بولس « لذلك انا أيضاً ادرب
نفسي ليكون لى دائماً ضمير بلا عثرة من نحو الله والناس » (اع
٢٤ : ١٦) وقال أيضاً « لان فخرنا هو هذا شهادة ضميرنا » (٢ كو
١ : ١٢) فانه في يوم الدينونة سيقف أمام ذلك الديان العادل
اولئك الذين عاشوا بدون ان يعبأوا بربهم وبآخرتهم أو يهتموا
بأرواحهم الخالدة وبما يلزم لها وسيقف بجانبهم ذلك الضمير الذي
تعب كثيراً عندما كان يؤدي وظيفته بين اولئك الاشرار وسيرفع
الديان صوته قائلاً « قم ايها الضمير . ايها النائب الجليل واشتك على
هؤلاء الواقفين أمام القضاء » فيقوم الضمير معدداً كل شرور
الانسان وكيف كان يوبخه عليها كما قال الرسول « شاهداً أيضاً
ضميرهم وافكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة » (رو ٢ : ١٥)
فان كان الانسان كافراً يقول له « كثيراً ما اظهرت لك
وجود الخالق سبحانه في الطبيعة وقوانينها التي صاغها
وسنها بقوته فضربتني واخذت قوتي » وان كان يهودياً يقول
له « كثيراً ما كلمتك بمجيء المسيح سيدك كما في اسفار العهد
القديم وقلت لك أنه هو الملك الذي اتى الى العالم للخلص
فوضعت يدك على في واسكتني » وان كان مسيحياً بالاسم
يقول له « أتذكر اني مراراً كنت اظهر لك واجباتك
واوبخك على اعمالك الشريرة وعدم عيشتك بالامانة لمن مات
لاجلك . وهل تذكر اني كثيراً ما كنت اؤنبك على تهاونك

بتعاليم الكتاب المقدس واوصيك بالصلاة وغيرها من الفضائل
فكنت تتغاضى عن سماع صوتى وتلكنى لكمة قوية تعمدنى
الحياة»

واذا كان من محبى المال يقول له « كثيرأ ما كنت اردعك
عن السعى وراء المال وافهمك ان المال يطغيك وينسيك الهك .
وانك لا تأخذ منه شيئأ يوم تموت فكانت آذانك مسدودة
بالذهب والفضة فلم تسمع كلامي » واذا كان من محبى الشهوات
يقول له « مرارأ عديدة كنت ابكتك على خطاياك واقول لك
انها مكرهة للرب وانك بذلك تسعى فى طريق جهنم فكنت
تضربنى بضربات متنوعة ، مرة بقضيب حب الذات واخرى بعصا
محبة العالم واجاده حتى اخذت انفاسى ولم اعد قادراً على الحركة »
فيقول الديان العادل جوابأ على ذلك « ايها الضمير انت لم
تقصر فى اتمام واجباتك ولا ذنب عليك ولكنهم هم المذنبون فى
عدم اصغائهم لك وفى عدم اتباع نصائحك . فلذلك قم ايها الضمير
وعوض وانتقم لنفسك منهم للضربات التى ضربوها لك فى حياتهم
الارضية . تسلط عليهم فى جهنم وكن لهم دودأ لا يموت ينخر فى
احشائهم ويعذبهم باشنع انواع العذاب » ثم يلتفت نحو المذنبين
ويقول لهم « بما انكم لم تطيعوا اوامري ولم تحفظوا عهدى
فليمكث عليكم غضى ولتأكلكم النار الى ابد الابدين »

والسفر الثالث هو « سفر التوكيل » فعند ما ينفتح هذا
السفر يقول السيد المسيح لكل واحد « اعط حساب وكالتك »

(لو ١٦: ٢) لقد كنت موكلاً على وزنات كثيرة متنوعة . كنت موكلاً على جسم فإذا عملت له . هل حفظت صحته بكل ما في إمكانك هل حفظته خالياً من الشوائب او اسمته بتجرع المسكرات وعرضته بها للتضعع وارتكاب الامور التي لا ينتج منها الا الضعف وانتهاك القوى ؟

كيف تصرف بعينيك . هل استعملتهما في طريق الطهارة أم النجاسة . هل ظننت ان الغاية في خلقهما لم تكن الا للتمتع بالمنظر البهيجة والمرأى الجميلة التي تعرض للسقوط في الخطية أو هل استعملتهما في ما هو لائق وبالاخص في قراءة الكتب التي تهذبك دينياً وادبياً وترشدك الى معرفة ارادة الله من نحوك ؟ ماذا عملت بلسانك هل استعملته في الشتم والتلفظ بالالفاظ القبيحة والقاء الفتن بين الناس والتلفظ بالاغاني الهوائية والانغام الشيطانية . ام استعملته في تسبيح ربك بالنفحات الروحية وفي التكلم مع الآخرين ببشارته والى غير ذلك من الاعمال الحسنة الممدوحة

ماذا عملت بعقلك ؟ هل استخدمته في التفكير في عمل الشر ويجاد الضغائن وتأليف الكتب والمقالات الكفرية وغيرها من الامور المضرة للعالم . ام استعملته في التفكير في محبة الهك وفي تأليف الكتب التي من شأنها تهذيب الآخرين وفي عمل الخير ونشر الوية السلام بين الناس ؟

لقد وكتبتك على روح ، فهل اهتممت بها جيداً . هل اعتبرتها

ذات قيمة في نظرك وشعرت انك لا تستفيد اذا ربحت العالم كله وخسرتها ؟ أو انك عشت كالبهائم التي لا تدرك أيضاً وكتك على أموال كثيرة كانت أو قليلة فكيف تصرف بها . هل صرفتها في ملذاتك وشهواتك الدنيوية واستعملتها في البذخ والتبذير على المفساد والشور . ام استعملتها في عمل الخير ومساعدة الفقراء والمحتاجين والى غير ذلك من الاعمال الخيرية ؟ وايضاً اعطيتك وقتاً . فكيف قضيتته . هل في لعب القمار والجلوس بالمقاهي ومحلات الالعب الرديئة وغير ذلك من الامور الممقوتة . ام قضيتته في السعى وراء الامور الضرورية لخلص نفسك وفي عبادة ربك وعمل مشيئته ؟

« اعط حساب وكالتك » هل احببت الله حباً خالصاً حقاً . هل كنت تقود الناس الى الخير او الشر . كم قتلت بشكوكك ونيمتك وكم افسدت . كم اختلست من مال غيرك ؟

« اعط حساب وكالتك » اين وضعت نفسك ؟ اين جعلت صورتك ؟ أين القيت وزنتك ؟ أفي حماة الزنى الرجسة ؟ أفي نجاسة الفسق ودنس الفجور ؟ أفي لحد النهم والسكر ؟ أفي قبر الطمع والشراسة ؟

« اعطوا حساب وكالتكم » ايها المحبوا لفضة البخلاء ايها الخطفة والمرابون ايها الخائنون . اين وضعتم قلوبكم ؟ أفي رمس الاحتشاد والاستكثار ؟ أفي قبر الجور والظلم ؟ أفي لحد الخطف والنهب ؟ « اعطوا حساب وكالتكم » ايها الحقودون . اين وضعتم ضمائرکم

وافئدتكم . أفى قبر الوشاية والسعاية ؟ أفى لحد الاساءة والضرر ؟
أفى قبر القتل والعداوة ؟

« اعطين حساب وكالتكن » ايتها النساء الجاهلات المتراخيات
اين وضعتن قلوبكن . أفى ايدي ابليس المحتال . أفى أيدي السحرة
والمنجمين ؟ أفى التزين والتجمل . أفى تحسين الوجوه بالادهان
واللطوخ وبقية الآلات الشيطانية ؟

« اعطوا حساب وكالتكم » ايها الرعاة الذين سلمت اليكم
النفوس لترعوها اين وضعتم عقولكم وقلوبكم . أفى اتباع
نواميسى وشرائعي أم فى اتباع عادات العالم الجارية . أفى التصرف
بارادتي وهواى أم فى هوى أميالكم البشرية ؟

« اعطوا حساب وكالتكم » هل فيكم جميعاً من يحتج انه اخطأ
جهلاً . ايها الخطاة لو قلتم ذلك لقامت عليكم المنابر وجميع اجراس
الكنائس والاسفار الالهية وخدام الكلمة وكذبوكم لانهم
طالما نصحوكم واتمسوا منكم ان ترجعوا عن غيكم ولكنكم
رفضتم المعرفة ولذلك انا ارفضكم (هو ٤ : ٦)

هل تحتج انك حملت على الخطأ مكرهاً ؟ هل تقول انك
لاجل مولاك او صاحبك شهدت زوراً او سرقت سرقة
او سعت فى سبيل الاثم ؟ هل تقول انك لاجل ان تعول
عائلتك غالطت فى الميزان وغبت فى المكيال ؟ هل تعتذر ايها
الرجل بامرأتك ؟ هل تعتذر ايتها المرأة بزوجك ؟ كلا . كلا
انت بلا عذر ايها الانسان (رو ٢ : ١) لم أترك فى كتابي كل

ارشاد الا وقدمته لكم فلو فحصتموه لعرفتم قوانين هذه الدينونة . لقد سبق ابوكم آدم وستر نفسه باوراق التين ولكنه لم تحف عنى خطيئته فاعتذارا لكم لا تستر عيوبكم . انا فاحص القلوب والكلى . عرفت أن الذى دفعكم الى الشر ليس التخلص من الفقر أو ضغط الآخرين عليكم بل ميلكم الفاسد ورغبتكم الشريرة .

قال أحدهم « حينئذ يقول المخلص للخاطئ » لقد رفضتني ورفضت تعليمي . لقد بذلت نفسي من أجلك واشتريتك بدمي فلم ابغضتني مجاناً ؟ مهدي لك طريق الحق لئلا تعثر رجلك . فلم عرجت عن طريقى وسلكت فى سبلك التى أفضت بك الى وهدة الهلاك ؟ بشرتك بانجيلي بأفواه عبيدى وبكلمتي المكتوبة . فلم سددت اذنيك ؟ فيماذا يجب عند ذلك . ان أجاب بالكذب فترى على من يكذب . أيكذب على فاحص القلوب والكلى وان أجاب بالصدق فان وقت التوبة يكون قد فات لان اليوم هو يوم الدينونة ولا يقبل فيه عذر ولا رجاء . وما أعظم جهل الذى يرفض الآن بشاراة الانجيل التى تقود الى الحياة الابدية ويصنع بيديه آلة هلاكه الابدي . ويسير على قدميه الى هوة الهلاك مختاراً ويغمض عينيه لئلا يرى النور . ويسد اذنيه لئلا يسمع الحق . وان قال احدهم انى كنت اخالف شريعة الله واعرف انى قد فعلت اثماً ولكن لا أعرف ماذا أصنع لاثبر فأجيبه ايها الاخ الحبيب أما تعلمت منذ صباك الاسفار المقدسة

وسمعت كلام الحق. أما تذكر أنك حالما بلغت الصبوة أخذ والدك يلقي بك النطق باسم يسوع كأنهما يريدان أن يرضعاك إياه مع اللبن وكم من مرة رفعوا أيديهما إلى السماء متضرعين إلى يسوع المسيح من أجلك ولما صرت في سن التمييز كم من مرة سمعت كلام الله في بيته وكم عظة بلغت أذنيك. فمن يقبل بعد ذلك عذرك ومن يعذر جهلك ومن يصدق أنك لم تعرف الطريق المؤدى إلى الخلاص وانت مسيحي تهذ ليلاً ونهاراً بتلاوة الانجيل المقدس. إن النور الطبيعي عينه كاف لأن يدلك على طريق الخلاص والشريعة المطبوعة في ضميرك تكفي لأن تحمك على السعى في طريق الحياة فكم بالحرى إذا كانت الشريعة المكتوبة أمام عينك الجسدية تحمك كل يوم وكل ساعة فعذرك من هذا القبيل غير مقبول فانك عرفت جيداً طريق الحق إلا أنك لم ترد أن تسلك فيه. وإن قال آخر قد عرفت بشاراة الانجيل وتعلمت الاسفار المقدسة منذ صباى ولكن لم أر احداً يسير بموجبها فلهذا تفاضيت عن امر الخلاص قائلاً ما أنا إلا واحد من كثيرين و«في يوم الله يعين الله». فانا اجيبه قائلاً يا أيها الاخ الحبيب لقد خدعك الشيطان بهذا الفكر الرديء ليلهيك عن تدبير تفسك وتجهيز الاعمال الصالحة ليوم الدين. وانت تعلم جيداً ان لك نفساً واحدة لا غير وفي يوم الحشر ستكون ملزماً ان تقدم جواباً لله عنها وحدها لا عن غيرها. فمالك اذاً وقريبك هل اقامك الله وكيلاً أو محاسباً على انفس عبيده؟ أو هل يجازيك بذنب غيرك؟ فانت تقول أنك تعرف البشارة المقدسة وقد درست

الاسفار الالهية منذ صباك وان الحق والحياة فيها . أما قال لا تدينوا لثلاث دانوا وبالكيل الذى تكيلون به يكال لكم ؟

فدبر نفسك يا اخي ولا تشغلن افكارك بما لا يعينك . فكل هذه الافكار ما هي الا وساوس ابليس ونتائج قساوة القلب فلا فائدة لك من هذا العذر مطلقاً بل بالعكس تزيد على اثمك اثماً بالنسيئة التى تم بها على قريبك الذى لست بملزوم ان ترد عنه جواباً فى يوم الدين . لان فى ذلك اليوم كل واحد يقدم جواباً عن نفسه فقط وكل مجرم يحاسب عن ذنوبه الشخصية . فهذه الحجج التى تقدمها لتعتذر بها عن معصيتك ورفضك النور الالهى باطلة . وأنت تعرف انك أثمت ولكن أميالك المعوجة وارادتك المتصلبة لا تدعك تعود الى سبيل الهداية والحياة . فويل لمن يظن انه باعتذاراته يقدر أن ينجي نفسه من رجز الله فى يوم النعمة . لان ذلك اليوم هو يوم الحساب وليس يوم الاعتذار وانا اكرر قائلاً الويل لمن لا يسمع كلمة الله . الويل لمن يرفض بشارة الانجيل وينشغل بملذات هذه الحياة الفانية التى تزول مع الزمن . ستندمون ايها الخطاة حيث لا يفيد الندم وتعضون البنان تحسراً . سيروا الآن فى طرقكم الملتوية وتناسوا يوم الآخرة ، ذلك اليوم الرهيب . واغضوا اعينكم عن النور . واقيموا لانفسكم حججاً ولكن ستندمون حين تقفون أمام الديان العادل لتعطوا جواباً عن كل ما فعلتم فى دور هذه الحياة عندما تفتح مصاحف ذنوبكم

وتراها كل عين . سروا الآن وابتدعوا لأنفسكم ملذات جديدة
وتآمروا بالشر وسنوا لأنفسكم سنناً وشرائع لتفعلتوا من اطاعة
المسيح الذى حرركم من نير عبودية الجحيم . ولكن ستعلمون في
يوم الدينونة انكم قد بنيتم على رمل وان جميع اعمالكم ما هي
الا قش تقع عليه نار السعير الدائم فيحترق وأى احتراق »

فماذا يجب الانسان حينئذ ؟ لقد اخبرنا الكتاب أن كل
الذين كشفت لهم عيوبهم وسئلوا عنها لم يستطيعوا ان يقدموا جواباً .
لقد قال ناثان لداود بعد أن أوضح له خطيته « أنت هو الرجل »
فلم يجب بكلمة (٢ ص ١٢ : ٧) ولما بكت ايليا آخاب الملك
لاغتصابه كرم نابوت لم يلق جواباً (١ مل ٢١ : ١٩) ولما وُجِّح
الذى حضر الى العرس وليس عليه ثيابه بالقول « يا صاحب كيف
دخلت الى هنا وليس عليك لباس العرس » يقول الكتاب
« فسكت » (مت ٢٢ : ١٢) هكذا يكون في يوم الدينونة ، ليس
للخاطيء حينئذ الا أن يسكت

وبعد نهاية المحاسبة يتقدم المشتكون والشهود فيقف الشاهد
الاول وهو « الشيطان » ويشهد على الخطاة ثم يكشف لكل
واحد منهم جميع ما صنع من الآثام والشرور معيناً له الوقت الذى
ارتكبها فيه بالتدقيق وبعد ذلك يصبح قائلاً « ان هذا الانسان
صار ملكاً لى لأنه ارتضى فى الارض ان أملك عليه وعمل بوصاى
واطاع مشورتى فينبغى ان يكون حيث اكون انا فى المكان المعد
لى (مت ٢٥ : ٤١)

ثم يتقدم الشاهد الثانى وهو « الخطايا » ويقف أمام ضمير كل انسان فيرى ما أرتكبه منها مخطوطاً بحروف من نار ويرى كل انواع قساوته وتشاخه وخفخته وغروره . وكل انواع رجاساته ودعارته وكل نواياه وخفاياه وكأن هذه الخطايا تقول له « بما انك احببتنا فى الارض وملت الينا فلذلك تعلقنا بك الى النهاية وأتينا برفقتك الى هذا المحشد ولا تفارقك الى ابد الابد »

ثم يتقدم الشاهد الثالث وهو « كفارة المسيح والفداء الذى افتدى به البشر » قال القديس يوحنا فى الذهب « ان جراحات المسيح تشهد على ذنبك ايها الخطايء . ومسامير يديه ورجليه تشتكى عليك وصلبيه يهتف ضدك »

قال أحد الأفاضل « ليس غيظ أشد من غيظ الصديق من صديق له خانه أو غيظ الاب من ابن له أهانه أو غيظ العريس من عروسه اذا خالفت مشيئته لانه كلما كانت روابط المحبة أمكن وأشد كان الغيظ اذا ما صدرت أمور تتنافى مع هذه المحبة اعظم وأنى . فما أمر التوبيخ الذى يوبخنا به مخلصنا الالهى اذ يرينا صليبه المقدس الذى قد هدرنا نحن كل ثمنه ويظهر لنا جراحاته ويذكرنا بدمه الذى سفك من أجلنا . ما أشد الغيظ والغضب الذين ينظرهما الى الخطاة الذين من اجل خلاصهم قد تحمل أشد صنوف الآلام مدة حياته على الأرض ليعيد لهم الميراث السماوى المخلد . انه تقدر اسمه سيديهم لانهم كفروا به ويهينهم كما أهانوه وينسأهم كما نسوه . فمن يقف أمام غضبه ؟

وحينئذ يتقدم ملائكة الله ليفصلوا الاشرار من الابرار
 فيقف الابرار يمين الديان . اما الهالكون الاشرار فيحشرون
 جميعاً على اليسار نظير الجداء المعدة للذبح كما يقول ايوب « انه
 ليوم البوار يمسك الشرير ليوم السخط يقادون » (اى ٢١ : ٣٠)
 وهم ينتظرون الحكم الرهيب الذى يقضى عليهم بالهلاك الابدى .
 اننا هنا نجد الاشرار يحتمقرون الابرار ويزدرون بهم فيعيش
 الخطاة فى سعة وسرور ورحب ويعيش المؤمنون فى ضيق وكرب
 ولكن ايها الصديقون لا تحزنوا ولا تكتئبوا ايها الابرار فسوف
 يأتى وقت فيه تقام دعواكم حيث ينتقم الله من الظالمين وحيث
 يتحول حزنكم الى فرح (يوحنا ١٦ : ٢٠) اما أنتم يا محبي العالم فهناك
 بلا ريب تغيرون افكاركم وتندبون جهلكم . قال الكتاب واعداء
 البار « انما بعينيك تنظر وترى مجازاة الاشرار » (مز ٩١ : ٨)
 وقال أيضاً « ولكم ايها المتقون اسمى تشرق شمس البر والشفاء
 فى اجنتها . . . وتدوسون الاشرار لانهم يكونون رماداً تحت
 بطون اقدامكم » (ملا ٤ : ٣ و ٢)

حينئذ يتحول الحال ويتغير فمن كان عالياً ينحط ومن كان
 منخفضاً يرتفع . ووقتئذ يقوم هابيل زاجراً أخاه النعيس قايين
 ويلتفت يوحنا المعمدان الى هيرودس مبكثاً ومعنفاً . وهكذا
 يقوم المظلومون على الظالمين والمحتمقرون على العظماء . نعم يقوم
 موسى على فرعون . ونابوت على آخاب . وأيليا على ايزابل .
 وداود على شاول . هناك يتقدم هيرودس ليجازى على ما صنع

وتلتهم اعضاء نيرون بنار غضب القدير. اما بولس فيطلب لكي يأخذ الا كليل الذي أعده الله للذين يحبونه . وبطرس يتقدم ليستلم الميراث الذي لا يفنى ولا يتدنس ولا يضمحل المحفوظ لاجله في السماوات « طوبأكم ايها المساكين لان لكم ملكوت الله . طوبأكم ايها الجياع الآن لانكم تشبعون . طوبأكم ايها الباكون الآن لانكم ستضحكون ولكن ويل لكم ايها الاغنياء لانكم قد نلتم عزاءكم . ويل لكم ايها الشباعي لانكم ستجوعون . ويل لكم ايها الضاحكون الآن لانكم ستحزنون وتبكون » (لو ٦ : ٢٠ و ٢١ و ٢٤ و ٢٥)

عند ذلك لا يجد الاشرار مفرأ من العقاب ولا مهرباً من العذاب لانه « مخيف هو الوقوع في يدي الله الحي » (عب ١٠ : ٣١) فلا يستطيع الخاطيء ان ينكر شيئاً لان الديان نفسه هو العارف والشاهد » (أر ٢٩ : ٢٣) ولا يكون له أى وجه في تقض الحكم والتماس إعادة النظر فيه لان الله « يحكم بغير محاباة حسب عمل كل واحد » (١ بط ١ : ١٧) وبالاجمال فيقفل دونه كل باب وينترع منه كل رجاء ويحل به اليأس المفرط أما الابرار الصديقون فانهم يكونون على حال من السرور والانشراح أجل من أن توصف « بهذا تكلمت المحبة فينا ان يكون لنا ثقة في يوم الدين » (١ يو ٤ : ١٧) ثم يلتفت يسوع اليهم جميعهم بوجه يعلوه السرور ويخاطبهم بكلمات رقيقة حلوة قائلاً لهم « تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم » (مت ٢٥ : ٣٤) وهكذا في وسط

الاصوات المبهجة والتراتيل اللذيذة يصعدون بجلال فوق
الكواكب ويستوون على عروش المجد الى ابد الدهور .

فها أيها الابرار هيئوا ذواتكم للسعادة الدائمة ، انهضوا لها
فقد آن الاوان لتكملوا بعد انتهاء الجهاد . ابصروا المسيح
الذي تافت نفوسكم اليه . هيا فعائنا مملكته التي أعدها لكم .
هيا فأبصروا الرب الذي احبكم واحببتموه وافرحوا معه فرحاً
لا يوصف وليس ينزع احد فرحكم . هلموا فتمتعوا بالخيرات التي
لم ترها عين ولم تسمع بها اذن ولم تخطر على بال انسان

حينئذ يقول البار باعلاصوته « ما أجل هذا الملك العجيب
الذي شره لنا المسيح بدمه الثمين ؟ يالها من محبة عظيمة ان يكون
هذا ثمرة الايمان وآخرة عمل الروح ! هل ساقتنى رياح النعمة
فأوصلتنى الى هذا المرفأ الامين ؟ أهذا المجد الفائق كان يقمادنى
المسيح ؟ يالها من طريق مباركة وآخرة سعيدة ؟ هذا هو المجد الذي
تكلم عنه الكتاب ، وكرز عنه الخدام . الآن ارى ان الانجيل هو
بشارة مفرحة لجميع الشعب . أيأتى بي نوحى وآلامي وتعبي وانيني
وهزء العالم بي الى آخرة هذه امجادها ؟ ويحك أيتها الطبيعة يا من
قاومت هذه البركات ، ويحك ايتها النفس غير المستحقة لهذا المجد كم
كنت تأيين السير نحوه ؟ ويحك أيها القلب الخداع كم كنت تريد
ان تسلمنى الى الالهيب الابدي وان تحرمنى من هذا المجد ؟ ويحك
أيها الجسد الساقط كم كنت تطمع في الملذات لتحرمنى هذه السعادة
العظمى ؟ أما كنت تحضنى على ركوب متن الشر لابتعد عن

الاستقامة؟ أما كنت تجرني الى الشك والريب؟ ويا نفسي ألا تمتنعين
 خجلا من طمعك في الابتعاد عن الحق الذي لولاه ما جئت الى هنا؟
 ألا تحجلين اذ كنت تملصين من محبة القدير؟ ألا تحجلين اذ كنت
 تفكرين بامور رديئة عن الله؟ ألا تحجلين من عزمك سابقاً على
 الهروب من العناية الالهية التي لولاها ما وصلت نهاية هذه الطريق.
 والآن اذ أنت مقتنعة ان الطريق التي كنت تسمينها « صعبة »
 والكأس التي كنت تقولين أنها مرة انما كانتا ضروريتين لك وان
 الله قصد بهما خيرك ، فقد كان يصلب أشواقك ويكسر قلبك ويجبره
 كل هذا خلاصك فالفضل لنوالك هذا الاكليل ليس راجع اليك
 ولكنه راجع الى يهوه والحمل الى الابد »

ثم يلتفت الديان نحو الاشرار بوجه يتقد غضباً ويناديهم
 بصوت الانتقام « اذهبوا غنى يا ملاعين الى النار الابدية المعدة
 لابليس وملائكته » (مت ٢٥: ٤١) وهذا الحكم يتضمن عقابين
 الاول « اذهبوا غنى » عقاب الخسران والثاني « الى النار الابدية »
 عقاب الخواس . فهو يقول لهم اذهبوا غنى أنا الهكم الذي
 منى خرجتم والي مصيركم ، اذهبوا غنى انا الذي تجسدت وتألمت
 لاجلكم ولم تقدروا ذلك . اذهبوا غنى انا الذي طلبتكم بالحاح
 لترجعوا الي فلم تسمعوا .

اذهبوا غنى وعن ملائكتي وعن قديسي وعن سمائي . اذهبوا
 غنى لا لتعودوا الى الارض لتنعموا ثانية بل الى النار الابدية

لتعذبوا الى الابد » فيكون عوض الطيب عفونة وعوض المنطقة
 جبل وعوض الجدائل قرعة وعوض الديباج زنار مسح وعوض
 الجمال كى » (اش ٣ : ٢٤) احببت اللعنة فأنتكم ولم تسروا
 بالبركة فتباعدت عنكم فلبستم اللعنة مثل ثوب فدخلت كميّاه فى
 احشائكم وكزيت فى عظامكم . لتكن لكم كثوب تتعطفون به
 وكنطقة تنطقون بها دائماً . هذه اجرة مبغضى من عند الرب
 واجرة المتكلمين شراً على نفسي (مز ١٠٩ : ١٧ - ٢٠)
 « اذهبوا عنى يا ملاعين » ملاعين من قيل ابى الذى احسن اليكم ،
 ملاعين من قبلى انا الذى فديتكم ، ملاعين من الروح القدس الذى
 رفضتم دعوته . ثم يأمر ملائكته قائلاً خذوهم من ايديهم وارجلهم
 واطرحوهم فى الظلمة الخارجية هناك يكون البكاء وصرير الاسنان .
 فيتقدم الملائكة لتنفيذ أمر سيدهم فيحملون الخطاة الى النار
 الابدية ويسوقونهم أمام أعين الصديقين فتتشق الارض وتفتح
 جهنم جوفها فتبتلعهم ويغوصون فى لججها الى الابد ويتم بذلك
 قول داود النبى « مثل تنور نار فى زمان حضورك . الرب
 بسخطه يبتلعهم وتأكلهم النار » (مز ٢١ : ٩)

قال علماء الطبيعيات وعلى الاخص بلوطرخس الحكيم « ان
 الصاعقة حينما تقع تسحق الاشياء الصلبة القاسية وتطحنها وأما
 الاشياء اللينة الرخوة فلا تضرها ولا تؤذيها » وسيكون هذا
 الامر بعينه فى الدينونة الرهيبة ، فان الديان العادل يزجج الخطاة

غير التائبين المتكبرين القساة . أما المتواضعون والتائبون فيرق
 لهم ويرحمهم . فحينئذ يتعذب الاشرار اذ يذكرون تنعمهم .
 ويقولون لأنفسهم مع الغني الذي رأى لعازر المسكين ممجداً بينما
 هو معذب . « لقد خدعتنا ايتها النفوس الرديئة، حببتي لنا اللذة
 لتقودينا الى الهلاك الأبدى فياويلنا »

فالى متى ايتها النفس الشقية تلبثين في قساوتك وفي عصيان
 إلهك وهذه الدينونة المريعة تنتظرك . علينا ان نستعد لآخامد
 غضب الديان بايماننا الصحيح المثمر اعمالا صالحة . ما بالنا نبقى
 على موتانا بكاء حاراً ولا ننظر الى نفوسنا المنفصلة عن الله
 ولا نندبها ونزئها . فلنأخذ في ان نسكب دموعاً غزيرة على
 خطايانا لنستطيع ان نطفيء بها الالهيب المشتعل المعد لكل نفس
 تموت بخطيئتها .



الفصل الثالث والعشرون

في افتضاح المنافقين

« هانذا عليك يقول رب الجنود فاكشف اذيلك الى فوق وجهك واري الامم عورتك والممالك خزيك » (نأ ٣ : ٥)

ان كثيرين من المؤمنين يؤمنون ايماناً لفظياً لا غير . فهم يتكلمون عن الايمان وينادون بالايمان ويعطون بالايمان ولكنهم بلا ايمان في انفسهم من الداخل ، وقال عن امثال هؤلاء بولس الرسول « لان مثل هؤلاء رسل كذبة فعلة ما كرون مغيرون شكهم الى شبه رسل المسيح . ولا عجب لان الشيطان نفسه يغير شكله الى شبه ملاك نور فليس عظيماً ان كان خدامه أيضاً يغيرون شكهم كخدام للبر الذين نهايتهم تكون حسب اعمالهم » (٢ كو ١١ : ١٣ - ١٥)

وقد أوضح السيد المسيح انكشاف أمر ورياء المسيحي الخائن في اليوم الاخير كما يظهر ذلك من قصة العبد الكسلان المذكور في انجيل لوقا ص ١٩ ذلك العبد الذي عوضاً عن ان يتاجر بالوزنة التي أعطيت له نقها بديل وطرحها . ولما جاء يوم الحساب جعل يعتذر عن تهاونه وخيائته بحجج باطلة فارغة لا تجديده نفعاً ولذلك حكم عليه سيده حكماً صارماً عنيفاً ولا يخفى ان هذا العبد هو كناية عن جميع الاشرار المنافقين والحكم الصارم الذي صدر ضده

عبارة عن عاقبتهم الخيفة ومصيرهم الشنيع في يوم الدينونة كما قال الكتاب « ويميت المنافق بنفخة شفتيه » (اش ١١ : ٤)

فلا ينبغي ان يبرح من بالنماصير الاشرار الخيف ونهايتهم المؤلمة حيث لا يفيدهم الرياء والادعاء بالتمقوى ولا المظاهر الكاذبة التى يصهرها نار غضب التقدير ، نعم ان كثيرين من المسيحيين بالاسم في هذه الحياة لهم صورة التتمقوى ولكنهم ينكرون قوتها (٢ : ٣ : ٥) وكثيراً ما يتكلفون اظهار الصلاح والفضيلة ويتظاهرون أمام الجميع كأنهم اتقياء صالحون وبررة قديسون وقد تنظي هذه الحيل والخداعات الباطلة على البشر الذين لا يعرفون من الانسان الا ظواهره ولكن مهما اغتر البشر في امثال هؤلاء ومهما شهدوا لهم بالصلاح والتتمقوى فانه في اليوم الاخير سيفضحهم كاشف اخفايا والاسرار كلها العارف بما تكنه القلوب وما تطويه الصدور لانه ليس كما ينظر الانسان لان الانسان ينظر الى العينين واما الرب فانه ينظر الى القلب (١ صم ١٦ : ٧) فانه سيظهر حقيقة الانسان المنافق لجميع البشر في ذلك اليوم فيسطر خطايه امامه بحروف من نار حتى يراها جميع الناس فيندهشون ويقولون « أهذا الذى كننا نظنه ملاك نور ؟ » ولذلك يعملنا الكتاب ان الرعدة تأخذ المنافقين (اش ٣٣ : ١٤)

ان كثيرين تراهم يمزجون انفسهم باولاد الله حيث لا يمكنك تمييزهم منهم وهم أشبه بالزوان الذى ينبت مع الحنطة (مت ١٣ : ٢٣) وكما ان الزوان لا يفرز عن الحنطة إلا في يوم الحصاد هكذا هؤلاء

المراؤون يلبثون مختلطين بالمؤمنين حتى يوم الحساب حيث تصبح
القلوب معلقة فوق الرؤوس والاعمال ظاهرة مكتوبة بحروف من
نار يقرأها جميع البشر لأن في هذا اليوم يدين الله سرائر الناس
(رو ٢ : ١٦) وشبه هؤلاء الرسول يهوذا بغيوم بلا ماء وبأشجار
خريفية بلا ثمر (يه ١٢)

ان الهيئة المنظورة في هذا العالم هي كشبكة الصيد التي تجمع
السماك من كل نوع (مت ١٣ : ٤٧) هكذا هي تجمع البار مع
الشرير وقد نجد كثيرين من الاشرار فنظنهم من أولاد الله وقد
نحكم كثيراً على بعض أولاد الله بانهم ليسوا بمؤمنين ، ذلك لاننا
نرى اولئك المنافقين المدعين بالدين والصلاح لا يتركون عملاً
صالحاً الا أتوه ولا أمراً مبروراً الا مارسوه ، فيصلون مع
المصلين ويصومون مع الصائمين ويحسنون مع المحسنين ولكن
اذا استجلبنا كنههم وجدناهم ابالسة وشياطين كالذين قال لهم
السيد « انتم الذين تبررون انفسكم قدام الناس ولكن الله
يعرف قلوبكم . ان المستعلى عند الناس هو رجس قدام الله »
(لو ١٦ : ١٥) ولهذا يقول الرسول بولس « اذاً لا تحكموا في
شيء قبل الوقت حتى يأتي الرب الذي سينير خفايا الظلام
ويظهر اراء القلوب وسينفذ يكون المدح لكل واحد من الله »
(١ كو ٤ : ٥)

كم من شفعتين باسمتين تنطويان على قلب دنس ونفس فاجرة ؟
كم من ظاهر مشرق بنور البر والطهارة يخفي داخله نية خبيثة ؟

كم من لطف منظور وحياء ظاهر ينطي شرارة فتن
ودسائس !

آه لو أعطى لنا كشف مايجرى « داخل المخادع » لوقفنا على
حوادث مريعة كافية لأن تصعقنا لا سيما من الذين نظمهم كملائكة
الله الذين يتخذون الدين ستاراً والتقوى حجاباً يخفون بهما ما
يرتكبونه من المعاصي والفجور

« ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات »
(مت ٢١: ٧) قال قسيس شيخ وهو قريب من الموت « اننى
أتوقع أن سأرى في السماء من لم اظنهم يدخلونها وان لا أرى بعضاً
من حسبتهم من أخص أهلها » واننا أيضاً سنتعجب في السماء عند
ما نرى الحقيقة هكذا فليس كل من يقول يارب يدخل الى هناك
ويدخلها كثيرون من الذين لم يتظاهروا بمظاهر التقوى ولكنهم
سقوا كأس ماء بارد لتلاميذ المسيح وعاشوا عيشة أهل الايمان
منتظرين رحمة الله

أجل . كما ان الاشجار المثمرة يبرز من باطنها الثمر مع الورق
في أوان الاثمار هكذا في ذلك اليوم المرهوب تبرز كافة الاشياء
التي عملها الناس صالحة كانت أم خبيثة ويحمل كل واحد امام
مجلس قضاء الحاكم الرهيب عمله كثمر وكلامه كورق
« فليس مكتوم لن يستعلن ولا خفي لن يعرف . لذلك كل ما
قلتموه في الظلمة يسمع في النور وما كلمتم به الاذن في المخادع

ينادى به على السطوح» (لو ١٢: ٣٥) ستظهر حينئذ الخطايا التي أخفيت والآثام التي سترت والافكار التي يظنها الناس قد مرت في ساحة الخيلة ورضى بها القلب ملتناً ثم عبرت .

كم من كثيرين يرتمون في مضاجعهم ويفتحون باب فكرهم لأمور رديئة تطرقه وهم مطمئنون لانه ليس من سبيل لاحد ان يكشف ما يفكرون فيه ولكنهم يتعجبون عند ما يرون هناك انها لم تكن خافية على اله السماء والارض ويخزون عند ما يرونها تتراءى أمامهم كأنهم فكروا بها امس فقط . كم من خطايا ارتكبتها الانسان ونسيها واهملها ولم يعد يفكر فيها سوف يراها مكشوفة أمامه كأنه لم يمض زمن على ارتكابه اياها فيتم قول الكتاب « منه ترتعد الشعوب . كل الوجوه تجمع حمرة » (يو ٢ : ٦)

كم من الشرور مكتومة ، كم من الرذائل مخفية كم من الاثمة لا يعرفهم أحد ، كم من انسان يلبس ثوب الرياء ويغطي به فسادہ ويظل محتفظاً بهذا الثوب الذي يحرص عليه لامعاً براقاً الى ان يمثل أمام العدل الالهي وحينئذ تتقدم تلك اليد القادرة وتشق هذا الثوب ليظهر ما اختفى تحته من دنس وفجور ورداءة

فهناك يشير الديان الى رجال كثيرين ممن كانوا يظهرن بمظهر التقوى ويقول ان من هؤلاء من كان زانياً ومن كان سارقاً ومن كان كاذباً قبيحاً ويشير الى كثيرات من اللواتي ظهرن بملابس الحشمة والوقار ويصرخ بان منهن من كانت شهوانية ومن كانت خبيثة حسودة وهكذا ينكشف ما كان مخفياً ويظهر ما كان مطويًا

ولا يستطيع أحد ان يصف مقدار الخجل الذي يستحوذ حينئذ على المرأين .

قيل أن فتاة سقطت في اثم الدنس مع فتى شرير ولما حملت منه ارتاعت عند تأملها في ما سيصيبها من الخجل أمام أهلها وأمام الناس عند ما يأتيها المخاض فأرسلت واستدعت الفتى الذي ائتمت معه وطلبت منه أن يقتلها فأحضر لها كأساً مسمومة فشربتها وماتت تخلصاً من الار

فاذا كان خوف الانسان من ان تشهر خطايه في بيته او في مدينته عظيماً للغاية . وخشيته من ان يشير اليه الناس ويقولون عنه كلما رأوه بان هذا هو الاثيم لا يستطيع وصفها ، ورعبه من ان ينفذ الناس من حوله لاشتهار شره جسيماً جداً . فاذا يكون شأنه حينئذ حينما ينكشف أمره لا امام اهله واهل مدينته فحسب بل أمام الخليقة بأسرها . لا عجب ان صح فيه قول ارميا النبي « قد سمعت الامم بخزيك وقد ملأ الارض عويلك » (ار ٤٦ : ١٢)

قد يمكن هنا ان نستخدم وسائط من الحيل والخداع لنخفي بها عيوبنا عن الناس ولكن هل نستطيع ان تخفيها عن الله هوذا القديس باسيليوس يقول « ان الخجل الذي يرافق الهالكين دائماً ويستمر معهم هو اربع جداً من النار التي يصلونها » وقال الكتاب « يلبس مبغضوك خزيًا » (اي ٨ : ٢٢) وقال ايضاً « ليلبس خصمائي خجلاً وليتعطقوا بخزيهم كالرداء » (مز ١٠٩ : ٢٩)

وقال ايضاً « فيحملون خزيهم وكل خيانتهم التي خانوني اياها »
(حز ٣٩ : ٢٦)

ان البشر يظنون هنا ان الله متغافل عن شرورهم لانه يؤخر عقابهم الا انهم سيعلمون في يوم الحساب انه كان يطلع عليهم ويعد ذنوبهم وهوذا ارميا النبي يقول « القلب أخدع من كل شيء وهو نجس من يعرفه . أنا الرب فاحص القلب مختبر السكبي لأعطي كل واحد حسب طرقه حسب ثمر أعماله » (ار ١٧ : ٩ و ١٠) يعيش الخاطيء الآن في ظلام فكأنه لا يرى خطياه ولكن الله في اليوم الاخير سيلاشي هذا الظلام ويظهر النور في وسط قلب الخاطيء ليري تقاقم شر الخطية الذي كان يستخف به ويحسبه كلاً شيئاً ولهذا يقول المخلص « ها أنا آتي كلكم . طوبى لمن يسهر ويحفظ ثيابه لئلا يمسي عرياناً فيروا عورته » (رؤ ١٦ : ١٥)

أجل ان هذا الرياء وذاك النفاق سينكشفان وينفضح امرهما وأولئك المتظاهرون بالفضيلة ستظهر حقيقة حالهم ولا ادل على هذا اكثر مما كتب في احدى سير الاءاء . ذلك ان راهباً من الاتقياء الصالحين اخذ ذات ليلة يتأمل في حقيقة الدينونة ويعمن النظر العقلي في قول رسول الامم الى أهل غلاطية « ولكن ليمتحن كل واحد عمله وحينئذ يكون له الفخر من جهة نفسه فقط لا من جهة غيره . لان كل واحد سيحمل حمل نفسه » (غلا ٦ : ٤ و ٥) وفي قوله لأهل رومية « الذي سيجازى كل واحد حسب أعماله » (رو ٢ : ٦) وفي قول داود النبي « لانك أنت تجازى الانسان

كعمله» (مز ٦٢ : ١٢) وفي قول سليمان « أفلا يفهم وازن
القلوب وحافظ نفسك ألا يعلم فيرد على الانسان مثل عمله »
(ام ٢٤ : ١٢) وفي قول أرميا النبي « انا الرب فاحص القلب
مختبر الكل لأعطي كل واحد حسب طرقة حسب ثمر أعماله »
(ار ١٧ : ١٠) وقول المسيح « فان ابن الانسان سوف يأتي في
مجد أبيه مع ملائكته وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله »
(مت ١٦ : ٢٧) فاستغرق الراهب متأملاً في هذه الأقوال الرهيبة
نحو ساعتين متواليتين ثم انتقلت أفكاره الى ما يوافق ذلك من
الأقوال الالهية مثل قول الامثال « لان طرق الانسان امام عيني
الرب وهو يزن كل سبيله » (ام ٥ : ٢١) وفي قوله « كل طرق
الانسان نقية في عيني نفسه والرب وازن الارواح » (ام ١٦ : ٢)
وقول الجامعة « لأن الله يحضر كل عمل الى الدينونة على كل خفي
ان كان خيراً او شراً » (جا ١٢ : ١٤) فازداد قلقه وأرقه وأخذ
يقول في نفسه ما أصعب ذلك اليوم وما أشد هوله كيف يحمل
الانسان حمل نفسه ولا يساعده في ذلك الحمل احد . فطوبى لمن
استطاع ان يخفف هذا الحمل بالقوبة النقية والاعمال المرضية
والاتكال على بر يسوع وليس على بره الذاتي لان بر الانسان مهما
كان فهو انجس من خرقه الحائض . وقد سمح في هذه الافكار كما
يسبح الانسان في بحر زاهر لا اول له ولا آخر فغلب عليه النعاس
ونام نوماً عميقاً واذ شغلت هذه الافكار ذهنه سببت له حلاً عجيباً

وهو انه تصور نفسه متنقلا بالروح الى حيث يدان كل انسان بعد موته في يوم الدينونة الرهيب فرأى المسيح جالسا على منبر العدل وعند كرسيه ملاك يمسك بيده ميزانا ورأى الارواح تمر أمامه وكل منها يحمل كيسين احدهما مكتوب عليه (كيس الاعمال الصالحة) والثاني مكتوب عليه (كيس الاعمال الشريرة) ثم رأى الملاك يأخذ الكيسين ويضعهما في كفتي الميزان فاذا رجحت كفة الاعمال الصالحة يصدر الديان حكمه بادخال النفس الى فردوس النعيم حيث الهناء المقيم والسعادة الابدية واذا رجحت بالعكس كفة الاعمال الشريرة فانه يصدر في الحال حكمه بطرح تلك النفس في النار المؤبدة المعدة لابليس وجنوده

وبينما هو مندهش من هذا المنظر رأى سيدة جميلة تظهر على هيئة النبالة والحشمة ويتجلى عليها الشرف والوقار وتأمل في الكيسين اللذين تحملهما فرأى كيس الاعمال الصالحة اعظم من كيس الاعمال الشريرة واكبر منه نحو مائة مرة فانشرح صدره وتهلل وجهه بالفرح وقال حقاً أن هذه السيدة ستنال السعادة الدائمة . ولكن يا لشدة استغرابه ويا لفرط دهشته فإنه لما وضع الملاك الكيسين في كفتي الميزان رأى الكيس الاصغر قد رجح في الميزان والكيس الآخر الكبير الحجم ارتفع الى فوق كأنه لم يكن وفي الحال اصدر القاضي حكمه العادل بشجب تلك المرأة التعيسة وطرحها في الظلمة البرانية حيث البكاء وصرير الاسنان .

قال الراهب صاحب الحلم : فلما ازدادت حيرتى تجاسرت وتقدمت نحو الملاك وسألته كيف ان ذلك الكيس الحقيق الصغير يرجع فى الميزان على الكيس الكبير فقال لى تقدم أيها الانسان وانظر الى ما بداخل كل من الكيسين فتفهم السبب . قال ذلك وفتح أولاً الكيس الكبير فوجده مفعماً بأكياس صغيرة مكتوباً عليها العتوانات الآتية (صلوات . تأملات . اعترافات . مناولات . صدقات . زيارة مرضى . عيادة مسجونين . اكساء عراة . إطعام جياع . تربية ايتام . إعالة ارامل . سماع عظات . حضور قداسات) وما شاكل ذلك من أعمال الخير . فازددت اندهاشاً وحيرة ولم أعلم كيف ان أعمالاً عديدة كهذه كلها صالحة وتقوية لا تكون راجحة فى كفة الميزان الالهى واضطربت أفكارى وتغير لوى وكدت اشك فى عدالة الله فقال لى الملاك لا تستعجب يا هذا ولا يعترينك أقل ارتياب فى عدالة الرب الرؤوف الرحيم ، ثم فتح الكيس الآخر فارانى فيه صرة صغيرة مكتوباً عليها (نفاق ورياء) وقال اعلم يا هذا أن جميع أعمال هذه السيدة لم تكن صادرة عن محبة فى يسوع المسيح لانها ما كانت تعمل عملاً خيراً الا بقصد الافتخار والتباهى واستجلاب المدح من الآخرين أو لاجل الربح الذاتى فاستوفت بذلك اجرها فى حياتها لانها لم تسمع لقول القادى فى وجوب عمل الصدقة فى الخفاء وعدم التصويت عند عملها بالبوق فتذكرت حينئذ ما قيل فى كلمة الوحي عن النفاق والرياء من

انه من صفات الاشرار اذ قيل « قد حرثتم النفاق. حصدم الاثم .
 أكلتم ثمر الكذب » (هو ١٠ : ١٣) وقيل « وأعاقب المسكونة
 على شرها والمنافقين على أثمهم » (اش ١٣ : ١١) وقد حذرنا
 المسيح منه اذ قال « تحرزوا لانفسكم من خمير الفريسيين الذى هو
 الرياء » (لو ١٢ : ١) وقال لنا بلسان رسله ان المحبة يجب ان تكون
 بلا رياء (رو ١٢ : ٩) وكذلك الايمان (١ تي ١ : ٥) وكذلك
 المحبة الاخوية (١ بط ١ : ٢٢) وان المسيحي الحقيقي يجب عليه
 ان يطرح كل مكر ورياء (١ بط ٢ : ١) وان المرأين يقطع
 نصيبهم من الملكوت

تذكرت ذلك فعلمت ان السيدة المذكورة قد استحققت
 المجازاة عدلا بطرحها في البحيرة المتقدمة بالنار ولما استيقظت من
 نومي كتبت أحلامى عساها تنفع كل من يقرأها ويسمعها . فياليتنا
 نتجنب فعل ذلك الفريسي الذى وقف يصلى ويقول انى لست مثل
 باقى الناس الخاطفين الظالمين ولا مثل هذا الشعار الخ وتقتدى
 بذلك الرجل العشار الذى لما دخل الهيكل لم يشأ أن يرفع عينيه نحو
 السماء بل قرع على صدره قائلاً اللهم ارحمنى أنا الخاطيء ونقول
 مع عزرا « اللهم انى اخجل وأخزى من أن أرفع يا الهى وجهي
 نحوك لان ذنوبنا قد كثرت فوق رؤوسنا وآثامنا تعاظمت الى
 السماء » (عز ٩ : ٦)

كثيرون يجعلون عبادتهم مجرد فلسفة كلامية وفصاحة منطقية

فيلقون المواعظ المؤثرة ويخطبون الخطب الرنانة ولكنهم لا يصدرون ذلك كله إلا من القم والشفتين وأما القلب فمشغول بأمور أخرى ولذلك يقول الكتاب «لئلا اجردها عريانة وأوقفها كيوم ولادتها» (هو ٣: ٢)

فكم من الكهنة وخدام الكلمة والوعاظ الذين يلبسون الملابس السوداء المحتشمة ويمسكون بأيادهم الصلبان الذهبية ويضعون على صدورهم القرايين والاناجيل ينكشف حالمهم في يوم الدين وتكون لهم هذه الادعاءات والمظاهر المتصنعة نارا حامية تصلي أجسادهم وتحرق صدورهم. قال السيد المسيح عن أمثال هؤلاء ان كل أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم الناس. فيعرضون عصائبهم ويعظمون اهداب ثيابهم... ولعلة يطيلون صلواتهم (مت ٢٣: ٥ و ١٤) وقد شبههم بالقبور المبيضة (عدد ٢٧) أولئك الذين اتخذوا الدين سلعة يتاجرون بها على عقول الناس، الذين لم ينخرطوا في سلك الخدمة الدينية الا لما ضاقت في وجههم سبل الخدمة العالمية وصاروا للغير قدوة رديئة ومثالا سيئا وبذلك يضاعفون عقابهم وينذرون لانفسهم غضبا ليوم الغضب ويحل بهم الهلاك الذي توعده به الرب الرعاية غير الامناء الذين بأفواههم يباركون وبقلوبهم يلعنون (مز ٦٢: ٤) الذين يقولون «الرب لا يرانا. الرب قد ترك الارض» (حز ١٢: ٨) هؤلاء هم الذين يشير اليهم السيد بقوله «اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق. فاني أقول لكم أن كثيرين سيطلبون

ان يدخلوا ولا يقدرّون . من بعد ما يكون رب البيت قد قام
وأغلق الباب وابتدأتم تقفون خارجاً وتقرعون الباب قائلين
يارب يارب افتح لنا يجيب ويقول لكم لا أعرفكم من أين
أنتم . حينئذ تبتدون تقولون أكلنا قدامك وشربنا وعلمت
في شوارعنا . فيقول أقول لكم لا أعرفكم من أين أنتم تباعدوا
عني يا جميع فاعلى الظلم » (لو ١٣ : ٢٤ - ٢٧) وقوله « كثيرون
سيقولون لي في ذلك اليوم يارب يارب أليس باسمك تنبأنا وباسمك
اخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة فحينئذ أصرح لهم
أني لم أعرفهم قط . اذهبوا عني يا فاعلى الاثم » (مت ٢٢ : ٢٣)
وقد علمنا الانجيل المقدس اننا اذا صلينا او صمنا او تصدقنا
فيجب ان لا نكون كالمرائين الذين يعملون هذه الامور في الشوارع
لكي يظهروا للناس بل يجب علينا ان لا نعرف شمالنا ما تفعل
يميننا ونباشر الفضائل في الخفاء وابونا الذي يرى في الخفاء يجازينا
علانية (مت ٦ : ١ - ٨) لان الحكم في يوم الدينونة سيكون على
ما تكنه القلوب لا على ما تخرجه الافواه . فباطلا نتكلم اذا كنا
لا نعمل . لقد كان بنو اسرائيل يعبدون الله هذه العبادة ولكنه
رفضها وسد أذنيه عن سماع صلواتهم وقال « لان هذا الشعب قد
اقترب الي بغمه وأكرمني بشفتيه وأما قلبه فابعد عني » (اش ٢٩ :
١٣) وقال أيضاً حزقيال « ويأتون اليك كما يأتي الشعب ويجلسون
أمامك كشعبي ويسمعون كلامك ولا يعملون به لانهم بافواههم

يظهرون اشواقاً وقلوبهم ذاهب وراء كسبهم» (حز ٣٣: ٣١)
 فالرب يكره الرياء لان المرائي ينسب الى الله الجهل كأنه
 انسان يرضيه الاكرام بالشفقتين ولا يعرف ما في القلب .
 والكتاب يعبر لنا عن الله أن له عينين كهيبت نار (دا ١٠: ٦
 ورؤ ١٩: ١٢) ويقول عنه أيضاً « وليست خليفة غير ظاهرة
 قدامه بل كل شيء عريان ومكشوف لعيني ذلك الذي معه أمرنا »
 (عب ٤: ١٣) فليعلم كل واحد ان اعترافه الظاهر بالدين بقمه
 لا يضمن له الخلاص ولا يكفل له النجاة انما القلب المتخضع المتواضع
 هو مسكن الله وهيكله الحي وهو سيؤثره على عمود السحاب
 والنار والمسكن وقدس الاقداس فهوذا مسكن الله مع الناس
 وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعباً والله نفسه يكون
 معهم الها لهم (رؤ ٢: ٣) وقال المرتل « لانه هو يعرف خفيات
 القلب » (مز ٤٤: ٢١)



الفصل الرابع والعشرون

في صعوبة الانفصال الابدى

« فيمضى هؤلاء الى عذاب ابدى والابرار الى حياة ابدية »
(مت ٢٥ : ٤٦)

قد عبرت الكتب المقدسة عن التمييز بين الابرار والاشرار في اليوم الاخير بعبارات مختلفة — أولاً . بتمييز المعادن المختلطة والى ذلك اشار الرسول بولس بقوله « ولكن ان كان احد يبني على هذا الاساس ذهباً فضة حجارة كريمة خشباً عشباً قشاً فعمل كل واحد سيصير ظاهراً لان اليوم سيدينه . لانه بنار يستعلن وستمتحن النار عمل كل واحد ما هو » (١ كو ٣ : ١٢ و ١٣) ثانياً . بتمييز التبن من الحنطة بقول يوحنا المعمدان « الذى رفشه فى يده وسينقى بيدرده ويجمع قمحه الى المخزن واما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ » (مت ٣ : ١٢) ثالثاً بتمييز الراعى الخراف من الجداء بقوله « فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعى الخراف من الجداء . فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار » (مت ٢٥ : ٣٢ و ٣٣) رابعاً بتمييز الزوان من الحنطة حيث يقول « دعوها ينميان كلاهما معاً الى الحصاد وفى وقت الحصاد اقول للحصادين اجمعوا أولاً الزوان واحزموه حزمًا ليحرق . وأما الحنطة فاجمعوها

الى مخزنى » (مت ١٣ : ٣٠) . خامساً . بتمييز السمك الجيد من الردىء بعد اجتماعهما في شبكة واحدة بقوله « وجمعوا الجياد الى أوعية . وأما الاردياء فطرحوها خارجاً . هكذا يكون فى انتضاء العالم . يخرج الملائكة ويفرزون الاشرار من بين الابرار » (مت ١٣ : ٤٨ و ٤٩)

ان الاشرار شديدو الرغبة فى الالتصاق بالابرار ليخفوا بمصاحبتهم ما هم عليه من اثم ونفاق وقد يحاولون ان يخفوا شرورهم عن الناس لكي لا ينفضوا من حولهم . فكم اذن يكون الافتراق صعباً عليهم حينما يأتى ملائكة الله ويخرجونهم من بين الابرار فيقولون للخاطيء « أية خلطة للبر والاثم . وأية شركة للنور مع الظلمة . وأى اتفاق للمسيح مع بليعال . وأى نصيب للمؤمن مع غير المؤمن . وأية موافقة لهيكل الله مع الاوثان » ويقولون للابرار « فانكم انتم هيكل الله الحي كما قال الله انى سأسكن فيهم وأسير بينهم واكون لهم الهاً وهم يكونون لى شعباً . لذلك اخرجوا من وسطهم واعتزلوا يقول الرب ولا تمسوا نجساً فاقبلكم » (٢ كو ٦ : ١٤ -- ١٧) يقولون للسارق لا تستحق ان تبقى مع الذى كان يأكل خبزه بعرق جبينه ، ويقولون لمحب المال المرابى الظالم لا ينبغي ان يقف مثلك بجانب من كان يجود بسخاء على المحتاجين ، ويقولون للدنس لا تقف بجانب العفيف . وهكذا يتم الانفصال المريع بين الفريقين . حينئذ يؤخذ الواحد ويترك الآخر (مت ٢٤ : ٤٠) يؤخذ الابن ويترك الاب ،

تؤخذ الام وتترك الابنة ، يؤخذ الاخ ويترك الاخ الآخر ،
يوضع الابرار عن اليمين والاشرار عن اليسار ، يرتفع الابرار الى
فوق ويسقط الاشرار الى اسفل ، يسمع الابرار قوله « تعالوا » .
ويسمع الاشرار قوله « اذهبوا » ، وكلاهما ينفصل عن الآخر
الى الابد

واذا كان الانسان الذى يطرد من جمعية او من هيئة ما يعتريه
غم شديد فاي عذاب يحل بمن يشاهد نفسه مرفوضاً من بين
القديسين ومساقاً للوقوف فى صف الشمال مع الهالكين ؟
قل لى ايها القارىء العزيز على أى شيء عزمت وفى أى مكان من
الاثنين تريد أن تقف ؟ فى جهة اليمين أم فى جهة اليسار ؟ وأى
الصوتين تحب ان تسمع أحب ان تكون حبيباً أم عدواً ؟ ما
اروع الحالة التى ينتهى اليها الاشرار عند ما يبعدون عن
القديسين وهم يقولون لهم « يالشفقتنا المؤبدة ويالللندامة التى لا
تنتهى . طوباكم ايها الابرار يا لسعادتكم يا لغبطتكم ، ثم تنادى الأم
ولدها والاب ابنه والاخ اخاه والصديق صديقه قائلين لم يعد
يمكننا ان نراكم الى الابد »

حينئذ يتدثرون بوداع المؤمنين فيقول الهالك لاخيه الصالح
الوداع يا أخى انى ما عدت أراك ، والام الشريرة تقول لابنتها
البارة هذه هى المرة الاخيرة التى فيها أراك يا ابنتى فما أمر هذا
الوداع اذ لم يعد لى أمل فى أن أراك فيما بعد . والابنة الشقية
تقول لامها التقية وداعاً لك يا أمي هنيئاً لك انت قد حصلت على

الراحة وأما ابنتك ففي عذاب دائم فألى أراك لا تذر فين دمة واحدة على ابنتك . متى تعلم قلبك هذه القساوة علي وقد كنت في ما مضى تتألمين لأقل ألم يصيبني

أيها الوالدون . هوذا جنت اولادكم في توابيتهم . وستغيب عما قريب في القبر . انظروها تملأوا منها قبل ان توارى في الثرى ولكن لا تعتبروا ان هذه هي آخر نظرة تلقونها على افلاذ اكبادكم فأمامكم مجال آخر ترونهم فيه في اليوم الاخير فاما تجتمعون بهم اجتماعاً أبدياً أو تفارقونهم الى ما لا نهاية له فالوداع المر لا يكون هنا بل هناك . والفراق الابدي لا يتم في هذا العالم بل في العالم الآخر . كم من كثيرات فارقت الحياة عقب موت محبيهم لشدة تحسّرهم وحزنهم . فماذا تتصور اذا حزن الهالكين حينما يرغمون على مفارقة من يحبونهم الى الأبد . حينما تنقطع العلاقات وتبطل المحبة بين الاب واولاده والام وابنائها والاخ واخوته . لقد بكى يعقوب على يوسف مع أنه مؤمن يعتقد انه سيلقيه فماذا تتصور عويل الخطاة في يوم الفراق الذي ليس بعده لقاء

انظر تر جهوراً غفيراً ملتئماً حول واحد على قرب سفر وهم بين باك ومنتحب لان هذا الانسان سيفارقهم شهراً أو سنة أو أكثر . انظر الى مشهد ميت تراه مؤثراً لان الميت سيفارقهم مدة وجودهم على الارض وسيلاقونه بعد موته . الفراق كلمة مرة ثقيلة على الطبيعة البشرية . أنظر لهذا يقف على قبر ابنه كئيماً وهو يذكر كلماته الحلوة وعياه الجميل بحزن عميق . انظر لهذا يبكي

زوجته الراحلة معدداً فضائلها وحسناتها . انظر لهذا يبكي ابويه
 بحنو زائد ذا كراً عطفهما عليه ومحبتها له . ولكن هذا
 الانفصال الذى يولد كل تلك الحسرات هين بالنسبة للانفصال
 الابدى .

ماذا يعمل الشرير حينما يرى أهله وأقاربه فى صف اليمين وهو
 فى صف الشمال ، ماذا يكون حاله عند ما يرى ابنه الذى كان يحبه
 فى هيئة الابرار وهو مضطرم بالشوق اليه ليسلم عليه ويقبل
 وجنتيه ولكن ليس من يسمح له ، وكيف يكون حزنه اذ يحمل
 الى جهنم وابنه الى السماء وهو يلتفت الى الوراء شاخصاً اليه
 الى أن تفصل بينهما هوة عظيمة ويفارقه الى الابد . وأحسرتاه
 يا أيها الذين تبكون بحرقه على موتاكم . ان البكاء الحقيقى لا يصح
 عليهم الا اذا تم الفراق بينكم وبينهم لا فى هذا العالم بل فى العالم
 الابدى

فحينما يرى الاشرار فى اليوم الاخير مجد الصديقين وعظمتهم
 ويشاهدون تصرف الملائكة معهم ويرون الاحتفاء الذى يوجه
 اليهم والضياء الذى يسر بلهم ثم يدكرون ان هؤلاء الصديقين كانوا
 اناساً مثلهم وكانوا لابسين اجساداً كأجسادهم وساكنين فى العالم
 معهم ومنهم من عاش ببؤس عظيم ولكنهم بالتوبة والايان خلصوا
 واستحقوا هذه الغبطة الدائمة فأى حسد محرق يمزق قلوبهم
 ويعذب أحشائهم

ما أشد الغيظ الذى تضطرم به قلوب الاشرار حينما يرون

أنفسهم في عذاب ويرون الابرار في نعيم . أجل سينغطون عيونهم حتى لا يرون الاتقياء في السماء وسيكون ألمهم مرأً وغيظهم شديداً عندما يذكرون انهم كانوا بشراً مثلهم وكان في امكانهم ان يسعوا لينالوا السعادة نظيرهم ولكنهم انهمكوا في لذة وقتية وخسروا المجد السرمدي . قال الكتاب «هناك يكون البكاء وصرير الاسنان» (مت ١٣ : ٥٠) كم تألم اخوة يوسف لما رأوا أباهم يفضل عليهم يوسف ويحبه اكثر منهم حتى انهم عزموا على قتله (تك ٣٧)

فيكون حسد الاشرار للابرار حينئذ بالغاً حده . أية حسرة ملكت قلب الغنى عندما رفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب ورأى ابراهيم من بعيد ولعازر في حضنه . لاريب انه استعرض في مخيلته حالته وحالة لعازر قبل الموت وحالتهما بعده وكيف تغير الحال وارتفع الفقير الحقير وسقط الغنى العظيم ، وقد كان يتمنى ان يضاعف عقابه في جهنم الف مرة ولا يرى ذلك الحقير ممجداً ولا يجد نفسه وهو العظيم محتقراً مهاناً (لو ١٦ : ٢٣) قال أحدهم « قد كان الغنى يتمتع من شدة حسده للعازر عذاباً أشد من عذاب النار »

نعم سيحزن ملوك العالم الذين اتكوا على قوتهم ونسوا إلههم لانهم يرون عبيدهم في السماء وهم في الجحيم . سيتحسر عظماء الدنيا الذين قضوا حياتهم في الملمات والشرور حينما يرون البائسين في حضرة الله وهم في قبضة ابليس . سينتحب الاغنياء الذين عاشوا لأنفسهم حينما يرون الذين كانوا يستغطون منهم وقد اصبحوا في

ذرى المجد وهم في وسط اللهب . ومما يزيد عذاب الاشرار انهم يرون الابرار ينظرون اليهم باحتقار ويقول الرب « وانا ايضاً اصفق كفي على كفي واسكن غضبي . انا الرب تكلمت » (حز ٢١ : ١٧) ان الذى يخسر فى اللعب لا يزداد غمّاً الا حينما يرى الغير يضحكون عليه ، ولا شئ يزيد الخطاة فى جهنم عذاباً أكثر من رؤيتهم الابرار يشخصون اليهم ويضحكون عليهم فيضحك ايليا على آخاب ويوحنا المعمدان على هيرودس ولعازر على الغنى هذا من جهة انفصال الانسان عن اهله وعارفيه ولكن هناك ما هو اشد هولاً وأعظم صعوبة وهو انفصال الانسان عن الهه وخالفه وفاديه والمحسن اليه . قال القديس اوغسطينوس « اننا لا يمكن ان نقول ان النفس تكون حية حيث تكون منفصلة من النور الالهى ولا الجسد ايضاً يكون حياً وهو موضوع تحت العقاب الابدى »

لما قال الرسول بولس للمؤمنين في ميليتس وافسس « والآن ها انا اعلم انكم لاترون وجهي ايضاً » انتحبوا انتحاباً شديداً كما يقول الكتاب وكانوا « متوجعين ولا سيما من الكلمة التى قالها لهم انهم لن يروا وجهه ايضاً » (اع ٢٠ : ٢٥ و ٣٨) فاذا كان فراق أحد الرسل قد اضرم فى قلوب المؤمنين نيران الحزن والغم بهذا المقدار فاذا تكون حالتك أنت حينما تنفصل ولا أقول عن أهلك وأصحابك أو عن الانبياء والرسل أو عن الملائكة والجنود السماوية أو عن السماء نفسها والنعيم ذاته بل

عن أليك السماوى لان كل عذاب سمعت أنه سيكون في جهنم
 معها كان شديداً لا تقاس شدته بشدة انفصالك عن الهك . كيف
 تكون حسراتك وتأوهاتك حينما تعلم أن محبة الهك لك قد فرغت
 وانه وهو الاله الذي كان يوجد عليك بالخير قد نزع من قلبه كل
 عطف عليك وامتلاء قلبه قساوة وشدة يزيدان هول الشقاء الذي
 يوقعه بك

فعدم مشاهدة الله هو الذى عناه المخلص بقوله عن الخطايء
 « لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله » (يو ٣ : ٣٦) وقال
 القديس يوحنا فم الذهب « ان عدم مشاهدة الله هى أشر من
 كل نيران جهنم » وقال أحد اللاهوتيين « ان الله يظهر للمفدين
 أشعة يسيرة من وجهه الالهى لى يعرفوا أى خير عظيم جعلتهم
 الخطيئة يفقدون »

اعلم انه وان كانت الطبيعة الآن تجود عليك بالنعمة بالرغم من
 شرك فتعطيك الشمس نورها وحرارتها والارض أثمارها وغلاتها
 والهواء نسيمه والمياه قوتها فذلك لان الله ما زال يشفق عليك
 ويمهلك راجياً أن ترجع عن اثمك تائباً ولكن هذه الحال لاتدوم
 تأمل فيما جرى وقت صلب المخلص كيف ان الله حينما سخط على
 الخليقة لتعديدها عليه حجبت الشمس نورها ومنعت الارض
 سكونها فسادت الظلمة على وجه الارض واضطربت الارض
 وماجت (مت ٢٨ : ٤٥ — ٥٤) فهذا عينه سيتم عليك حينما
 يتم الانفصال بينك وبين خالقك ، ينزع النور من قلبك والسلام

من نفسك والراحة من ضميرك فتحس بعذاب لا يوصف ولا يبقى
عندك أى اثر من الفرح والسرور فاذا كانت الطبيعة تحسن اليك
فلأنها تعرف ان الله لم ينفصل عنك ولكن حينما ينفصل عنك
تتحول الطبيعة المحبة الى عدو لدود بل ويصبح ما كنت تسر به
علة حزن لك . كتب العلامة أوريجانوس يقول « انه حينما كان
مغلقة على نوح داخل الفلك كانت الارض عقيمة ولا نبات فيها
أو ثمر وذلك لأن الشمس لم تكن تطلع على الارض فى ذلك الحين »
فاذا كان احتجاب هذه الشمس الحية صار سبباً لاتلاف الارض
وبوارها فكم يصيبك أنت أيها الانسان الشقي حينما تفقد شمسك
الحقيقي ونورك الاصلى الله خالقك . وقيل أيضاً عن شمشون
الجبار أن الفلسطينيين لم يهتموا بخلق شعر رأسه بعد ما ثبت مع
علمهم بأنه سر قوته لتأكدهم من أن الرب فارقه . فمما تكون
حال الجبلبة التى تنفصل عن جابلها ؟ ألا يرخي عليها الظلام الخالك
سدوله ؟ ألا يصبح الانسان حينئذ كمين غاضت مياهها وككرمة
جافة يابسة وكجسد فارقتة الحياة ؟

انه لما سب شمعي داود الملك لم يحتمل ذلك ايشاى بن صرويه
بل التفت الى الملك وقال « لماذا يسب هذا السكب الميت سيدى
الملك . دعنى اعبر فاقطع رأسه » (٢ صم ١٦ : ٩) فهكذا أيها
الخطاىء يامن أهنت الهك ستثور ضدك مخلوقاته وتشتهي الانتقام
منك . سيسمع صوت الارض يقول دعنى افتح فى لا ابتلع هذا
الخانن الخائى . وتقول المياه اتركنى اخنق هذا العديم الوفاء

لمن اوجدني. ويطلب الهواء ان يسحقك. وتطلب النار ان تحرقك .
ذلك لانك ايها الخاطيء المسكين قد انفصلت عن إلهك فانفصل
عنك كل خير

ان الفخر الذي رفع الله الانسان اليه باتصاله به لا يستطيع
وصفه كيف لا والرسول بطرس يقول « كما ان قدرته الالهية
قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى بمعرفة الذي دعانا بالمجد
والفضيلة اللذين بهما قد وهب لنا المواعيد العظمى والثينة لكي
تصيروا بها شركاء الطبيعة الالهية » (٢ بط ١ : ٣ و ٤) فكم هو
عظيم شرف الفضيلة الذي يوصل الانسان بالله بل يجعله شريكاً له
في طبيعته الالهية وبالعكس كم هو شنيع عار الخطية التي تسقط
الانسان من هذا السمو غير المتناهي فيصير مجهولاً عند الله
بالكلية حتى انه يقول له لست اعرفك (مت ٢٥ : ١٢) ان عيسو
حينما علم ان بيعه البكورية قد سلب منه بركة ابيه اغتم غمّاً جسيماً
ورفع صوته وبكى بمرارة (تك ٢٧ : ٣٤) فبأية حرقه يبكي الخاطيء
حينما يعلم ان خطيئته لا تفصله عن بكوريته ولا عن موهبة بنوة
وضعية بل تفصله عن إلهه وتبعده عنه بالسكية . ان الله وعد ان
يكون هو والمؤمن واحداً بالحبّة فالله الموجود في كل مكان حال
في المؤمن على نوع خاص كما قال المخلص « ليكون الجميع واحداً
كما انك انت ايها الآب في وانا فيك ليكونوا هم ايضاً واحداً فينا »
(يو ١٧ : ٢١) ولكن الخاطيء لا يكون بينه وبين الله ادنى

اتصال كما يصرح سليمان الحكيم قائلا « الرب بعيد عن الاشرار »
(ام ١٥ : ٢٩)

كم كان الله يعتبر ان من أحسن حالات السعادة والطمأنينة
للمؤمنين أن يصرح لهم أنه هو معهم فكان يقول لهم لا تخافوا
انا معكم . وبهذا القول شدد اسحق (تك ٢٦ : ٢٤) ويعقوب
(تك ٣١ : ٣) وموسى (خر ٣ : ١٢) ويشوع (يش ١ : ٩)
وارميا (ار ١ : ٨) وباقي القديسين في كل العصور ، وبالعكس
اذا انفصل الله عن الانسان حلت به الويلات كما انفصل عن منسى
الملك فعدم ملكه (٢ اي ٣٣ : ١١) وعن شاول فعدم حياته
(١ صم ٣١ : ٦) وعن على الكاهن فعدم أولاده (١ صم ٤ : ١٨)
فقل لي أيها الخاطيء كم من المزايا تفقد اذاً عند ما ينفصل عنك
الله انفصالا ابدياً ؟

ان الذى يفقد خروفاً واحداً يحزن عليه ويبحث عنه والذى
يفقد درهماً واحداً لا ينفك طالباً اياه والحال ان الخاطيء لا يعدم
شيئاً زهيداً هكذا بل سيحرم من السماء ويفقد الملكوت . ان
احد الكتاب الاول يروي عن اليهود انه بعد ان طردهم
الرومانيون من اورشليم بعد صلب مخلصنا كانوا
يجمعون من بلدان مختلفة ويأتون الى اورشليم في العام دفعة
واحدة في يوم معلوم لكي يبكوا على سبي اورشليم وخراب
الهيكل إلا أن الحكام الرومانيين لم يكونوا يسمحون لهم بالدخول
الى المدينة إلا بعد أن يرشوهم باموال وافرة فكانوا يجمعون

كلهم معاً أمام باب اورشليم الرجال والنساء والشيوخ والشباب
والعذارى والارامل وهم لابسون اثواب الحداد ويمشون حفاة
مكشوفى الرؤوس مكمدى الوجوه مدمعى العيون ويدورون
حول اطلال الهيكل الذى صار اثرأ بعد عين ويسكبون عبراتهم
على بقايا اساساته وكان قوم منهم يرغبون شعورهم على رماده المقدس
وآخرون يقرعون صدورهم أمام الخزانة المهذومة والجند من الجهة
الآخرى يلحون عليهم بالرجوع اما هم فكانوا يرشونهم ويسألونهم
ان يتمهلوا عليهم ليبكوا طويلا . لماذا كان اولئك يظهرن مثل
هذا الاسف والتحسر ؟ أليس من أجل مدينة صارت خراباً ! فالى
اراك جامداً لا تختلج فى عينيك دمة واحدة وانت تعرف أنك
بأثمك لم تفقد الهيكل فقط بل إله الهيكل . ليت الخطاة يتأملون
فى ذلك ليعلموا مقدار الخسارة الباهظة التى تفقدها اياهم لذة الخطية
الوقتية فعند ذلك يصرخون مع الرسول بولس « لكن ما كان
لى رجاً فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة . بل انى احسب
كل شئ ايضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربى
الذى من أجله خسرت كل الاشياء وانا أحسبها نفاية لكى اربح
المسيح » (فى ٣ : ٧ و ٨)



الفصل الخامس والعشرون

في النهاية المريعة

« وماذا تعملون في آخرتها » (ار ٥ : ٣١)

« فأنا أيضاً اختار مصائبهم ومخاوفهم اجلبها عليهم . من أجل اني دعوت فلم يكن مجيب تكلمت فلم يسمعوا بل عملوا القبيح في عيني واختاروا ما لم أسره » (اش ٦٦ : ٤)

« أيضاً من اليوم أنا هو ولا منقذ من يدي . افعل ومن يرد » (اش ٤٣ : ١٣)

ان النفس ستتحّد بالجسد بعد الانفصال وتتعلق به والجسد ثقيل ومن شأن الاشياء الثقيلة أن تجذب الى اسفل . اذاً فالنفس تنحدر مع الجسد الى اسفل واعلم ايضاً أن ذلك المكان الدائم هو جوف الارض وهو قاع عميق مظلم الى الغاية . مكان لعنة خوف جداً . حبس مريع مفعم بالعذاب المبرح والعقوبات الشديدة . منفى أبدي دائم لا خلاص منه أبداً وسلطان تلك الارض وحاكمها المغتصب ابليس وسكانها الخطاة المدانون فلا تؤمل يا هذا ان تنظر هنالك شيئاً من الاشياء المفرحة فانك لعمرى لا تنظر الشمس مشرقة ولا القمر منيراً ولا النجوم ساطعة . قال المرتل « ياطر على الاشرار فخاخاً ناراً وكبريتاً وريح السموم نصيب كأسهم »

(مز ١١ : ٦) وقال أشعيا النبي « لذلك وسعت الهاوية نفسها
وفغرت فاهها بلا حد فينزل بهاؤها وجمهورها وضجيجها والمبتهج
فيها . ويذل الانسان ومحط الرجل وعيون المستعلين توضع »
(اش ٥ : ١٤ و ١٥)

ها قد ارتفع حجاب الابدية تقدموا أيها الناس . مالى أرى
الكثيرين منكم واجمين خائفين ، مالى أراكم ترتعبون اذ رأيتم
عرش الله ، مالى أراكم تودون لو يعود الباب الى مكانه . مالى أرى
خوفكم شديداً . الاقدام التى كانت تسرع للشر مالى اراها تتلوى .
الايدي التى كانت تخطف الأثم ماله تترخي . الاعين التى كانت
تحقق فى الابطيل ماله تعمى . الآذان التى كانت تطرب لسماع
ردىء القول ماله تصم . اللسان الذى كان يتكلم بالفحش ماله
يخرس . مالى أرى المتكبرين يذلون والمتشاخين ينحطون . مالى
أرى أغنياء يفقرون وملوكا يسقطون . اين عزكم اين مجدكم اين
فخركم ؟ تقدموا ما بالكم جزعون . ماعهدناكم تخافون . اين قوتكم
واين جاهكم وسلطانكم

وأسفاه ان الخطية تبدو علينا والخطية عدو الله فخوفنا
من الله يمنعا من التقدم . نود لو نعود الى العالم مرة أخرى لنعيد
سلطتنا وجلالنا أو نصلح خطأنا وعيوبنا . اين أيماننا الاولى . اين
الاوراق التى كنا فيها مسيطرين ، واصحاب نفوذ وسلطان . لقد
انتهت ولم يبق لنا الا ان نحاكم ونعاقب .

أيها الاشرار يامن لا تستطيعون التقدم سيحملكم ملائكة الله

الى المحل المعد لكم . نعم سيحملكم ملائكة الله ولكي يزيدوكم عذاباً يعمرون بكم أمام باب السماء فتحاولون الدخول فيمنعكم الملائكة قائلين « هذا الباب ضيق لا يمكنكم الدخول منه لانكم تحملون احمالا لا يمكنكم ان تدخلوا بها » فتقولون لقد جردنا الموت مما نملك فلم يأت معنا شيء مما كان لنا فيقولون لكم ومن هذا قام نقصكم . انكم ترون كل شيء الا الخطية فالخطية لم تترككم انها لم تزل متعلقة بكم واننا نراها ثقلاً عظيماً على أعناقكم . نرى عليكم شروراً عديدة وذنوباً كثيرة . تقولون لنطرح الخطايا حتى ندخل مع الابرار فيقولون لكم لقد فاتكم أو ان طرحها فانها الآن لاصقة بكم . أترون ذلك الباب الواسع الذي تضطرم النار في داخله انه هو منواكم ومقرمكم فيالتعاستكم

والأسفاه عليكم أيها الخاطيء فان آخر نظرة تودع بها الدنيا الباطلة تعقبها أول نظرة في جهنم . تبطل آخر حركة لك في الارض لتتحرك أول حركة في الجحيم . تصم اذنك عن سماع آخر كلمة في العالم لتفتح اذنك لسماع زئير المعذبين في النار الابدي ان الطفل اذا تكلم أول كلمة تعرف انه سيلفظ آخر كلمة واذا نظر أول نظرة تعرف انه سينظر آخر نظرة أما الخاطيء في جهنم فهو اذا فتح عينيه ليرى العذاب فلا يعلقهما ليسترخ نظره لحظة واحدة بل يفتحهما الى الأبد

فكيف تنجو أيها الخاطيء من يد العدل الالهى الرهيب ؟

وكيف تخلص نفسك من ذلك الحزن والنحيب ؟ هل تفكر في الهروب ؟ اهرب ان كنت قادراً . كلا بل ينبغي ان تصرخ مع المرتل « اين أذهب من روحك ومن وجهك أين أهرب . ان صعدت الى السموات فانت هناك . وان فرشت في الهاوية فها أنت . ان أخذت جناحي الصبح وسكنت في أقاصي البحر . فها أنت أيضاً تهديني يدك وتمسكني يمينك . فقلت انما الظلمة تغشاني . فالليل يضيء حولي . الظلمة أيضاً لا تظلم لديك والليل مثل النهار يضيء كالظلمة هكذا النور » (مز ١٣٩ : ٧-١٢)

قال القديس يوحنا فم الذهب : — « أما أنا فاني انوح دائماً واندب متواتراً من هول ذلك اليوم الذي فيه تجتمع جميع الامم واللغات وتموج بحار العبرات وتظلم العيون الرائقة وتخرس الالسن الناطقة وتذل عطاء الجبارة وتخضع رقاب الاكاسرة وتذل اعناق الظالمين ويكثر ضجيج الخطائين حيث لا مال ينفع ولا محب يشفع ولا عذر يقبل ولا خلاص يؤمل بل سماع اصوات ملائكة يوبخون وربوات اجناد يبكتون واعوان يتسابقون وخاطئون يعذبون وعصاة يصرخون وينوحون ولا يرحمون حيث يسمعون الديان حينئذ قائلاً : اين هم أولئك المطيعون لشهوات نفوسهم المخالفون لاوامر ربهم ، اين هم الذين كانوا يتنعمون ويبذخون وهم عن الآخرة معرضون ، اين هم قادة الجيوش ومقدمو العساكر والجبارة والقساة ، اين هم الذين كانوا يظلمون عبيد ربهم وخافة الله ليست في قلوبهم ، اين الذين كانوا يسرقون ويخلفون ويكذبون

وهم مسرورون ، اين الذين كانوا يخرجون باكرًا ويسعون في أر
 النجاسات وينهبون متاع الايتام وهم عن احكام ربهم معرضون
 اين عظمة الملوك وتجبر السلاطين و سطوة الجبارة وتعظم المتكبرين .
 أجبنى ايها الملك ما بالك هنا ذليلا ومالك خاضعاً كئيباً وما بالك
 طريقاً قتيلاً ، اين الحلل والتيجان واين العشائر والاصحاب واين
 العبيد والحشم واين الدعوات والهمم واين العشائر والاصحاب واين
 الخائفون من رد الجواب ؟ كيف خدلتك الآن عساكر المملكة
 وخانتك رجال المعركة وكيف لم تحرس حياتك الجيوش ولا صحت
 روحك العساكر الليوث ولا منعت عنك الحصون المنيعة ولا
 صانت جبروتك القلاع المشيدة وكيف غفلت عنك الحراس في الليل
 ولم هجمت عيون حفظة النهار حتى خرجت من ملكك عارياً
 وجذبت من قصرك ذليلاً واصبحت طعاماً للحشرات وأنيساً
 للفلوات وصائراً الى رذيلة هذا عظم مقدارها ؟ فيجب ذلك
 العاجز ويقول ارحم ياسيد من اغتر بطول الاجل واعتز بامتداد
 الامل واشتغل بالما كل الفانية والتهى باللذات المتلاشية وتفاخر
 بالملابس البالية وتباهى بالجموع الخائبة حتى تركته عبرة للناظرين
 وتذكرة للغافلين . فيقول له الديان حينئذ انت نلت خيراتك في
 الحياة الدنيا واخذت حظك من نعيمها فاذ قد سررت باللذات الزائلة
 زماناً قصيراً ستعذب ههنا عذاباً طويلاً »

فماذا تقول ايها الخاطيء اذا ها انت تنادى ديانك قائلاً . لماذا
 تحكم علي هذا الحكم القاسى . هل لاني تركت العبادة ولم اهتم

بالصلاة ؟ اتركني لأعود الى العالم فاقضى ليالي وايامي جائياً امامك .
هل لاني غضبت على غيري ؟ اسمح لي فاعود لأركع امام كل من
الساأت اليه غنياً كان ام فقيراً . هل لاني ظلمت الغير ؟ دفعي
اذهب واعوض كل من سلبته شيئاً اربعة اضعاف . هل لاني لذت
جسمي ونعمته ؟ ارجعني فاذله واقعه واعذبه عذاباً شديداً

ولكن لا لا . لقد فات الوقت الذي كان يمكنك فيه ان تصلح
خطأك . ان زكا حينما دعاه السيد المسيح لم يقل له فيما بعد « اعطى
نصف اموالي للمساكين وان كنت قد وشيت بأحد ارد اربعة
اضعاف » بل قال « ها انا يارب » (لو ١٩ : ٨) واما انت فامتدت
اليك الايدي وهي ترتعش من الخوف منك فكنت تردّها خائبة وكم
نصح لك كتاب الله وخدام الله لكي تقلع عن أثمك وتطرح
خطيئتك وكما قيل لك ان « اجرة الخطية هي موت » (رو ٦ : ٢٣)
ولكنك لم تسمع ولم تبال بما قيل لك فتبعتك الخطيئة الى هنا
ولن تفارقك الى الابد .

اجل عندما يطرح الاشرار في ذلك الاتون المرعب ويشعرون
بعذاب النار ولدغ الدود يدركون ان كل العلاقات البشرية قد
انقطعت فلا يشفق الآب على ابنه ولا الام على ابنتها ولا
الصديق على صديقه لان كل منهم يكون مشغولاً بعذابه مثقلاً
بآلام نفسه كما قال اشعياء النبي « بسخط رب الجنود تحرق
الارض ويكون الشعب كماً كل للنار . لا يشفق الانسان على
اخيه » (اش ٩ : ١٩) وقال السيد المسيح « ويسلم الاخ اخاه الى

الموت والاب ولده ويقوم الاولاد على والديهم ويقتلونهم»
 (مت ١٠ : ٢١) فلا يسمع اذ ذاك سوى صياح وعويل وتجديف
 عند ما يفتح بئر العمق ويصعد دخانها الى السماء وتصرخ
 الابالسة والاشرار باصواتها المريعة وترتجف الارض وتفتح
 الجحيم فاهها لتبتلعهم وينقطع الرجاء وتبتعد الرحمة ويحكم العدل .
 في ذلك الحين يلتفت الابن الى ابيه ويقول « لم شفقت علي ولم
 تؤدبني ولم تركتني الى اهواء نفسي حتى وصلت الى هذا اليوم
 الرهيب » فيلتفت اليه ابوه ويقول « ياليت امك ما حبلت بك
 وليتك ما كنت ولدت ولا بشرتني بك القابلة . احببتك عن نفسي
 ولم ارد اصلاحك خوفاً عليك من انكسار خاطرك ولم آت بك الى
 بيت الله لاني لم ارد ان ازعجك باستماع كلمة الله قائلاً في نفسي هذا
 الطريق ضيق وعسر عليك سلوكه وخير لك ان تسر وتفرح مع
 اصدقائك واحبائك . ولكن واحسرتاه قد انقطع حبل الرجاء
 ولا تقدر ان تعود الى يوم الحياة لتني عن ما آسئنا ، ها الجحيم
 فاتح فاه لا ابتلاعنا » وتقول الابنة لأمها « ياليتك كنت عاقراً
 وياليت عيني لم تبصر نور الحياة ولا قلبي تصور في احشائك التي
 منها قد خرجت لأفعل المنكر على وجه الارض فمن يخلص من
 يد هذا الديان العادل ، ولا واحد ولا واحدة وها انا احذر بأثمي
 الى اعماق الجحيم »

وهكذا ترى كل واحد يليق التبعة على غيره ويفوه ضده
 فضجيج ويصب عليه لعنات ما أمرها ولكن اين اللثم والملوم

وَأَيْنَ الْعَدُوِّ وَالصَّدِيقِ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ سِوَى أَنْ الْإِنْسَانَ يَحْمِلُ وَزَرَ
نَفْسَهُ وَيَجَازِي حَسَبَ عَمَلِهِ (رؤ ٢٢ : ١٢)

أَجَلٌ سَيَكُونُ بَغْضُ الْأَشْرَارِ لِبَعْضِهِمْ عَظِيماً لِأَنَّهُ بِقَدَرِ كَثَرَةِ
عَدَدِ الْهَالِكِينَ يَكُونُ عَذَابُهُمْ . قَدْ نَسْمَعُ كَثِيرِينَ مِنْ
الْخَطَاةِ الْعَاصِينَ هُنَا يَقُولُونَ عِنْدَمَا نَكَلِّمُهُمْ عَنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ « إِنَّا
أَنْ مَضِينَا إِلَى جَهَنَّمَ لَنْ نَكُونَ هُنَاكَ وَحْدَنَا بَلْ نَجَالِسُ وَزَرَءَ
وَمُلُوكاً وَعِظْمَاءَ » وَلَكِنْ يَالْشَقَاوَةَ هَؤُلَاءِ فَإِنَّ كَثَرَةَ الْهَالِكِينَ
مَعَهُمْ هِيَ الَّتِي تَزِيدُهُمْ عَذَاباً وَشِدَّةً وَذَلِكَ لِكَثَرَةِ رَاحَةِ أَجْسَادِهِمْ
الْمُنْتَنَةِ وَأَصْوَاتِهِمْ الْمُرْجَعَةِ فَيَكُونُ أَزْدِحَامُهُمْ شَدِيداً كَالْحَيَوَانَاتِ
الَّتِي تَتَزَاحَمُ عَلَى بَعْضِهَا (مز ٤٩ : ٢٠) وَكَأَقَالِ نَاحُومِ النَّبِيِّ
« فَانْهَمُ وَهُمْ مُشْتَبِكُونَ مِثْلَ الشُّوكِ وَسُكْرَانُونَ كَمَنْ خَمِرُهُمْ يَتَوَكَّلُونَ
كَالْقَشِّ الْيَابِسِ بِالْكَمَالِ » (نا ١٠ : ١٠)

وَلَكِنْ بَغْضُ الْأَشْرَارِ لِبَعْضِهِمْ يَحْتَسِبُ سَيِيراً أَمَامَ بَعْضِهِمْ
لِلشَّيَاطِينِ الَّذِينَ كَانُوا أَعْلَةً سَقُوطُهُمْ فِي الْخَطِيئَةِ . بَلْ أَنَّ الشَّيَاطِينَ
الَّذِينَ كَانُوا يَمْتَلِكُونَهُمْ وَيَتَوَدَّدُونَ إِلَيْهِمْ لِيَجْرُوهُمْ إِلَى الْإِثْمِ يَكُونُونَ
فِي جَهَنَّمَ قِسَاةً عَلَيْهِمْ فَيَزِيدُونَهُمْ عَذَاباً بِأَشْكَالِهِمُ الْمُرْعَبَةِ وَبِأَصْوَاتِهِمُ
الْمُرْجَعَةِ . حَقّاً لَقَدْ خَابَ أَمْلَكَ أَيُّهَا الْخَاطِئُ مِنْ كُلِّ مَارْجُوتِهِ فَالْعَالَمُ
الَّذِي أَحْبَبْتَهُ فَارْقَكَ وَالْجَسَدُ الَّذِي لَذَذْتَهُ تَتَعَذَّبُ فِيهِ نَفْسُكَ
وَالْخَطِيئَةُ الَّتِي أَشْتَهَيْتَهَا سَلَطَهَا اللَّهُ عَلَيْكَ لَتَعَذَّبَ ضَمِيرُكَ وَالشَّيْطَانُ
الَّذِي أَطَاعْتَهُ يَقُومُ ضِدَّكَ . وَلَا يَكُونُ بَغْضُ الْأَشْرَارِ لِلْغَيْرِ فَقَطْ بَلْ
يَبْغِضُونَ حِينَئِذٍ أَنْفُسَهُمْ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَ عَظَمَ

شدة القتال الذي يحدث بين نفس الانسان وجسده حينئذ ومحاولة كل منهما في القاء التبعة على الآخر . وهذا التنازع نفسه يحدث فيما بين بقية الاعضاء فان اليدين تثلبان الرجلين بانهما كانتا تقتادانهما الى طريق الخطيئة والرجلين أيضاً تثلبان اليدين على طاعتهما لهما وكذلك العينان تثلبان اللسان على دفعه اياها الى مثل هذا العذاب بارتكابه خطيئة الوقعة والدينونة والغيبة والتجديف والافتراء . وغير ذلك من الخطايا التي تصدر عن اللسان الخبيث واللسان يثلب العين لانها كانت علة عذابه اذ هي التي نظرت الشر وتطلعت الى الخطيئة وعلقت القلب بها

فماذا تريد ان تبلغ البشر ايها الخاطيء المقيم في جهنم وأية رسالة ترسلها لهم عليها ترجع بهم من الغي الى الصواب ؟ ان الغنى طلب الى ابراهيم ان يرسل لعازر الى بيت ابيه لان له خمسة اخوة ليشهد لهم لكيلا ياتوا هم ايضاً الى موضع العذاب وذلك بقوله « اذا مضى اليهم واحد من الاموات يتوبون » (لو ١٦ : ٣٠) ارسل اليها ايها الخاطيء الذي سكنت جهنم رسالتك ماذا تريد ان تقول لنا !

« اسمعوا ايها البشر وانتبهوا يا اهل العالم انتم تعيشون في ضلال ووهم فكل ما تعتبرونه ذا قيمة عندكم تسقط قيمته هنا وكل من تعظمونه لكثرة ماملكت يدها ينحط هنا ويذل . أرى حولى كثيرين ممن كانوا يسمون في العالم ملوكاً وأمراء وشرفاء تدفعهم هنا النيران وتدوسهم الشياطين تحت أقدامها . أرى هنا أناساً ممن لم يكونوا يألفون غير المديح والتقريظ لا يسمعون سوى

اللغات القاسية . أرى هنا غنياً كان في الأرض يلبس
الارجوان والبز وهو يتنعم كل يوم مترفهاً يتقلب هنا عارياً
وأرى فقيراً كان على باب الغنى ولم يكن يسمح له بقليل من الفتات
الساقطة من مائدته وهوذا الغنى يطلب ممن كان فقيراً ان يبل
طرف اصبعه بماء ويبرد لسانه لانه معذب في هذا اللهب (لو ١٦ :
١٩ - ٢٤)

وقد وجدت بجانبى انساناً لا أستطيع ان أصف مقدار ذله
فسألته عن نفسه من انت ؟ فأجابنى انا فرعون ملك مصر الذى
اتانى موسى يطلب منى اخراج اسرائيل فدفعنى جهلى واغترارى
بملكى ان اقول له « من هو الرب حتى اسمع لقوله فأطلق اسرائيل .
لا أعرف الرب واسرائيل لا أطلقه » (خر ٥ : ٢) اما الآن فقد
عرفت من هو الله لانه جازانى عن كبريائى بالذل الذى انتم تشاهدونه
ورأيت انساناً آخر فسألته ومن انت ؟ فأجابنى « انا أحد
ملوك بابل الذى كانت الناس ترتجف من ذكر اسمي وكنت ازم الناس
بعبادتي ومن كان يتجاسر بكلمة واحدة كنت اقطع رأسه . وكانوا
يخترعون لى كل يوم ملذات جديدة وكنت من ذوي الهوى
فحملنى جهلى على ارتكاب المعاصي التى أدت بى الى هذا الهلاك .
وبعد موتى شعرت ان الذين كانوا يعبدونى اخذوا يتسامرون
بسيرتى القبيحة فلم انتفع شيئاً مما تلذذت وتمجدت به سوى
هذه النيران التى تراها تضطرم فى جسمي
وشاهدت آخر منحنياً الى الأرض فسألته ومن انت ؟ فأجابنى

انا الذى احببت المال وجمعته وكثرته فهلكت بسببه وأحس
 كأنه تجمع الآن فوق ظهري وتقل حملي علي فلا أستطيع ان ارفع رأسي.
 وشاهدت كثيرين من هذا النوع فقد رأيت اناساً كانوا فى العالم من
 ذوي اللطف والظرف واناساً كانوا من أهل اللهو والطرب وهم يرقصون
 الا زهنا ولكن رقصة الطير المذبوح فقولوا غنى لا بناء البشر انتم
 مساكين لانكم الآن فى راحة وعيون جسدكم لا تستطيع ان ترى
 اكثر من ذلك ولكن ليتكم تفتحون عيون قلوبكم لترى ان هذا
 العذاب الذى لا يطاق هو نتيجة لازمة للخطيئة »

فليتنا ننقبه الى هذا النداء ونسمع قول الرب « اعطوا الرب
 الهكم مجداً قبل ان يجعل ظلاماً » قال احدهم « ويل للأشرار ثم
 ويل لهم لآزودهم لا يموت ولا نارهم تطفأ وهم أحياء وأموات الى
 الابد ضمايرهم جلادهم وأفعالهم تعذبهم ، يضيق السكون بوجودهم
 وأرض الاحياء لا يقدر ان يعودوا اليها فينحدرون الى الجحيم
 ليخفيهم من وجه العلي وعن هيبة الذى رفضوه ورفضوا تعليمه
 المقدس فيخلق حينئذ باب الجحيم ويختم بابه بختمه الازلى فلا
 يصعدون منه الى الابد فويل وويلات لهم ماذا افادتهم نعم هذه
 الحياة الفانية كالظل أو ماذا نفعتهم حكمتهم الانسانية الباطلة التى
 جرّتهم وراءها الى هاوية العمق . طغوا وتكبروا فقطفوا ثمر
 عجرتهم العذاب الاليم . حسبوا أنفسهم حكما وهم غارقون
 فى بحار الجهل . ظنوا ان من العار عليهم ان يصدقوا ان يسوع
 المسيح هو ابن الله حقاً لان حكمتهم القاصرة لم تقدر على معرفة

الحق ولان بصائرهم المظلمة لم تكن الا تراباً ورماداً خاوية وخالية من الاتكال الصحيح على يسوع المسيح الصادق وحيد ابيه الازلى ولم يعتبروا كلمة انجيله المقدس التى تحتوى على كل التعليم الصحيح وتودى الى الحياة الابدية . فترى ماذا افادتهم حكمتهم الانسانية ؟ هل ردت عنهم القضاء أو صدت عنهم وقوع العذاب . انهم ظلموا انفسهم وراحوا ضحية اثمهم يتذكرون وهم في جهنم ماتلقوه في العالم من الانذارات والتعاليم من افواه المبشرين ولكن ذلك لا يزيدهم الا المأ شديداً وعذاباً مرّاً فيقولون ياليتنا سمعنا وحفظنا تلك العظة التى بشرنا بها ذلك المبشر الذى افرغ جهده في نصحننا ونادانا قائلاً توبوا والا فجميعكم تهلكون ، ولكننا كنا نهزأ به باطناً ونحتقر اقواله الصحيحة . بأعيننا نظرنا الانجيل وبأيدينا لمسناه ورددت افواهنا كلماته وسمعت آذاننا اقوال الحق ولكننا عرجنا بارادتنا عن سبل الاستقامة رفضنا التعليم والانجيل وأقوال الحكمة والعلم وكلمة الله يسوع المسيح نخسرنا المواعيد التى استحقها لنا بدمه فياله من جنون فظيع أدى بنا الى هذه العاقبة المؤلمة حيث يحيط بنا العذاب من كل ناحية . نقول للجبال اسقطي علينا فنهرب من أمام الجالس على الكرسي ونخاف ونذوب كالشمع ، انكرتنا الارض ورفضتنا السماء لاننا رفضنا خالقها وعرفتنا الجحيم وفتحت احضانها وابتلعتنا لتقى العدل الالهى . فيا اخوتى الاحباء ان كانت هذه هي حالة الذين رفضوا يسوع المسيح وانجيله الطاهر أفليس مجنوناً ذلك الذى يعرض نفسه للوقوع فى

الهاوية التي لا يصعد منها الى الابد ؟ وأليس عارياً من كل فطنة ذلك الذي يرى ويسمع الاقوال التي تخلصه من العذاب الابدی لو اطاعها وعمل بها ويرفسها ويميل عنها معوجاً ويرفضها ويرفض واضعها ويحتقر المبشرين بها ؟ أين حكمتك أيها الانسان وأين فطنتك أيها التراب قاومت خالقك ورفضت أن تحمل نيره الطيب على عنقك التي قد حررها لك من رق العبودية . أنتظر مخلصاً أعظم من ابن الله الوحيد الذي خلقك من العدم . فويل لك أيها التراب والدود الذي تمردت على خالقك ومخلصك .

أما نحن الاحياء ايها الاخوة فيجب علينا اذا سمعنا صوته اليوم أن لا نقسى قلوبنا لئلا يسخط علينا برجزه ويفلق أمام وجوهنا ابواب رحمته بل لنبادر مسرعين ما دام معنا النور ولنسجد للرب خاشعين مذرفين دموع التوبة لئلا نهلك ونخسر الجوهرة الثمينة التي اشتراها بدمه الكريم وقدها بالروح القدس وطهرها بنار محبته الالهية . ويكفي يا أحبائي ما سمعتم مراراً من كلمة الله اذا كانت ارادتكم صالحة ونيةكم سليمة وكنتم ترغبون خلاص نفوسكم . لان من لم يرشد نفسه ويبتغي الصلاح من تلقاء ارادته يكل عن ارشاده الواعظون ويخلق الكلمة الالهية باشواك افكاره وخب ملذاته ويرى لنفسه طرقاً جديدة يسلك فيها وينسى الناموس المكتوب ويتناسى الناموس المطبوع في قلبه . ويهزأ بما يقوله المبشرون بالانجيل لان الارادة لا تقتصب والانسان لا يخلص الا بارادته واختياره فمن أراد الخلاص والحياة

فليقبل الى المسيح المصلوب ملك الملوك ورب الارباب وليحترس
من أن يرفضه كاليهود الذين برفضهم اياه حملوا انفسهم أثقل الخطايا
ووضعوا على رؤوسهم أثقل الذنوب . وليتحاشى أن يرفض انجيله
الطاهر المبشر به بالحق من أفواه مبشره لأن يوم الرب يوم عظيم
فمن أراد خلاص نفسه والخلود في الحياة الابدية فليؤمن
بابن الله يسوع المسيح لان بدونه لا يمكن الخلاص لانه هو وحده
الشفيع والفادى الحقيقي والوسيط بين الله والناس ومن لا يؤمن
به يدان واما الذى يؤمن ويعتمد فيخلص . ومن كانت خطيئته
كالجبال الشاخنة أو اكثر من رمل البحر فليؤمن وليتب عن السير
فى طريقه الرديّة المعوجة فيحيا ويرث الحياة الدائمة مجاناً لانه هو
وحده الفادى الحبيب وفتح ابواب رحمته فى هذا الزمان المقبول
ليشفى جراحات الخطايا ويربح جميع المتعبين اذ يقول تعالى الى
وانا اريحكم وان كانت خطاياكم كالقرمز فانا ايضها كالثلج . لكن
ويل لكم ان سمعتم صوته وقسيت قلوبكم ورفضتموه كما فعل
اليهود او احتقرتم انجيله الطاهر وكلمته الصادقة لان له النعمة
وهو يجازى فى يوم الدين فمن اراد اذاً ان يخلص من النار التى
لا تطفأ والدود الذى لا يموت فليأت بايمان حي وتوبة صادقة
الى المخلص المصلوب الفاتح يدي رحمته ليهطل ندى المغفرة على
خطايا الذين اساءوا اليه وليقل ارحمنى يا مخلص ارحمنى يا ارحمنى
يا ابن الله يسوع المسيح المتحن على جنسنا ولا توبخنى بغضبك
ولا تؤدبنى برجزك لكيما تحيا نفسي وتمجدك

الفصل السادس والعشرون

في أنه لا رحمة بعد الحكم

« تطلع من السموات وانظر من مسكن قدسك ومجديك . أين غيرتك وجبروتك . زفير احشائك ومراحك نحوى امتنعت »
(اش ١٥: ٦٣)

ان كثيرين يطمعون في رحمة الله ويظنون انه في تلك الساعة الرهيبة يسمع لهم نداء او يقبل لهم توسل ولكن هؤلاء في ضلال مبين لأن حكم الله عادل ومتى نطق به فلا قول يفيد ولا كلام فلا يغتر أحد برحمة الله فقد علمنا الكتاب المقدس من وقائع عديدة ان الله في وقت المجازاة لا يشفق ولا يرق . من الذي اغرق العالم بالطوفان ؟ من الذي دمر مدينتي سدوم وعمورة والمدن التي حولها بالنار ؟ من الذي اغرق فرعون وجنوده ومركباته ؟ من الذي أهلك اليهود بالحيات ؟ من الذي احرق محلة ايرام ؟ من الذي امر الارض ان تفتح فاهها وتبتلع قورح وقومه ؟ هوذا تعالى يقول « لا تشفق عني ولا اعفو وان صرخوا في اذني بصوت عال لا اسمعهم » (حز ١٨: ٨)

أجل أنا أعلم أين تعلق آمالك أيها الخاطيء . أنها متعلقة بلجة تحزن الله تعالى . وانه من هذا الوجه ينبغي بالاكثير ان تخاف

وتخشى لأنك تجازى بالاخس لأجل عظيم خيانتك وقلة شكرك
 زعدم وفائك الذي اظهرته من نحو وفرة غنى المواهب والنعيم
 التي نلتها من لجة تحننه تعالى . فالذي تطمع فيه من صفات الله
 ينبغي لاجله ان يزداد خوفك لأنك اذا تصورت انه حكيم
 فالحكمة تطلب معاقبة الخائن واذا تصورت انه قادر فالقادرة
 تستوجب تعذيب المنافق واذا قلت انه عادل فالعدل يستلزم ان
 يعاقب المجرم

فلا يمكن ان يجد الخطاة هناك أدنى رحمة ولا يحل بهم سوى
 النضب والانتقام وسماع الحكم الاخير « خذوهم من أيديهم
 وارجلهم واطرحوهم في النار الابدية » وسرعان ما يتقدم ملائكة
 جبابرة عتاة مخلوقون لهذا العمل بالذات من بدء الدنيا ويحملون
 الهالكين الى المكان المعد لابليس وجنوده . فياها من رعدة
 جسيمة تملك الخطاة في تلك الساعة : ساعة يختفي عندها الصوت
 ويمتنع اللسان عن الكلام والعين عن النظر والاذن عن السمع .
 ساعة لا يستطيع فيها هايل بتقواه ان يخلص قايين ولا صموئيل
 أن يشفع في شاول ولا داود ان ينقذ ايشالوم . بل حينئذ يطلب
 الغنى من لعازر رحمة فلا تكون له ويلتمس هيرودس من يوحنا
 المعمدان شفقة فلا يجدها ، يتوسل حنان وقيافا الى قليل من الرأفة
 فلا يسأل احد عنهما لان كل غادر أثيم لا يرحم (مز ٥٩ : ٥)
 وبعد ان يطرح الاشرار في جوف ذلك الهيب يحاولون

الخروج من باب الجحيم فيجدونه قد اغلق وكتب عليه باحرق
من نار « لا يخرج أحد ولا يدخل أحد » فيرجعون بالخيبة
واجسادهم تنقلب في أمواج اللهب المشتعلة ولا راحة لها. ان علت
بهم تيارات النيران الى فوق فلاضطرام يلهب كما هو . وان
غاصت بهم في لجج الاعماق يحرق كما هو . وان دفعتهم الامواج
المشتعلة الى هنا أو هناك فحرارة النيران كما هي . وعندما يرون
ان لا سبيل الى نجاتهم يصرخون بمرارة ويمسكون بدموع
حارة ويقعون في اشد الندامة ويتفوهون باحزن العبارات
ويقولون :—

« أين الموت ؟ أين الهلاك ؟ لماذا يهربان منا ؟ النار تحرقنا ولا
تموت . والدود يلدغنا ولا يبیدنا . ياليت اجسادنا كانت وقوداً
فتأكلها النار وتنتهي . وياليت أرواحنا كانت مواداً قابلة للالتهاب
فتشتعل باللهيب وتنقضي . ويلاله من يشفق علينا . من ينجيناً من
الموت ومن يرحمنا فيهبنا الاعدام . يالاشقاوة المؤبدة . يالاعذاب
الحار . أين رحمتك يا الله ؟ »

« ما هذا التغير الذي طرأ عليك يا إلهنا . أين ذلك القلب
العطوف . أين ذلك الاله الذي كان يرق على الخطاة مهما أثموا .
أين الاله الذي كان يبذل كل خير حتى لأشر الناس . أين ذلك الاله
الذي كان يقول « ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب » (مز ٣٤ : ٨)
فيجيبهم الديان العادل والمتقم الجبار قائلاً

« وأأسفاً عليكم . ألم تكن الرحمة في أيديكم . والنعمة قريبة

حنكم والخلاص مقدم لكم ولقد دعوتكم الى ذلك بيدي التي
 ثقت بالمسامير حباً فيكم فاذريتكم برحمتي واستخفتم بالنعمة واحتقرتم
 الخلاص : وكم من مرة قرعت ابواب قلوبكم كسائل فاوصدتموها في
 وجهي ، واطلت أناي عليكم فتقسيتم ، وأظهرت غنى لطفي فعصيتم
 وقدمت لكم فيض نعمتي فتمردتم ولأنني عالم بان قساوتكم ستجركم
 الى هذا العذاب الاليم تخننت عليكم وزرقت عيناي الدموع
 لاجلكم ورق قلبي لكم فاستهزأتم بمحبتى واستهنتم بآلامي
 حتى تحولت رحمتي قساوة ورقى جفاوة وحناني جبروتاً .
 فتعذبوا الآن بلهيب تهاونكم وبنار قساوتكم . ان الله لم يتغير
 ايها الاشرار ولسكنكم أنتم الذين قد غيرتموه بمساوئكم وخياتكم .
 اننى لا زلت محباً ومحبتى كانت تغلب على عدلى أما هنا فعدى
 يتغلب على محبتى فلا أنكم احتقرتم هذا الاله الجواد الذى احبكم
 ومال اليكم فهو كذلك الآن يحقركم ويوجه محبته الى غيركم .
 انظروا الى اولئك الابرار والقديسين فعليهم وحدهم افيض حبي
 واسكب رحمتي وحناني »

فيجب الاشرار . ولكن أتهملنا يا الله هكذا في وسط
 هذه النار . انه لعذاب شديد لا يطاق . ألسنا نحن صورتك وعمل
 يديك . وكيف لا ترق لدموعنا وزفرائنا ولا تنظر لحالنا وترثى
 لشقاوتنا . انظر يا إله الرحمة بعين الرأفة الى أجسادنا كيف
 تتقلب في نار لا تحتملها حتى الحجارة الصلدة . تعطف علينا أيها
 السيد . امنحنا يسيراً من حنوك وقليلاً من مراحمك . اندوم هنا

في هذا الشقاء ؟ مظلومون يارب . أنت معروف بالرأفة أتدفعنا
الى الابد في نار متقدة ملتهبة ودود لداع لا يموت وظلمة خارجية
قائمة « أين مراحلك الأول » (مز ٨٩: ٤٩) ارحم يا ارحم الراحمين .
فيجيئهم الديان العادل قائلاً

« أجل لقد خلقتكم على صورتي ومثالي . ولكنكم أهنتم
صنع يدي وفسدتموه بحيث لا ارى فيكم الآن السمة التي كنتم
متسمين بها حين خرجتم من بين يدي . محوتم الصورة التي
كانت تميزكم عن سائر المخلوقات . جعلتكم ابناء فصيرتم انفسكم
عبداً للخطية . أما لكر بكم فلا انظر والضيقتم فلا اهتم فكما
قسيتم قلوبكم علي كذلك تقبى قلبي عليكم فعبثاً تكون وتتهمدون
« يا قوم اني ما ظلمتكم قط بل أنتم الذين ظلمتم انفسكم .
لقد رحمكم أبي وأشفق عليكم ولم يشفق علي انا ابنه الحبيب ولما
اتيت خلاصكم لم تشفقوا علي بل رفعتموني على صليب العار
وفي ضيقتي لم ترقوا الحالى بل زدت قساوة . ولبتت تحمل عذاب
أيديكم وعذاب سيف العدل الالهى الذى كان يمزق احشائي
حتى تقطع قلبي في داخلي وذابت امعائي من حرارة العذاب الاليم
كما يذوب الشمع أمام النار، كل ذلك أحتملته لأجل فداءكم وحباً
في خلاصكم من عذاب الجحيم

« فمن اجلكم انتم يا انا كرى الجميل قاسيت كل ذلك فما الذى
فعلتموه لمسكافاتي . بل أى شيء لم تفعلوه من الخطايا والشرور
لتهينوني به . ألم تزدروا باسمي . ألم تستهزئوا بكلامي . ألم تدنسوا دمي

الكريم الذى سفك لاجلكم ؟ هل طلبت منكم أمراً صعباً ؟ هل سألت منكم أشياء عظيمة مكافأة لى على عملي هذا ؟ لا انما طلبت منكم ان تمجدوا اسمى فقط »

« طلبت منكم في اثناء فاقى ثوباً بالياً اترر به وسألت منكم عند جوعي رغيفاً واحداً اسد به رمقي فبددتكم خيراتكم فى الملاعب والملاهى والمعاشرات الردية ولم ترضوا ان تعطونى ما طلبته منكم وهو زهيد . أفهل كنت استحق منكم هذه المكافأة ؟ أهكذا كان ينبغي أن تكافئوا محبتي بأن تحبوا كل شىء أكثر منى ؟ من اجلكم تجسدت . من اجلكم مشيت على الارض ظاهراً . من اجلكم جلدت . من اجلكم بصق على وجهي . من اجلكم صلبت مرفوعاً على خشبة العار . من اجلكم سقيت خلا . وهبت لكم الملك الذى لى . اعطيتكم الفردوس . دعوتكم واحضرتكم لى . قربتكم الى الآب وأرسلت لكم الروح القدس » ماذا يصنع أيضاً لكرى وانا لم أصنعه له « (اش ٥ : ٤) فقولوا لى ماذا احتملتكم من أجلى وماذا قدمتم اكراماً لى ؟

« لم أطلب منكم تلقاء ذلك أشياء صعبة لا تطيقون القيام بها بل توبة خالصة بايمان صحيح فلم تملوا الي ولم تتوبوا ولم تشفقوا على انفسكم بل احتقرتم كلامى واستهزأتم بمواعيدي وتوعدانى . قلت لكم « ان لم تتوبوا جميعكم كذلك تهلكون » (لو ١٣ : ٥) واعلنت لكم رهبة الدينونة وشدة العقاب فبرزتم رؤوسكم وقلتم « يوم الله يعين الله » صرحت لكم بوجود

نار أبدية معدة للخطاة فضحكتم وتجاهلتم وقلتم انما هو كلام .
 اين تكون تلك البحيرة النارية أفي الارض أم في السماء ؟ فما أجهلكم
 هل تأكدتم الآن انه توجد نار أبدية ؟ هل تحققت العذاب فعلا ؟
 اذاً فاخضعوا للقضاء واحتملوا هذا الشقاء الذي جلبتموه على
 أنفسكم بالقساوة والتهاون . هل انتم مظلومون ، كلا بل انتم
 للقصاص بعدل مستحقون »

فاذ يعلم الخطاة انهم مستوجبون العقاب ولا حق لهم في
 المناقشة والجواب يقولون — « نعم يارب انك لم تظلمنا بل نحن
 الذين ظلمنا انفسنا . نعترف انما قضينا حياتنا غير عارفين احسانك .
 وكم قسونا وتصلبت قلوبنا حتى اننا لم نكن نرتضى أن نقبل
 باسمك فقيراً واحداً في منزلنا ولا نتصدق عليه بل صرفنا حياتنا
 في اغاظتك واهانتك . وعلى ذلك فنحن مستعدون الآن أن
 نقف أمامك ونبكي بحرقة على ذنوبنا ونندم على خطايانا ونغسلها
 بدموع غزيرة . أفلا نستحق تلقاء ذلك رافة ولو جزئية وحنواً
 ولو كان يسيراً للغاية ؟ ألا يكتفي العدل بما احتملناه من لهيب النار
 وبما قاسيناه من اضطرامها ويخرجنا من هذا العذاب . أشفق يارب
 كل الشفقة »

فيقول الرب لهم « آه ايها الناس . انكم تريدون ان تقدموا ثمراً
 في غير أوانه وتطرحونه في غير وقته . كم طلبت منكم ان تصنعوا
 اثماراً تليق بالتوبة (مت ٣ : ٨) فأيتيم . وكم امهلتكم سنة بعد اخرى
 عليكم تثمرون قبل ان أقطعكم (لو ١٣ : ٩) فكنتم لى كشجرة

يايسة بينما كنتم للخطية شجرة حية . تظهرون البخل من نحوى
والسخاء من نحو الشيطان ؟ صلواتكم لا أقبلها . وتضرعاتكم
لا أسمعها ودموعكم لا ألتفت اليها .

« وكيف أخرجكم من مكان عذابكم ؟ هل ينبغي ان اجمع
لنفساً مشوهاً بكل ادناس الخطايا ونجاستها وادخلهم الى مكان
قدسى الطاهر ليسكنوا مع الاتقياء الاطهار التائبين وقيموا بين
الملائكة القديسين . ألم تعلموا انه لا يدخل ملكوت السموات شئ
دنس ولا ما يصنع رجساً او كذباً (رؤ ٢١ : ٢٧) فكيف ارحمكم
وانتم عالمون بقداسة المكان وقد تقرر انه بدون قداسة لن يرى
احد الرب (عب ١٢ : ١٤)

فيقولون « نعم ايها السيد نقر اننا لانستحق الرحمة واننا لسنا
اهلاً لها وخطايانا تشهد علينا انما نتوسل اليك فى امر واحد وهو
ان تسحقنا وتردنا الى العدم ان كنت لا تشأ أن تخلصنا . انزع
ارواحنا من أجسادنا ومزقها ارباً وكذلك افعل بأجسادنا حتى
تتلاشى وتنتهي دفعة واحدة ولا تتركنا فى هذا العذاب . نتوسل
اليك يارب ان تستجيب . نسألك ايها السيد الرحمة . أأنت انت
الصديق الامين ؟ »

فيجيبهم الاله « يا أيها القوم انى خلقتكم لمجدى . لمجد رحمتى
ولمجد عدلى . فما انكم احتقرتم ان تمجدوا رحمتى فلا بد لكم من
ان تمجدوا عدلى الى الأبد . انى اعلم بشدة عذابكم ولو اجبتكم
الى طلبكم لكان ذلك منتهى الرحمة منى عليكم . ولكن هيهات

ثم هيهات ان يجاب طلبكم . انا الرب لا اغير وعدي ولا انسح
توعدى وكما انى لا اغير فقضائى لا يتغير . ألم أبذل نفسي كي اخلصكم
من هذه النيران . ألم ادعكم للتوبة مظهراً لكم احوال الهلاك وعذاب
جهنم فكيف يلتبس الآن لكم عذر ؟ لو لم اكن قد جئت وكلمتكم
لم تكن لكم خطيئة وأما الآن فليس لكم عذر في خطيئتكم
(يو ١٥ : ٢٢) أما اخبرتكم ان الدينونة لا تتوانى والهلاك
لا ينعس (٢ بط ٢ : ٣) كل ذلك وانتم في غيكم تعمهون غير مباليين
ولا مكترئين . لو كان عدل الله ينسخ او يحكمه يتغير لجرى ذلك
بالاخرى معى انا ابنه الوحيد موضوع مسرة فؤاده ولذة قلبه
حينما تطوعت لأتحمل عقاب خطاياكم . انه حجب وجهه عنى عندما
وضعت موضعكم ومع ان طلباتى لديه كانت مقبولة الا انه حينما دنت
ساعة الدينونة لم يلتفت الي مع ان صراخى كان يذيب الجمد وانا
ادعو على الصليب مستغنياً قائلاً « إلهي إلهي لماذا تركتني » فلم
يسمع ندائى وتوسلى بل تركنى اشرب الكأس حتى الثمالة . فاذا
كنت انا حبيبى القدوس المطيع له لم يرض عدله الا ان ينفذ احكامه
في فماذا تنتظرون انتم يا من قضيتم حياتكم تتمردون عليه وتعصون
او امره ؟ انتم الذين جرحتم فؤادى بأثامكم واحزنتم روحى بتهاونكم
فيقولون « ولكن اذا كنت ايها السيد الكريم قد تفضلت
بالموت عنا لفدائنا وسفكت دمك الكريم مظهراً ومخلصاً من الخطية
ومنحتنا نعمتك بلا ثمن فلماذا هذه القساوة علينا الآن ونحن لم
نعهدا فيك ؟ »

فيجيبيهم « نعم . ان دمي يطهر ونعمتي تخلص . وكثيرون
تطهروا بالدم وخلصوا بالنعمة ولكن بالتوبة والايان . أما أنتم
فلم تهتموا بالتوبة ولم تبالوا بالايان فخرستم التطهير وحرمتكم
الخلاص . وهل كنت اطهركم وأنتم منغمسون في دنس الزنا والسكر
والنجاسة التي لم تشاؤا تركها ؟ وهل كنت اخلصكم بينما أنتم
متهافتون على المطامع وغرور الغنى وأباطيل العالم ولم ترغبوا
الخلاص منها ؟ »

فيقولون « ولكن ألا يمكنك بما لك من سعة الرحمة وعظم
الشفقة ان ترسل لنا ولو قليلا من الماء لتبريد السنتنا المعذبة في
هذا الالهيب ؟ »

فيجيبيهم « لقد كان أمامكم وفي استطاعتكم ان تنالوا
الخلاص من هذا العذاب وتتمتعوا بما يتمتع به أبرارى في ملكوت
سمواتي ولكنكم اخترتم لانفسكم الشر مع العذاب فستدومون
فيه ورفضتم الخير مع المجد الابدي فخرتم منه . جعلتموني أنا
الحبيب خصمكم واتبعتم غواية ابليس وخداع الخطية وغرور العالم
ومن الغريب أنه ليس أحد يتوب عن شره قائلا « ماذا عملت ؟ »
(ار ٨ : ٦) استهنتم بلطفى وطمعتكم في طول اناتي هذه صنعتوها
وسكت . ظننتم اني مثلكم . أوبخكم وأصف خطاياكم أمام
عينكم . افهموا هذا يا أيها الناسون الله لئلا افترسكم ولا منقذ
(مز ٥٠ : ٢١ و ٢٢)

« فكما اصعدتم انى أذنى صراخ خطاياكم وصياح آثامكم

واغظتموني بذيئكم افعالكم وذنس لذاتكم فليصعد الآن صراخ
عذابكم وصياح آلامكم «لأني دعوت فايتم ومددت يدي وليس
من يبالي . بل رفضتم كل مشورتي ولم ترضوا توبيخي . فانا أيضاً
اضحك عند بليتكم . اشميت عند مجيء خوفكم . اذا جاء خوفكم
كعاصفة وأتت بليتكم كالزوبعة اذا جاءت عليكم شدة وضيق .
حينئذ يدعونني فلا استجيب . يبكرون الي فلا يجدونني . لانهم
ابغضوا العلم ولم يختاروا مخافة الرب . لم يرضوا مشورتي . ردلوا
كل توبيخي . فلذلك يأكلون من ثمر طريقهم ويشبعون من
مؤامراتهم . لان ارتداد الحمقى يقتلهم وراحة الجبال تبيدهم »
(ام ١ : ٢٤ - ٣٢)

« ما كان احكمكم في الشر والخبث والمكر والرياء والحقد
والمذمات حتى ملأتم مكيال آثامكم ايها الحيات اولاد الافاعي كيف
تربون من دينونة جهنم (مت ٢٣ : ٣٣) لماذا تتضجرون من عقاب
ما جنته ايديكم ومن احتمال دينونة الشر الذي ارتكبتموه ضد ارادتي ؟
« قد صورتكم وابدعتكم وانتم التصقتم بغيري . خلقت
لكم السموات والارض وما فيها وانتم صيرتموها لاحتقاري .
خلقت لكم سمعاً لتسمعوا به ما تقوله الكتب المقدسة وانتم
اصغيتم الى الاغاني السمجة والخرافات الباطلة . ابدعت لكم نظراً
لتبصروا نوراً وامرى وتعملوا بها وانتم فتحتم اعينكم الى كل
دناءة وقبح . وضعت لكم فماً لتمجدوني وترتلوا المزامير
الروحية وانتم تصرفتم به للولائم والشراسة والحنث والتجديف .

اصلحت لكم الايدي لتبسطوها الى التضرع وعمل الخير
وانتم مددتموها الى الخطف والضرب والسلب .

« كانت ابواب كينائسي مفتوحة على الدوام ووصاياى تتلى
فيها كل يوم فلم تسمح لكم شروركم ومطامعكم بالذهاب اليها
لتسمعوا كلامي وتحفظوا أقوالى . ولكن عند ما كنتم تدعون
لعرس أو وليمة كنتم تركضون اليها مسرعين وتذهبون اليها .
كنتم تفضلون السعي وراء خيرات العالم عن سماع مشورتي . فإن
الاموال التى اقمتموها واين البيوت المشيدة التى اقمتموها ؟
اين الترفه والتنعيم ؟ أين اللذات والمأكلى والمشارب التى تمتعتم
بها ؟ يالشقاوتكم .

« والنساء ايضاً كن يسمعن خدام كلتى فلا يهمن من ذلك
شيء ولكنهن كن يسرعن فى مشترى الملابس والحلي وكامل
اسباب الزينة فأين الآن الملابس الانيقة المزخرفة واين الحلي
والجواهر الكريمة ؟ أين الجمال الفتان والبهرجة . يالنعاستهن

« يأيها الشيخ بماذا تعتذر وبأى جواب تجيب به ؟ هل
لم يكن لديك وقت كاف لكى تتوب فيه وترجع إلى . لقد صبرت
عليك وقتاً طويلاً واطلّت لك في أجلك ولكنك قضيت في مزاولة
الاعمال التى لا ترضيني . فارتكبت المعاصي واتييت الموابقات .
فكيف تلتمس رحمة ألا تخجل ، ألا تستحي ؟

« وانت أيها الشاب . ألم أقل لك على لسان الحكيم « اذكر
خالقك فى ايام شبابك قبل ان تأتى ايام الشر او تحيىء السنوات

اذ تقول ليس لي فيها سرور » (جا ١٢ : ١)

لماذا اهتمت ؟ قد كنت تؤجل وقت التوبة منتظراً ايام
الشيخوخة لكي تتوب فيها . قد كنت تروم ان تعطى ابليس
زهرة شبابك واما انا فتقدم لي فضلة عمرك . هل لك حجة علي ؟
ألم اوفر لك اسباب القوة والصحة لكي تستخدمها لارضائي
فخدمت بها رغائب الشيطان . هل يوجد عندك جواب علي ذلك ؟
« وانت ايتها المرأة . اى شيء أعاقك ؟ هل تقولين اني كنت
مشغولة بالزينة والامور الفارغة ؟ ألم اقل لك ان الزينة الحقيقية
هي طهارة القلب . هل لك عذر ؟

« وانتم ايها الاغنياء بماذا تعتذرون ؟ لعلمكم تقولون ان
انهما كنا في جمع المال لم يسمح لنا ان نتوب . انعطفوا الي
اموالكم اذاً بما انكم اتخذتموها إلهاً لكم عوضاً عنى فلماذا تطلبون
منى رحمة . التمسوها من اموالكم لعلها تخفف لوعتكم . ياويلكم .
ألم اوضح لىكم خطر محبة المال ؟ ألم اقل لكم ان محبة المال
عداوة لي ؟ (يع ٤ : ٤) « هلم الآن أيها الأغنياء ابكوا
مولولين على شقاوتكم القادمة . غناكم قد تهرأ وثيابكم قد اكها
العث . ذهبكم وفضتكم قد صدئا وصدأها يكون شهادة عليكم
وياً كل لحومكم كنار » (يع ٥ : ١ - ٣)
« أفلا تستحقون يا هؤلاء الجزاء عدلا والقصاص حقاً ؟ هل

في قضائي ظلم ؟ »

فعندما يسمع الاشرار هذه الاقوال المحزنة المخيفة ويعلمون

انه قد انقطع كل رجاء في نجاتهم وبلغ اليأس منهم مبلغه وبتاً كدون
انه قد قضي عليهم نهائياً بالعذاب المؤبد ويذكرون قول الله « اضحك
عند بليتكم واشمت عند مجيء خوفكم » ويتم قول المرتل
« الساكن في السموات يضحك. الرب يستهزئ بهم » (مز ٢ : ٤)
يرفعون عيونهم الى الله وهم في هاوية العذاب ويشاهدون الله ينظر
اليهم وهم يتقلبون في النار ضاحكاً مسروراً . عند ذلك يشتم
حزبهم ويكادون يتمزقون من الغيظ فيصرخون حينئذ نائحين باكين
من اعماق افئدتهم قائلين « نحن نحزن والله يضحك علينا . نحن
نتعذب والله يستهزئ بنا . ايها الاله ضاعف النار اضعافاً . قوا جيحها
ما شئت واعدل عن الاستهزاء بنا فان هذا الاستهزاء امر علينا
من عذاب النار وأشد وخزاً من لدغ الديدان . لماذا لا تحوى جهنم
آباراً اعمق نسقط فيها ونهرب من وجه إله ضاحك . لقد غرنا
كثيراً من قال ان عذابنا الاعظم سيكون في مشاهدة إله غضوب
وكان الاولى به ان يقول لنا انه سيكون في مشاهدة وجه إله
ضاحك . اننا نريد الآن ان تقع الجبال علينا أو تنفتح الارض
وتبتلعنا لنستتر عن وجهه . اين هي الظلمة التي قيل لنا عنها « محفوظ
لها قتام الظلام الى الابد » (يه ١٣) لماذا لا تغطينا من وجه الله
الهازيء بنا . آهاً لشقائنا لان الشيء الذي يؤلمنا نراه جلياً والذي
نريده لا نراه مطلقاً »

واذ لا يجد الاشرار بأيديهم سلاحاً يحاربون به إله السماء ينمكفون

على انفسهم فيقطعون شعورهم ويصفعون وجوههم ويضربون
اجسادهم ويصرون على اسنانهم بحرقة وكل ذلك يزيد في عذابهم
والآلامهم وفي ذلك قال الرائي « وكانوا يعضون على السننهم من
الوجع » (رؤ ١٦ : ١٠) بل يبتغون ان يقوروا عيونهم حتى لا
يبصروا من يستطيع ان يعذبهم وهو يضحك عليهم . ولكن
مهما بكوا وولولوا لا يستطيعون ان يحجبوا عن نظرهم مشهد عرش
الله ووجهه يتلأل بالاستهزاء بهم فكيف يشهد غيظهم وكم يعظم
تجديفهم اكثر فاكثرا سيما كلما يرون ذلك الاله العادل جالسا
على عرشه المهيب لا يلين ولا يضجر من عذابهم وتمردهم بل يستمر
ضاحكاً ومستهزئاً بهم هكذا تم قول موسى النبي « وكما فرح الرب
لكم ليحسن اليكم ويكثركم كذلك يفرح الرب لكم ليفنيكم
ويهلككم » (تث ٢٨ : ٦٣)

وماذا يفعل الاشرار حينئذ . سيصرخ كل واحد منهم قائلاً
« لأن ايامي قد فنيت في دخان وعظامي مثل وقيد قد يبت .
ملفوح كالعشب وبابس قلبي حتى سهوت عن اكل خبزي . من
صوت تنهدي لصق عظمي بلحمي » (مز ١٠٢ : ٣-٥) أجل
سيصرخون قائلين « ماذا كسبنا من كثرة التمتع والترفيه وماذا
انتفعنا من التلذذ والتنزه سوى هذا الدود الذي لا ينام وماذا
ربحنا من تدليل هذه البشرة التعيسة وملاطفتنا اياها وازاحتنا لها ؟
ماذا استفدنا من الترف والمجد الفارغ ؟ وماذا كسبنا من الثروة
والغنى الزائد ؟ ها هي عبرت وجزأت كال دخان وبقيت لنا الخطيئة التي ولدنا

فيها وهوذا نحن نلتهب الآن محترقين من جرائها . واية فائدة استفدناها من هذا الجسد الملعون المنتن الذي خضعنا لارادته وهواه منذ حداثتنا . وكنا نرفهه ونخدمه بالسكر والزنا والفسق والمشاحنات الكثيرة والعداوة المستديمة . ماذا استفدنا من خدمته سوى هذا الالهيب الذي نتقلب فيه الى ابد الآبدين

« ياليتنا كنا خلقنا بلا عيون ولم ننظر نظرة شريرة . أوجبلنا بلا آذان ولم نسمع كلمة باطلة . وبلا ألسن ولم ننطق كلمة ردية . ياليتنا وجدنا مقعدين ولم نخطو خطوة واحدة في سبيل الخطيئة . ليت ما كانت لنا قلوب اشتهت الشر بل ليتنا ما خلقنا اصلا . ولت امهاتنا ما ولدتنا لاجل عذابنا هذا . فاذا كان ايوب من الآم هذه الحياة الهينة القصيرة ضج وصرخ قائلا « ليت هلاك اليوم الذي ولدت فيه والليل الذي قال قد حبلى برجل . ليكون ذلك اليوم ظلماً . لا يعن به الله من فوق ولا يشرق عليه نهار ... لانه لم يغلق أبواب بطن أمي ولم يستر الشقاوة عن عيني . لم لم امت من الرحم . عند ما خرجت من البطن لم لم اسلم الروح » (اى ٣ : ٣ و ٤ و ١٠ و ١١) فبماذا تتصور يكون ضجيج وصراخ ندامة الاشرار فى الجحيم

سيلعنون البطون التى حملتهم والايام التى ولدوا فيها واللبن الذى رضعوه والشمس التى أشرقت عليهم والنسيم الذى استنشقوه والوالدين الذين تغاضوا عن تربيتهم والشيطان الذى اغراهم

والخطية التي خدعتهم ويعترفون بخطاياهم التي أوصلتهم الى هذا العذاب . سيسمع قايين يعترف للهالكين بأئمة الفطيع حينما قتل اخاه وقد كان انكره على الله وسيعترف كل خاطيء بفضاعة الشر الذي ارتكبه وهو لم يكن يدري انه شنيع

قال السيد المسيح عندما كان حاملا صليبه ورأى نسوة كن يلطمن وينحن عليه « يا بنات اورشليم لا تبكين علي بل ابكين على انفسكن وعلى اولادكن لانه هوذا ايام تأتي يقولون فيها طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدى التي لم ترضع » (لو ٢٣ : ٢٨ و ٢٩)

أجل : وستكون ندامة الاشرار بالاخص على نعمة الله التي وهبت لهم واقتربت منهم ولكنهم رفضوها واحتقروها . سيصرخون بمرارة « لقد كان الخلاص بين ايدينا وكان نواله سهلا علينا فاستهنا به وكانت التوبة مدروكة لنا فاستخفنا بها . لم نكثر بالآخرة ولم نبال بالعقاب . ولكن ماذا تفيدنا الندامة الآن »

قال بعضهم اني رأيت في حياتي مجنوناً لا يتكلم الا كلمة واحدة وهي « ياليتني » فاذا تكلمت يحدق اليك بنظره حتى تظن ان مقلتيه كادتا أن تخرجا من وجهه وحينئذ يزعق بصوت عظيم « ياليتني ياليتني » فهذا المجنون كان قبل ان يجن حارس جسر في الطريق الحديدية وكانت وظيفته ان يفتح الجسر لمرور المراكب ويفلقه لمرور مركبات البخار . ففي أحد الايام أتت اليه

برقية بانه في ما بين الساعة كذا والساعة كذا سيمر على الجسر قطار
يجر عدداً من المركبات فعليك ان تُبقي الجسر مغلقاً ولكن لم تحدد
له اللحظة التي سيمر فيها القطار بالتام . وكان هذا الحارس أميناً في
عمله مطيعاً لاوامر رؤسائه فأتى اليه كثير من اصحاب السفن يطلبون
منه ان يفتح الجسر لتمر سفنهم فلم يجهم الى طلبهم وأخيراً أتى اليه
احد اصحابه الذي كان رباناً لسفينة صغيرة وطلب اليه بالحاح شديد
ان يفتح الجسر لمرور سفينته فاستمع له وشرع يفتح الجسر وبينما
هو في منتصف ذلك واذا بصغير القطار قد دوى فاضطرب ولم
يمكنه حينئذ ان يعمل شيئاً ما فلا هو بقادر ان يفتح الجسر لمرور
السفينة ولا ان يقفله لمرور القطار والمركبات لان الرعب اخذ منه
مأخذاً وربط يديه عن العمل وكان يصرخ قائلاً « ياليتنى ياليتنى »
ومن ثم كانت النتيجة ان سقطت جميع المركبات وتخطمت وهلك
جميع من فيها ومن ذلك الوقت اصيب ذلك المسكين بالجنون وكانت
نهيته سيئة جداً . فليت كل انسان تغريه الخطيئة على الاستمرار
فيها ولو لحظة واحدة من الزمان يعرف ذلك حتى لا يدع نفسه
تصرخ بلا فائدة في قاع الجحيم « ياليتنى ياليتنى »



الفصل السابع والعشرون

في صعوبة العذاب الابدی

« من منا يسكن في نار آكلة . من منا يسكن في وقائد أبدية »

(اش ٣٣ : ١٤)

ان الله لما أراد ان يظهر رحمته اظهرها بطريقة أذهلت الناس حتى ان كثيرين لم يصدقوها . هكذا اذا اراد أن يظهر عدله فسيظهره بطريقة تخفى على عقول الناس . فلا تتصوروا ان عذاب جهنم سينحصر في الخسارة والعار والسجن والاسر والجلد والموت تلك الامور التي لا تتحملها في هذا العالم ولا نطبقها . لان كل عذاب في العالم اخترعه البشر لا يقاس بالعذاب الذي اعده الله للاشرار الهالكين . ان الثيران النحاسية اخترعها بارتس والكراسي الحديدية استنبطها ثكليس . والمصريون اوجدوا صنف العذاب المر وهو نقب الاظافر بقصب محرف . ونيرون اخترع تلبيس البشر جلود الوحوش والقاءهم الى الكلاب الكاسرة . ومكنتيوس اخترع ربط الاحياء بجثث الموتى ليأكلهم الدود وهم احياء . فهذه كلها كانت آلات للتعذيب من اختراع البشر . واذا كنا نعتبر ما يبتدعه الانسان للتعذيب قاسياً فكم تكون

قساوة تلك العذابات التي يعدها الله للاشرار • ان انواع العذاب الموجودة في العالم لو اجتمعت كلها فوق رأس انسان فما هي الا كنقطة صغيرة من بحر اذا ما قورنت بعذاب الآخرة

قال الله على لسان حزقيال النبي « فلا تشفق عيني ولا اغفو بل اجلب عليك كطرقك ورجاساتك تكون في وسطك . فتعلمون اني انا الرب الضارب » (حز ٧ : ٩) فما اعظم العذاب الذي سيحل بالخطاة لاسيما لأن الله أعده ليكفر بمعاقبتهم عما تناول مجده من الالهانة بسبب خطاياهم . واذا أردنا أن ندرك شدة عذاب جهنم فعلينا ان نتأمل في باقى الكمالات الالهية . وكما ان عقولنا اقصر من أن تدرك صفة واحدة من صفات الله فهي أيضاً أضعف من أن تدرك كيف يعاقب الله الاشرار . اذا تجاسر رجل ولطم رجلاً فقيراً يكون عقابه خفيفاً • واذا لطم رجلاً شريفاً يكون عقابه أشد نوعاً ولكن اذا اتصلت به الجسارة فلطم ملكاً فكم يكون عقابه ؟ فبماذا تقدر ان تقدر اذاً مقدار معاقبة من اهانوا الله واحتقروا مجده • انه سيرهم بشدة ذلك العقاب مقدار عظمة مجده وكم كان ينبغي ان يطيعوا اوامره •

أجل ان الاشرار حينما يطرحون في جهنم يستحوذ عليهم العذاب ويتملكهم امتلاكاً لأن حواسهم واعضاءهم وكل قوى نفوسهم الروحية تستولى عليها المرارة والالام والشقاء واللعنة . وكل عضو من اعضائهم يصيبه من الالم ما لا حد له . قال الراى

« فهو أيضاً سيشرب من خمر غضب الله المصوب صرفاً في كأس
غضبه ويعذب بنار وكبريت أمام الملائكة القديسين وأمام
الحروف » (رؤ ١٤ : ١٠)

فالأعضاء التي كانت آلة في يد الخطيئة تكون آلة في يد
العذاب . وكل شهوة كانت تلذ اكل عضو من أعضاء الجسد
تحل محلها نقمة وشدة تعذبه . فحاسة النظر التي كانت
أثمن حواس الانسان والتي كان يشتهي بها أن يتطلع الى كل جميل
وبهيج ستبتلى بالظلام المدلهم « أرض ظلام مثل دجى ظل
الموت وبلا ترتيب واشراقها كالدجى » (اى ١٠ : ٢٢)

قال القديس يوحنا فم الذهب « لانه من شدة الظلام الحالك
المستحوذ هناك لا يقدر المقيمون ان ينظروا شيئاً أو أن يتبينوا
من في جانبهم بل كل واحد يعاقب على حدة ولو قيل ان هناك
ناراً ولهيباً فانه لا اشراق لها بالفعل بل الكائنون فيها يحترقون في
ظلام وهم لا يستنيرون ولا يحمد عنهم اللهيب » فيتم عليهم قول
أيوب الصديق « يتلمسون في الظلام وليس نور ويرنجهم مثل
السكران » (اى ١٢ : ٢٥) ان الذى يحكم عليه بالبقاء في مكان
مظلم ولو سنة واحدة يفضل الموت على الحياة فكم بالحرى الذين
يحكم عليهم ببقاءهم الى الابد في ظلام دامس ؟

العيون التي طالما تطلعت الى الوجوه الحسنة ستنفجر منها
هناك ينابيع دموع دائمة لا تنضب . قال أحدهم « ولكن النيران

تحرق تلك الدموع فيكون الشرير في آن واحد باكياً ومحرقاً
وقال آخر « ان الله يعطى الهالكين بين آن وآخر شيئاً من
الضياء في جهنم لكي يروا بواسطته صور الشياطين المخيفة واشكالهم
المرعبة وأدوات عذابهم المريعة ليزداد شقاؤهم »

وحاسة الشم التي كان يلد لها ان تتنسم الروائح الزكية والطيب
النقية سيكون عذابها عظيماً لشدة ما تشتمه من النتانة المتصاعدة
من جثث المعذنين . واذا كان التصاق انسان حي بجثة انسان
ميت كافياً لهلاكه نظراً لشدة نتانة رائحته فاذا يعمل الخاطئ
والروائح الممتنة التي تصعد من جثث الهالكين تحيط به من كل
ناحية . قال أحدهم « لو اخرجت جثة من جثث جهنم لأفسدت
رائحة المسكونة كلها »

وماذا أقول عن عذاب اللسان الذي نرتكب به خطايا
كثيرة كالكذب والوقيعه والمكر والسب والذي طالما اطلقناه
يغنى ويطرب : ان الغنى بقوله « ياأبي ابراهيم ارحمني وارسل
لعازر ليبل طرف اصبغه بماء ويبرد لساني لأنى معذب في هذا
اللهيب » (لو ١٦ : ٢٤) يصف لنا ان العضو الذي سيصيبه من
العذاب اشدّه هو اللسان

أو لئلك الذين تنعموا في هذه الحياة بالغنى والمراتب، أولئك الذين
كانوا اذا طلبوا طعاماً أحضرت لهم الماء كولات على اختلاف
انواعها شهية ودسمة . واذا طلبوا شراباً قدمت لهم الاقداح المملوءة

بما لذ وطاب تراه حينئذ يلتمسون قليلا من الخبز فلا يجدون
ويتوسلون الى نقطة ماء بارد فلا يعطيهم احد .

وحاسة اللمس التى بها تضرب غيرنا ونشهر الاسلحة على
بعضنا ونسفك دماء الابرياء ونوقع بها الصكوك المزورة سيكون
عذابها شديداً بعلامسة كل شيء جارح ومؤلم ومخيف
وكذلك يتعذب الانسان فى قوة ذاكرته وفكره . ذلك
الفكر الذى كان يطلق له العنان ليتأمل فى لذة الخطية هناك يتعذب
كلما تذكر الزمن الذى أضاعه والنعمة التى فقدوها والنعيم الذى خسره
واخيراً يتعذب فى انه لن يجاب الى طلب ماء ، فاذا اراد الخروج
فمنوع عليه واذا طلب الراحة فلن يدر كهـا وعليه ان يقضى
هكذا فى العذاب إلى ابد الابدين . النار تحرقه والدود يلدعه
هناك يتوجع ويتوجع وليس من يرحم . هناك الاكلام المبرحة
وليس من يشفق . هناك الحريق المعذب وليس من مرهم يخففه .
الشديد وليس من يرويه والجوع الكالب وليس من قوت يسده .
والعطش والحزن العميق وليس من رقاد يسكنه . والعار القاضح
وليس من نقاب يستره

أسفاً على اولئك الذين ارخوا لانفسهم هنا عنان الشرور
والشهوات فانهم هناك يقيدون بقيود ابدية تحت الظلام (يه ٦)
لقد قضى قديماً على مدينتى سدوم وعموره والمدن التى حولها
بالاحترق بالنار والكبريت . ولكن الذين احرقتهم النيران

فى سدوم وعمورة ماتوا واستراحوا من العذاب ، والنار بالطبع انطقت . ولكن ما أمر نار غضب القدير • فانها فى جهنم لا تطفأ على الدوام وأجساد الخطاة تمتلئ بها الى الابد • انه لما غضب الله على هيرودس الملك ضرب به ملاك الرب بدود فصار يأكله الدود ومات (ا ع ١٢ : ٢٣) فان كان الذى قضى عليه بان يموت على هذه الحالة اعتبر موته هذا تعذيباً له فما بال الذين يأكل فيهم الدود الجهنمى ولا يموتون كما ان الدود نفسه لا يموت ؟

وفى المستقبل يقضى الله على العالم بضربات معينة من ضمنها ضربة جراد لداغ يعذب الناس خمسة اشهر وعذابه كعذاب العقرب اذا لدغ انساناً • وحرارة لدغاته يطلب الناس الموت فيهرب الموت منهم ولا يجدونه • ثم ضربة خيول رؤوسها كرؤوس الاسود وتخرج من أفواهها ناراً وكبريتاً تعذب الناس بهما ولها اذنان تشبه الحيات ولها رؤوس وبها تضر (رؤ ٩ : ٣ — ١٩) فان كان عذاب الجراد الذى يلدغ بأذنا به الحادة وعذاب الخيول التى تحرق بما تخرجه من أفواهها من اللهب يؤلم ويعذب حتى يحمل الناس على طلب الموت مع أن الموت عدو مخيف يخشاه الناس ويهربون منه • فما بال عذاب اللهب الذى لا يطفأ والدود الذى لا ينام

ان الاطباء قد اعدوا لكل مرض دواء ولكن لا دواء لعذاب الجحيم • وباليقته كان هناك سبيل الى الموت فالعذاب متواصل والموت مستحيل • كثيرون كرهوا الحياة فى الدنيا

لامراض اصابتهم او لخسارة فادحة لحقت بهم فتخلصوا منها بالانتحار
ولكن هناك لا خلاص من العذاب بأى حال من الاحوال . ان أعظم
عذاب في هذه الارض هو عذاب النار . فالموت احتراقاً من اشنع
الميتات المرة . ولكن نار هذا العالم لا تذكر اذا ما قورنت بنار
جهنم . لان نار هذا العالم تحرق الجسم وتلاشيه وتنطفئ . وأما نار
جهنم فانها تحرق في الجسم ولكن لا تلاشيه ولا تنطفئ كما انها
لا تقضى على شعور الخطاة واحساسهم بل يبقى الهالك متيقظاً منتبهاً
لكل عذاب شاعراً به شعوراً تاماً . فلا تحرق نار جهنم العظام
والقلب والاحشاء وترمدها ولكنها تؤلم الخاطيء وتعذبه
ولكنها لا تميته

ان نار هذا العالم تحرق الجسد دون النفس ولو انها تعذبها
لاتحادها بالجسد ولكن الله يعطى النار في جهنم قوة فوق طبيعتها
لتكون آلة انتقام أى أنه يسلطها على النفس فتعذبها عذاباً اشد
لانها هي العلة الاولى للخطية . قال احد العلماء « ان نار هذه
الارض بالنسبة الى نار الجحيم هي برد وزمهرير »

وقال احد الافاضل « لا تتصوروا ان نار جهنم هي مثل
نار هذا العالم لان هذه خلقت لمنفعتنا أما تلك فقد خلقت
للتعذيب وهي اشد رعباً لثلاث صفات كميته وكيفيتها وقوة
فاعليتها . أما من جهة كميته فكلما زاد الاتون كلما عظم لهيبه
ولا يستطيع انسان ان يصف مقدار اتساع اتون جهنم الذى يجمع

جميع الخطاة في كل زمان ومكان • ومن جهة كيفيتها فقد اخترع العلماء ناراً تشتعل في وسط المياه ولا تنطفئ • ولاكن نار جهنم لم يصنعها البشر بل صنعها الله فلا بد ان تكون شديدة للغاية • اما عن قوة فاعليتها فذلك واضح من ان جميع الخطاة سيكونون فيها وقد اغلقت عليهم كل ابواب الجحيم فيظل اللهب مرتفعاً ونازلاً وملتقاً بأجسام الهالكين من كل ناحية بشدة

وفي تلك النار الشديدة الالتهاب يكون مسكن الهالكين الى ابد الأبدين ويكون كل من الاشرار مطروحاً في جوفها وهي لا تحرقه من الخارج فقط بل تدخل الى الداخل أيضاً فتحرق عقله وتشتعل في احشائه وتلتهب في أمعائه لتعذبه باطناً وخارجاً. قال الكتاب « تجعلهم مثل تنور نار في زمان حضورك الرب بسخطه يبتلعهم وتأكلهم النار » (مز ٢١: ٩)

قال بولس الرسول « الذين سيعاقبون بهلاك أبدي من وجه الرب » (٢ تس ١: ٩) وقال ميخا النبي « من أجل نجاسة تهلك والهلاك شديد » (مى ٢: ١٠) فلو وجه الانسان فكره لذلك العذاب الرهيب والعقاب الشديد اللذين قضى بهما على الاشرار لنزع قلبه وارتعدت فرائضه من هولها المريع ولصرخ قائلاً « أهاك وحسرة من العذاب المقضى به على الخطاة الهالكين » ان بعض الخطاة يخدعون انفسهم ويقولون « دعنا لا نار ولا عذاب انما هو كلام » وآخرون ظنوه عذاباً فكرياً أو انه

مجرد البعد عن الله • وفي هذا قال القديس يوحنا فم الذهب «حقاً ان جهنم شر لا يطاق وعذابها مخيف ومرعب جداً غير أنه لو أراى احد الف جهنم فلا اخاف منها ولا ارتعب كما اجزع وارهب من فقد المجد الابدى واستماع صوت السيد المسيح القائل لى بوجه غضوب «لا أعرفك» وتوبيخه اياى لاني لم أطعمه فى حين أحتياجه وجوعه ولم اسقه فى حين عطشه»

قيل ان سناسيوس الجليل كان عنده عبد وكان ذلك العبد رذلاً سكيراً مسرفاً فهرب من وجه سيده فكتب سيده الى اخيه رسالة يقول له فيها «يا اخى لقد هرب من عندى من هو عبد قلباً وقالباً • ولذلك أرسلت اليك لتفتش عليه • واذا وجدته كتفه وقيده ولا ترسله الى بل الى بلدته • لان تلك المدينة التى ولدت الشر ينبغي ان تضمه • وأما من جهى فلست اؤدبه لان الرذيلة التى فيه كفؤ لتأديبه • ولا اجد له عذاباً اشد من الرذيلة المستحوذة عليه ولست اريد أن اقتص منه لان الشر كاف ليقصص من الشرير» فان كان الشرير لا يعتبر ان عذاب الفكر فى جهنم أشد من عذاب النار فما اجهله وان وجد من لا يؤمن بهذه الحقيقة فلا بد ان يكون فاسد الفكر ولا يريد ان يعتقد هذا الاعتقاد لى لا ينغص عليه عيشه ويكدر صفوه • يروم الاشرار ان لا يكون وجود لجهنم النار وان تبقى آثامهم بدون ان يتناولهم عليها تأديب او قصاص • ليت شعري كيف يتأتى لهؤلاء ان يتعاموا ويحاولوا

اقتناع انفسهم بعدم وجود جهنم • فان قالوا لا وجود لها فما هم
إلا كذبة مملوؤن سفاهة وضميرهم يكذبهم • قال القديس
اوغسطينوس « انك تتجاسر وتنفوه بذلك لكنك لا تتجاسر
على الاعتقاد بصحة ما تقول لان ضميرك يشهد لك بالخلاف •
فعبثاً تروم محاولا اخفاء نخس هذا الضمير فانه يعلمك دائماً بان
جهنم تتوعدك وانت نفسك تظهر بانك تستوجبها »

ولكن الواقع الذى لا ريب فيه انه توجد نار للعذاب لان
الوحي قرر هكذا مراراً وعلى الاخص فى تصريح السيد المسيح له
المجد اذ قال عنها انها نار ممتزجة بدود لداغ • فدعكم من الظنون
الباطلة فانه ولا شك عند ما يرى الخطاة اضطرام اللهيب وزفير
اللظى وهم مساقون ليطرحوا فيها تحفق قلوبهم ندامة ويستولى عليهم
الرعب وعندما يتحققون انها نار مضطرمة يصرخون بشدة • تحسرين
ومستجيرين ومستغيثين ومستنجدين

انه لا يجزأ على انكار حقيقة وجود جهنم إلا كل مكابر فاسد
السيرة سقيم الرأى والعقيدة • وهب انه لا توجد جهنم فعلاً وانه
لا عقاب يكون للاشرار سوى طرختهم بعيداً عن الله فكفى بالخوف
من الله عذاباً وآلاماً • لأن الرسول يقول « لان الخوف له عذاب »
(١ يو ٤ : ١٨ ورؤ ١٨ : ١٠) واذا قيل أليس الله رحوماً فلماذا
هذا القصاص المريع الذى لا يطاق ؟ فاجيب ان الأثمة لم يكتفوا
بانهم اضجروا الناس بل اضجروا الله أيضاً (اش ٧ : ١٣)

واغظوه واهانوه بل اثاروا غضبه فمن ثم استحقوا دينونة عادلة
لا ظلم ولا جور فيها

نعم ما أهول الشقاء الذى توعده به الله غير التائبين (اش ١ : ٤
ومت ١١ : ٢٠ - ٢٤) سيكون عذابهم عظيماً ولا تكون له نهاية
قال أحد الافاضل « ان جهنم لبليمة شديدة حتى انه لو فرض انه
سيحكم على انسان واحد فقط من بنى البشر كافة بالعذاب فيها لكان
يلزم كلاً منا ان يخاف من ان يكون هو ذلك الشقي المنكود الحظ »
ولا يستطيع العقل البشرى ان يتصور مقدار شناعة حالة الهالكين
فدوي صراخهم يشق الصخور الصلدة واوجاعهم كاوية قوية مرة
حتى ان ساعة واحدة فى هذا العذاب لأشد هولاً من وقوع الانسان
بين مخالب المرض القاسي سنين طويلة فى الحياة

هذا هو مدفن لذات العالم وهذا هو حد الشهوة والطمع فما
اصعب وما امر عذاب تلك الأجسام التى تعامل فى الحياة بكل
لطف وتتنعم مترفة . فان كنت تخاف من بلايا هذه الحياة
التي لا تدوم سوى مدة وجيزة فلم لا ترتعب من بلايا أشد واصعب
ومكتوب لها الدوام . ان كنت تتألم هنا من لدغ نحلة فكيف
تتحمل هناك تلك النار الممتدة ؟ لما احضر نبوخذ نصر علماء
الكلدانين لاجل تفسير حلمه وضع لهم هذا الشرط المحدد بوعده
ووعيد وهو ان ينتم الحلم وتعبيره تتألون من قبلى هدايا وحلاوين
واكراماً عظيماً وان لم تبينوا الحلم وتعبيره فقضاؤكم واحد

تصيرون ارباً ارباً وتجعل بيوتكم مزبلة (دا ٢ : ٥ و ٩) وهكذا السيد المسيح قد حدد شرطاً للخلاص من العذاب الابدى بوعد ووعد . فقال فى وعده « فكن غيوراً وتب . هنذا واقف على الباب واقرع . ان سمع احد صوتى وفتح الباب ادخل اليه واتعشى معه وهو معى » (رؤ ٣ : ١٩ و ٢٠) ثم قال فى توعده « واعطيها زماناً لكى تتوب عن زناها ولم تقب . ها انا اقيمها فى فراش والذين يزنون معها فى ضيقة عظيمة ان كانوا لا يتوبون عن اعمالهم . واولادها أقتلهم بالموت فستعرف جميع الكنائس انى انا هو الفاحص الكلى والقلوب وسأعطى كل واحد منكم بحسب اعماله » (رؤ ٢ : ٢١ - ٢٣)

وهكذا جاءت وعود وتوعدات لقضائه عدلاً . فقال « ان شئتم وسمعتم تأكلون خير الارض . وان أيتم وتردتم تؤكلون بالسيف لان فم الرب تكلم » (اش ١ : ١٩ و ٢٠) وقال ايضاً « قولوا للصديق خير . لانهم يأكلون ثمر أفعالهم . ويل للشرير شر . لان مجازاة يديه تعمل به » (اش ٣ : ١٠ و ١١)



الفصل الثامن والعشرون

في الابدية الخيفة

« ويصعد دخان عذابهم الى ابد الابد من ولا تكون راحة
نهاراً وليلاً » (رؤ ١٤: ١١)

لقد بينا في الفصل السابق « صعوبة العذاب الابدى »
واوضحنا أنه فوق طاقة الانسان ونقول هنا انه لو كان ذلك العذاب
الى اوقات معينة ولو ملايين السنين لما بكت العيون ولا انهملت العبرات
من الجفون ولكانت عاقبة ارتكاب الشر من اهون الامور : ولكن
ما يولى الخوف والاضطراب ويملاً القلب جزعاً وفزعاً هو ان
ذلك العذاب لا حد له ولا نهاية وتلك الابدية لا قرار لها

ان ابدية الخطاة ظلام دامس دائم لا يضيء فيه نور الشمس
ابداً وأفق عذابهم لا يلمع فيه برق على الدوام وكل ساعة يقضونها
في جهنم المظلمة يخالونها الوفاً من السنين : وهذا هو ما يجعل العذاب
على ما هو عليه من الهول والشدة

لقد مضى على قايين اكثر من خمسة آلاف سنة وهو يتعذب
في الجحيم ومع ذلك لم يتقدم ولم يخط خطوة واحدة في ابدية
بل كان هذا اليوم هو اليوم الاول من دخوله فيها . ولقد مر
اكثراً من الف وتسعمائة سنة وذلك الغنى الشرير يش ويتنهد ولم
تستطع دموعه السخينة ان تسكن عذابه دقيقة واحدة

ولقد ضرب احدهم مثلاً على دوام الابدية فقال « لو كان احد الهالكين في جهنم يقطر من عينيه كل مائة سنة دمة واحدة وتحفظ دموعه كلها ليتكون منها بحر عجاج فترى كم من آلاف الدهور وربوات السنين تمر ولا يتكون من دموعه بحر بل ولا يجري ماء صغير ولو فرضنا أن تكون من دموعه بحر بمرور دهور لا يحصى عددها فهل تكون الابدية حينئذ قد بلغت نهايتها ؟ كلا بل تكون كأنها في دور الابتداء ولو تكررت عملية استجماع دموعه آلاف المرات وتكونت منها بحور اخرى في ربوات اضعاف الدهور التي تكون فيها البحر الاول فلا تكون الابدية قد قاربت من الانتهاء بل لا تكون إلا في بدايتها فقط .

وقال آخر « وما معنى قول الكتاب الى ابد الابدین » هل معناه ان الخطاة يتعذبون مدة تساوي المدة التي فيها يستطيع عصفور ان يجفف جميع مياه البحار اذا اتى كل سنة مرة واحدة وشرب نقطة واحدة لا غير ؟ هل معناه انهم يتعذبون زمناً يقدر بالزمن الذي تتمكن فيه دودة صغيرة من ان تقنى كل اشجار الارض اذا قرضت كل سنة قرصة واحدة فقط ؟ هل معناه انهم يتعذبون دهوراً تقدر بالدهور التي تتمكن فيها نملة من التطواف بالارض بأسرها اذا مشيت كل سنة شبراً واحداً فقط ؟ لا بل هم يتعذبون الى امد اطول من ذلك بكثير جداً . حتى لو فرض ان العالم كله مملؤ بالرمل ونقلت منه كل مائة سنة ذرة واحدة لانتهى ما في العالم من الرمل ولما انتهت الابدية »

يقدر البروفسور دانا العالم الجيولوجي ان العصر الذي وجدت فيه آثار الحياة بدا على الاقل منذ ١٦ مليون سنة مضت وان العصر العظيم المسمى بعصر الظلام الذي وجد قبل ذلك لا بد انه يرجع الى امد أبعد من ذلك بمراحل كثيرة منذ ان أوجد الله الكرة الارضية ، ومع ذلك فلو قضى الخاطئ مثل هذه المدة في الابدية لكان لا يزال في أولها فقط ، وقد قدرت المسافة الشاسعة التي تفصل أبعد كوكب يمكن للمرء ان يراه بأقوى منظار في الارض باثنين ونصف كوادريون ميل ، ومع ذلك فان هذا النجم البعيد ليس هو نهاية الفضاء وهو مستمر الدوران بلا نهاية ، هكذا الابدية فانها تشبه محيطاً زاخراً لا حدود له والشقي يكون فيه دائماً الدوران

كل ذلك لأن النفس غير قابلة للفناء فلا يقدر القاتل على ملاساتها ولا السكير على اغراقها ولا محب العالم على دفنها بالمال فهي أعجب وابق من كل العوالم السابحة في الفضاء الذي لانهاية له فيتحول القمر الى دم وتحترق الارض بنار وتنطوى السموات كدرج وتنتهي كل هذه المشاهد العظمى والنفس البارة تبقى في النعيم دائماً الخلود . والنفس الخاطئة تبقى في العذاب الى الابد .

على هذه الحال يقيم أولئك الاشقياء في وسط هذه النار الآكلة والعذاب المؤبد الى ما لانهاية . فباليت جميع البشر يتأملون في ذلك ولو دقائق قليلة فانهم لو عرفوا ذلك جيداً لاصلحوا سيرتهم وتغيرت حالتهم .

فيا أيها الاشرار اشفقوا على انفسكم . تصوروا ذلك العذاب
الابدى وذلك الالتهاب الدائم وان كان لا يستطيع احد منا ان
يتحمل وضع شظية من النار على اى عضو من اعضاء جسمه ولو
لمدة دقيقة واحدة ولا يطيق صبراً على تحمل مرض أو ألم يحل به
فيسارع باستدعاء الاطباء لاغاثته ، فما بالناس لا نجزع اذا ما تصورنا
آلام الجحيم وعذاباتها التى تتناول الجسد والنفس معاً ؟ ان ليلة
واحدة تمر علينا فى الحمى أو فى ملاطمة أمواج البحر ونحن بين
الحياة والموت تظهر لنا طويلة جداً . فالشمس تظهر للمتألم كأنها نسيت
دورانها وكأن كل شرائع الطبيعة قد انقلبت فاذاً ماذا تكون
حال أولئك الاشقياء الساقطين فى هاوية الغضب الالهى الذين
بعد ما يقضون اجيالا ودهوراً لا عد لها لا يمكنهم إلا ان يعترفوا
قائلين « ان هذه كلها ليست إلا دقيقة واحدة من دقائق شقائنا
وسنبقى فى مثل عذاب هذه الأجيال الطويلة منفيين من السعادة
السموية معذنين بعذاب اللهب الآكل وتوبيخ الضمير المؤلم
ونزيد خطايانا بكثرة تجديفنا على الله ونبقى فى اللعنة الى الابد
والى ابد الأبدن »

بقدر ما تطعم النار مواداً ووقوداً بقدر ما يستمر التهابها
والمادة التى تشتعل بها نيران جهنم هى الخطيئة وكما ان الخطيئة
لا تزول عن اهل المعاصى لانهم هبطوا بها الى النيران فستظل
النيران مستمرة تعذبهم ليلاً ونهاراً وبلا انتهاء ، وكما ان حشائش

الأرض بعد أن تأكلها الحيوانات تنبت ثانية كذلك الخطاة تأكل فيهم نار جهنم في كل وقت ولكنها لا تفنيهم

قيل أن أحد الاسبانين الشرفاء المدعو ويداكس لما ان ابلغ في احدى الليالى وهو في سجنه بالحكم عليه بالاعدام شاب شعرد في تلك الليلة ولم يكن قد تجاوز العشرين من العمر ولا ح كأ أنه قد تجاوز الستين . فان كان يمكن أن يقال عن تلك الليلة ما أطولها على ذلك التعيس وما أشد هولها حتى جعلت شبابه يتحول الى شيب فماذا يقال عن ليلة جهنم التي ليس لطولها نهاية والتي تشيب الملاك في كل لحظة بأهوالها وفي الوقت نفسه تستبقيه وسط النيران شاباً يتعذب ولا ينصره، ويرعى في جسمه الدود لادغاً منه آكلاً ولكنه لا يفنى ولا يضمحل

نعم ايها الخاطيء انك تسمى ان يطول عمرك في هذه الحياة كما طال عمر متوشالح ليكون لك من التمتع بالملذات القسط الاوفر. ولكن هناك في الجحيم ستطلب الموت فلا تجده . اصغ الى صوت ابيالك يصرخ من اعماق الجحيم قائلاً أين السيف الذى قتلته به نفسى فتخلصت من العار الذى كنت اخشى ان يلحقبى في الحياة لأهلك به نفسى هنا (قض ٩ : ٥٤) ويقول زمري اين النار التى بها احرقته نفسى لاموت بها ثانية (١ مل ١٦ : ١٨) ويقول اخيتوفل اين الحبل الذى خنقت به نفسى لأعيد الكرة عليها (٢ صم ١٧ : ٢٣) وهناك سيدفن الاشرار انفسهم في اشد انواع العذاب دفناً لعله يقضي على حياتهم فلا يجدون الى ذلك سبيلاً

ياله من ملل عظيم يستحوذ على الخطاة . واذا كان الاشرار هنا كثيراً ما يملون من لذاتهم فكم بالحري يكون ملل المعذبين من عذابهم ؟ قال القديس أوغسطينوس « ياله من جنون عظيم . وهو انك تخاف من ان تتوب لئلا تقضي الحياة القصيرة معارضاً لشهواتك ولا تخاف من ابدية النيران . فان كنت تحترس احتراساً عظيماً من الموت ومن مرض لا يدوم سوى زمان يسير فلم لا تحترس لكي تجتنب موتاً وعذاباً ببقيان »

فان كنت تخاف وتكتئب اذا مكثت بين اجساد الموتى بغير مصباح فكيف تحتمل ان تمكث دائماً في القتام والظلام المدهم بين جملة الهالكين حيث لا ترى نوراً ولا شمساً ولا قرراً ولا نجومًا . وان كنت لا تحتمل مشاهدة شيطان واحد فكيف تستطيع أن تعان جمهير الارواح الشيطانية الكثيرة العدد المختلفة الاشكال والهيئات المزعجة الخيفة ؟ وان كنت لا تحتمل ان تبقى اصبعك دقيقة في النار فكيف تحتمل ان تكون ملقى بجملتك طريحاً الى الأبد في هوة جهنم التي لا يحتمل سعيها ؟ وان كانت نازلة من النوازل الهينة او مصيبة من المصائب البسيطة تجعلك تتمتع هذه الحياة فكيف يمكنك ان تصبر على كل تلك الشدائد والامراض المتباعدة التي تعذبك وتملك جسمك والتي لا ينفع فيها دواء ولا طبيب ؟

قال الواعظ ساوران في موعظة له عن الابدية : — « ايها الاخوة . ما اهل هذه الكامة ولو في هذه الحياة الدنيا . وما

أشد البلية التي لا نجاة منها . وما أصعب سماع كلمة الابدية في حال العذاب الاليم . فقيود أهل النار ابدية وسلاسلهم ابدية وسجنهم ابدى وكل اذلال وتعير وعذاب فهو دائم الى الابد .

أيها البشر الاشقياء ما أجهلكم . ألا تعلمون ان الحياة ليست إلا أسرع من الوشيعة (أى ٧ : ٦) وانها تزول كمسنة فهي ليست ابدية ؟ ان الابدية ايها الغافلون لانهاية لها فهي مما لا تدركه عقول المخلوقات ولا نهاية لأبدية الهالكين .

« اننى اكاد اعني واسقط تحت ثقل هذا الموضوع وانى حين ارى نفسى وأصحابى واقربائى وشعب رعيتى وكل هذا الجمع وافكر فى اننا كلنا مهردون بذلك العذاب العظيم وأرى اننا مستخفون بالمقاصد الروحية ، أشعر بان سماء قاتلا قد توزع فى أزمنة حياتى وجعل إلفة اصدقائى نفوراً ولذة الطعام المائاً وافراح الحياة احزاناً والحياة نفسها مرة ولا اتعجب حينئذ لما أسمع ان الخوف من جهنم جعل البعض عابسين وغيرهم مجانين وهذا الخوف قد حمل البعض على أن يهربوا من مخالطة كل بشر وجعل غيرهم يمتدحون أشد الآلام الجسدية

« فاحذروا أيها الاحباء واعلموا ان ليس لكم فرصة للخلاص من ذلك العذاب العظيم الا فى هذه الحياة القصيرة اما بعدها فلن تلقى عليكم خطب ولا عظات ولن يكون هناك محل لقبول التوبة ولو كانت بالدموع والتمنيدات . ففكروا فى قصر الحياة وفى انكم ربما تقارقونها بعد سنة واحدة أو شهر واحد أو يوم واحد

أو ساعة واحدة أو دقيقة واعملوا حالا للخلاص من ذلك الشقاء الابدى . وتأملوا وانظروا في شفقة الله عليكم ومحبه لكم فانه يحثكم ويسألكم بكل لين ورفق أن تهربوا من تلك الالهوال قائلاً ليت شعبي يصغى الي . فتعلموا ايها الناس لثلا تفارقكم نفسي . فلماذا تموتون يا بيت اسرائيل (مز ٨١: ٨ وار ٨: ٦ وحز ١٨: ٣١) قال الكتاب « ويصعد دخان عذابهم الى أبد الآبدين ولا تكون راحة نهراً ولا ليلاً » فالمرضى مهما ثقل مرضه قد يرتاح وقتاً ما واما هناك فلا راحة مطلقاً . ما اطول الليل على العليل ولكنه عندما يرى انبثاق الفجر يستريح أما ليل جهنم فلا فجر له بل هو ليل لا نهاية له

فلنترك القساوة ولنرجع الى عقولنا . ان كثيرين قد يتفوهون بحسرة ويقولون انهم مستعدون للذهاب الى جهنم وانهم عالمون ان منوهم النار وان ذلك لا يهمهم ولا يرعبهم . فهو لاء اشبه بالصوص وقطاع الطرق والقتلة الذين يتظاهرون بأنهم لا يخشون الاحكام فيقولون « السجن للابطال والموت للرجال » ولكن اذا قبض عليهم وادعوا السجن أو حكم عليهم بالاعدام فانهم يقضون الايام واليالي يتقلبون على أحر من الجمر في الندامة والتحسر وهكذا الخطاة في الدنيا فانهم لا يبالون بالعقاب ولكن لما يأتى وقت القضاء يقولون (آهآ) (اش ٣٣: ١٤ ولول ١٩: ٣١-٣١)

وكما ان عذاب الاشرار في جهنم لا ينتهى فهو أيضاً لا يتغير ولا تحف حدته بل كما يكون في بدئه هكذا يكون الى الابد : فالنار

هي لا تتغير . والدود هو هو لا يموت . ولعمري ان هذا الامر
يملا قلوب الخطاة خوفاً ورعباً لا سيما حينما يعلمون ان عذابهم لا
مفر منه ولا علاج له ولا مخفف لشدة .

يعترض بعضهم قائلاً « كيف يوافق عدل الله ان يقضي على
الانسان بالعذاب الابدی مقابل خطيئة صغيرة ارتكبها في زمن
وجيز » فنجيب بان الله رحيم حقاً ولكنه غيور على القداسة
فالذي يموت بخطيئته لا يمكن ان يخلص منها في الجحيم وبالتالي
لا يتجاوز الله عن عقابه لاجلها باعتبار أنها ضد صفته الكاملة
« القداسة » وهوذا اشعياء النبي يصرخ قائلاً « ها ان يد الرب لم
تقصر عن ان تخلص ولم تثقل اذنه عن ان تسمع . بل آثامكم صارت
فاصلة بينكم وبين الهكم وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع »
(اش ٥٩: ٢١) وقال احدهم « ان الله لا ينظر الى الافعال بل الى
النية فبعدل يحق له ان لا ينهي عقاب جميع الذين كان في نيتهم
ان لا ينتهوا عن فعل الخطيئة في جميع أيام حياتهم والا يجعل حداً
لعذاب الذين لم يجعلوا حداً لخطيئتهم . نعم ان ارتكاب الخطيئة كان
قصيراً منتهياً الا ان حب الخطيئة كان دائماً غير منتهى لان الخاطئ
كان يتمنى ان يحيا بلا انتهاء ليخطيء بغير انتهاء » وقال القديس
اوغسطينوس « انه بكل وجه من الحق تتعذب النية الشريرة ولو
لم يلحقها الفعل الشرير فينتج اذاً انه ان مات الانسان في خطيئة
يكون راعباً في فعلها انى الابد لو اتفق له ان يحيا الى الابد فان
الله يعذبه الى الأبد »

وقال العلامة تر توليانوس « ان الله يحتمل في هذا الزمان آثام الناس بطول اناة لان الابدية بتامها في قبضة يده فيقاصصهم بها . صبور لأنه ابدى . على انه تعالى اذا ما صبر فانه يصبر كاله . واذا ما عاقب في الجحيم فانه أيضاً يعاقب كأله » وعلى هذا المنوال يستحق الخطيء الخلود في العذاب لان عظم الذلة انما يقاس بحسب عظمة قدر من صدرت في حقه . والحال ان المجد الالهى غير متناه . والخطيئة هي ذلة صادرة ضد الجلال الالهى فهي غير متناهية وبالتالي تستحق ان تعاقب عقاباً غير متناه

قال احدهم تحت عنوان « الى اين . الى اين » « مات في القرن الثامن عشر احد الشيوخ في امريكا وترك لابنه وصية تتضمن هذه الكلمات « اذكر انه توجد ابدية طويلة » فحفظ هذه الوصية جميع افراد عائلة الشيخ واثرت ثمراً حسناً في تحسين سيرتهم » . وقال أحد السباح « دخلت نزلاً فرأيت في احدى غرفه ورقة مكتوبة عليها هذه الكلمات « يارجل اعرف هذه الاشياء — الله والدقيقة والابدية » وقال رتشرد بكستر ان احد معاصريه القسوس جعل محور وعظه طول حياته عن الابدية . فزار مرة امرأة مشرفة على الموت وحالها دنا منها صرخت (ادع الوقت ليرجع — ادع الوقت ليرجع » فأجابها « عبثاً ما تبتهين فان رجوع الوقت مستحيل كتمقصير الابدية »

فاسأل نفسك ايها الانسان « الى أين انا ذاهب ؟ » الى أين ايها الاوراق المتساقطة ؟ لا أعلم . الى أين ايتها الريح ؟ لا أعلم .

الى اين ايتها الامواج المزبدة ؟ لا أعلم، ولكن الانسان ليس ورقاً ولا ريحاً ولا امواجاً ولا شيئاً من مثل هذه حتى يجب لا أعلم بل عليه أن يعلم انه منطلق إما الى سعادة ابدية أو الى شقاء ابدى

« الى أين ؟ » قال احدهم وهو على فراش الموت وكان ممن لم يبالوا بهذا السؤال طول مدة حياتهم « ارى ظلمة دامسة محدقة بي من كل ناحية » وقال آخر ممن كانوا على شاكلته وفي مثل حالته « انى خائف جداً » وقال أحد القواد وهو فى نفس تلك الظروف « تجهزت لكل شىء ما عدا الموت » وقال أحد الشبان الاقوياء وهو فى الرمق الاخير « لا رحمة لى » وقال آخر وهو على حافة الابدية « انا مائت ولا اعلم الى أين انا ذاهب » فياها من ساعات مخيفة حينما يبلغ الانسان الدقيقة الاخيرة من الحياة ويرى ان الفرص الثمينة قد انتهت وان الظلام الابدى قد أقبل وان انوار الرجاء قد انطفأت

فليتنبه الخاطيء من غفلته . وليفتح عينيه . وليتهم بما هو قادر عليه الآن فيداوى ما لا يقدر على مداواته فيما بعد . ان الزمان الحاضر مناسب ومقبول . الآن فى دقيقة واحدة يمكننا ان نكسب ما لا يمكن ان نكسبه فى مدة الابدية كلها .



الفصل التاسع والعشرون

في سعادة الابرار ومجد القديسين

« ما لم تر عين ولم تسمع اذن ولم يخطر على بال انسان ما أعده الله للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٩)

قال الله لملاك كنيسة سميرنا « كن اميناً الى الموت فسأعطيك اكليل الحياة » (رؤ ٢ : ١٠) وهذا الوعد هو لكل انسان . فمن كان اميناً في محبة المسيح وخدمته وعهوده الى الموت فسينال منه اكليل الحياة ويحظى بالشركة معه في الميراث السماوى والابجاد الابدية . وعلى ذلك فالجهاد والآلام هى طريق الوصول الى الابجاد وكذلك احتمال الضيقات والامانة الى الموت فانها سبيل التمتع بنوال اكليل الظفر ، فالمسيحى الامين متى فارق هذه الحياة يلاقى ربه باسم الثغر وضاح الجبين ويكون كالجندي الباسل الامين عند ما يعود من ساحة الحرب منتصراً لينال جزاء جهاده وامانته . ان يوسف حصل على خاتم الشركة والسلطان بعد خروجه من السجن وبولس الرسول يقول « جاهدت الجهاد الحسن . . . وأخيراً وضع لى اكليل البر »

فلا تضجر أيها المؤمن اذا اصابتك البلايا وتراكت عليك

المخاوف والاحزان بل أثبت على ما تعلمت وأيقنت لكي تتمجد في السماء بالاعجاد التي يعجز اللسان عن وصفها . تلك الاعجاد التي لما عاينها بولس الرسول لم يقدر ان يتكلم عنها ولم يجد في قواميس اللغة الفاظاً تساعد على وصفها فاكثف بقوله « ما لم تر عين ولم تسمع اذن ولم يخطر على بال انسان ما أعده الله للذين يحبونه » (١ كو ٢ : ٩)

ولعمري انه كفى بالقدسين ان يتمتعوا بالوجود في حضرة الله فهذا هو منتهى الفخر والمجد والسعادة التي تفوق كل سعادة . والغنى الذي هو اعظم من كل غنى العالم . ولا ريب انه ما من كنز يضاهي هذا الكنز ولا امتلاك اعظم من هذا الامتلاك . اى امتلاك الانسان لله سبحانه وتعالى . اية وراثة اكثر ثمناً من ملك السموات والارض . وايماء ذهب اغلى من خالق الذهب وهو يقدم لنا كل غنى لئلا نمتلكه

وفي ذلك يقول المرتل « يروون من دسم بيتك ومن نهر نعمتك تسقيهم . لان عندك ينبوع الحياة . بنورك نرى نوراً » (مز ٣٦ : ٨ و ٩)

اننا هنا لا نرى الاله الذي خلقنا واقتدانا والذي يحيطنا دائماً بالحسنات ويقدم لنا فيض نعمته لئلا نملكها ولكننا هناك سنراه كما هو بل ونجلس معه ونشابهه في جسد مجده . قال بطرس الرسول « الذي وان لم تره تحبونه » (١ بط ١ : ٨) فما اعظم الفرح

الذى يملأ المؤمن عندما يشاهد رب البرايا يحتفى به ويضمه الى صدره بحبة وحنان ومن هو الانسان الذى يكون موضع اهتمام مبدع الوجود وخالق جميع الكائنات ؟ واى سرور اعظم من سرور تلك النفس التى تتمتع بجمال الخالق وبجميع كمالاته ؟ واذا كان يعقوب لبث يخدم لابان مدة اربع عشر سنة لاجل جمال راحيل . فاية خدمة يجب ان تقدمها لله تعالى لكي يكون لنا حق التمتع بجمال من هو ابرع جمالا من بنى البشر (مز ٤٥ : ٢) ولهذا يقول داود « اما انا فبالبر انظر وجهك . اشبع اذا استيقظت بشبهك » (مز ١٧ : ١٥)

هناك يتمتع المؤمنون بخيرات لا عد لها وافراحهم لا تحصى فليبتهج اذا المسيحيون المدعوون الى هذه الخيرات العظيمة وليتهلوا لان الله تعالى قد خلق السماء لاجلهم ولتتعز قلوبهم ولتتقو برجاء هذه الافراح الابدية

يا أيها المؤمنون . يا من التحفتم بالضيق وتسربلتم بالتجارب ابتهجوا الآن . لان الله ليس بظالم حتى ينسى تعبكم وعمل محبتكم . انكم ستنالون جزاء امانتكم وجهادكم واعمالكم الصالحة ، وها السكتاب يبشركم قائلا « قولوا للصديق خير . لانهم يا كلون ثمر افعالهم » (اش ٣ : ١٠)

أجل . ان عيشة الصديقين في هذا العالم مملوءة من الاحزان والمشقات والايين والاعتاب . ولكن ايمانهم بان سيديهم

سيجازيهم على اتعابهم يخفف احزانهم . فلولا رجاء السماء لكانوا
اشقى جميع الناس (١ كو ١٥ : ١٩) ان عزاء رجال الله المتضايقين
في هذا العالم هو انهم سيحفظون بالافراح العظيمة في اورشليم
الجديدة حيث عريسهم الرب يسوع المسيح .

قد نجد رجال الله في هذا العالم فقراء ومزدرى بهم بينما نجد
الكثيرين من الاشرار أغنياء واصحاب جاه . ولكن غنى هذه
الأرض لا يعتد به ولا قيمة له وانما الغنى الحقيقي هو في المسيح
الذي اشترانا بدماه ومن كان المسيح نصيبه فهو حائز على جميع
الاجاد والمقتنيات الفضلى والسعادة العظمى والهناء والسرور .
فاغنياء هذا العالم الاشرار يحل بهم الفقر المدقع في العالم الآتى . اما
المؤمنون فانهم يعطون اسما عظيماً ومجداً (رؤ ٢ : ١٧) « هناك
يكف المتفاقون عن الشعب وهناك يستريح المتعبون . الاسرى
يطمئنون جميعاً . لا يسمعون صوت المسخر » (أى ٣ : ١٧ و ١٨)

هذا ما جعل الرسل بولس يهتف قائلاً « لان لى الحياة هي
المسيح والموت هو ربح . . . لى اشتها ان انطلق وأكون مع
المسيح . ذاك أفضل جداً » (في ١ : ٢١ و ٢٣) . وكما ان احسن
ما يبتغيه الابن هو ان يكون في بيت ابيه حاصل على كل احتياجاته .
فان أفضل شيء وأكمل نصيب للمؤمنين هو ان يكونوا في بيت الآب
الحنون ناقلين الاجتماع الذى لا يعقبه فراق في بيته السماوى
في ذلك المكان الذى ذهب المسيح اليه وأعدده لهم ليأخذهم اليه

فيتمتعون بلقاء الحبيب ويحظون بفرح ذاك العرس المجيد . إذ
 تجتمع العروس بعريسها المحبوب يسوع مخلصنا وتشارك في
 القداسة الالهية في السماء لابسة ثياب المجد والبهاء حاصلة على
 الجمال العجيب لأنها اكتسبت الجمال والكمال من حبيبها
 يسوع الذي خلقه حلاوة وكمه مشتهيات وهو مشتهى كل الامم .
 وهذا ما كان يتمناه داود ويتوق للحصول عليه بقوله « واحدة
 سألت من الرب وأياها التمس . ان أسكن في بيت الرب كل أيام
 حياتي لكي أنظر الى جمال الرب واتقرس في هيكله » (مز ٢٧ : ٤)
 فما أعظم السرور الذي يشمل المؤمنين إذ ذاك عند ما يرون
 ان اتعابهم قد انقضت وانهم انتصروا على اعدائهم وفازوا بالخلاص
 الابدي . ان كان موسى الكليم وبنو اسرائيل هتفوا مسبحين
 ورنمت مريم النبية مع نسائهم بنغمات شجية والحان مطربة على
 دفوفهن راقصات في احتفال عظيم عند ما نجوا من فرعون وجيشه
 وعبروا البحر على الاقدام كأنه ارض يابسة ووصلوا الى شاطئه بسلام
 نعم ان كانوا في لحظة نسوا كل عبودية مزر المرة ومشقاتها الصعبة
 التي تكبدوها مدة سنين عديدة وفرحوا فرحاً هذا مقداره مع
 انهم لم يكونوا قد تمتعوا بعد بارض الموعد بل اتوا الى برية
 مقفرة (خر ١٥ : ١ - ٢١) أما نبتيج نحن بالاولى ونفرح عند
 ما نعبى بحار مصائب العالم وتتخلص من كل تجاربه المرة وننتهي
 من ديار نحيبه ومن محاربات الاعداء المقاومين لنا فيه . كيف

لا نبتهج عندما نصل الى فردوس النعيم حيث ننسى كل ما قاسيناه
 في العالم من اتعاب شديدة واحزان عديدة ونكون ساجدين في
 بحار افراح لا يعرف قرارها كأنا محمولون على افلاك السماء على
 اجنحة حمامة مغطاة بفضة وريشها بصفرة الذهب فنترنم بترانيم
 النصر وترنيمه موسى والخروف قائلين « عظيمة وعجيبة هي
 اعمالك ايها الرب الاله القادر على كل شيء عادلة وحق هي
 طرقك ياملك القديسين . من لا يخافك يارب ويعبد اسمك لانك
 وحدك قدوس لان جميع الامم سيأتون ويسجدون امامك لان
 احكامك قد اظهرت » (رؤ ١٥: ٤) ثم نشترك مع الذين قالوا
 « مستحق هو الخروف المذبح ان يأخذ القدرة والغنى والحكمة
 والقوة والكرامة والمجد والبركة . وكل خليفة مما في السماء وعلى
 الارض وتحت الارض وما على البحر كل ما فيها سمعتها قائلة للجالس
 على العرش وللخروف البركة والكرامة والمجد والسلطان الى ابد
 الآبدن » (رؤ ٥: ١٢ و ١٣) ولا سيما حينما « نكون كل حين مع
 الرب » (١ تس ٤: ١٧)

ان موسى لما عاين لمحة صغيرة من وراء مجد الرب تلاًلاً
 وجهة بالنور حتى لم يستطع بنو اسرائيل ان يروا وجهه فكان
 يغطيه ببرقع (خر ٣٣: ١٨ - ٢٣) وكذلك بطرس ويعقوب ويوحنا
 عندما تجلى المسيح لهم ذهبوا لمجد ذلك النور العجيب وفضلوا
 البقاء في الجبل (مر ٩: ٢ - ٥) فما بالنا نحن الذين سنكون على

هيئة من النور تضاهي هيئة المسيح نفسه وسنراه كما هو « لانه
 سيغير شكل جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده »
 (في ٣ : ٢١) وقال الرسول « متى أظهر المسيح حياتنا فحينئذ
 تظهرون انتم أيضاً معه في المجد » (كو ٣ : ٤) « اذا اظهر نكون
 مثله لاننا سنراه كما هو » (١ يو ٣ : ٢) « ونحن جميعاً ناظرين
 مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة تتغير الى تلك الصورة عينها
 من مجد الى مجد كما من الرب الروح » (٢ كو ٣ : ١٨)

فتصور ايها المؤمن أسمى الافراح وأبهج المسرات واعتقد
 انك ستعطى اكثر منها . قيل ان الاسكندر الكبير لما التمس
 منه فوريلس أحد ندمائه مساعدة لتجهيز احدى كريماته أمره
 بخمسين وزنة . فاستعظم النديم الهدية وعرض على الملك ان يكتفى
 بعشرة وزنات فقط فاجابه الملك « ان كانت عشر وزنات تكفيك
 احساناً فلا تكفيني انا عطاء » وهكذا فان عطاء الحياة الابدية
 للنفس المختارة هو اعظم من استحقاقها لانه سيكون بنسبة جود
 الله وسخائه

يعلمنا الكتاب ان مظاهر مجدنا في السماء تقوم على اربعة
 اشياء :—

(١) ثياب البهاء والمجد البيضاء التي يلبسها ابناء الله المفيدون
 في السماء . وهذا يظهر من رؤيا يوحنا الحبيب حينما رأى
 الاربعة وعشرين شيخاً الذين يكنى بهم عن كل المفدين فقد رآهم

متسربلين بثياب بيض وعلى رؤوسهم الاكاليل من الذهب
(رؤ ٤:٤) وكذلك رأى جميع المقدين من كل الشعوب والقبائل
واقفين أمام العرش وأمام الخروف متسربلين بثياب بيض وفي
ايديهم سعف النخل . فقال واحد من الشيوخ ليوحنا هؤلاء
اللابسون الثياب البيض من هم ومن أين اتوا . فقال له ياسيد انت
تعلم . فأجابه هؤلاء هم الذين اتوا من الضيقة العظيمة وقد غسلوا
ثيابهم وبيضوها بدم الخروف (رؤ ٧: ٩ - ١٤) فينتج من
ذلك ان الشيء الاول في مجد القديسين هو ان يلبسوا ثياب المجد
والبهاء البيضاء التي تشير الى القداسة والطهارة التي حصلوا عليها
بالمسيح يسوع قدوس اسرائيل

فلا يوجد في السماء قتام ولا ظلام بل كل شيء ابيض منير .
فما أجد وما ابهى تلك الحال وذلك المنظر البهيج فالظلام كله
ظلام الحزن والجهل والخطيئة يترك في الارض . ومن أين تكون
الظلمة في المجد السماوى ونوره شمس المنيرة التي لا تغيب ومن اين
القتام والخطيئة لا توجد هناك ؟ فطوبى لمن نال الثياب البيضاء

(٢) اكاليل المجد . قال بولس الرسول « قد جاهدت الجهاد
الحسن اكملت السعى حفظت الايمان واخيراً قد وضع لى اكليل
البر الذى يهبه لى فى ذلك اليوم الرب الديان العادل وليس لى فقط
بل لجميع الذين يحبون ظهوره ايضاً » (٢ تي ٤ : ٧ و ٨) وقال
يعقوب الرسول « طوبى للرجل الذى يحتمل التجربة . لانه

إذا تركى ينال اكليل الحياة الذى وعد به الرب للذين يحبونه «
(يع ٢: ١٢) وقال بطرس الرسول « ومتى ظهر رئيس الرعاة تنالون
اكليل المجد الذى لا يبلى » (١ بط ٥ : ٤)

لما كان بولس وبرنابا فى لستره وشفيا المقعد قدم لهما الجمهور
اكليل وثيراناً كأنهما من الالهة ولكنهما لم يقبلا ذلك بل مزقا
ثيابهما ولم يسمحا لأؤلئك الجهلاء ان يقدموا المجد لهما لانهما
يعلمان ان مجد الارض باطل واكليلها زائلة (اع ١٤) اما اكليل
الحياة فمجيد وثمين لا يفنى ولا يضمحل . قال الرسول بولس عن
المجاهدين من اليونان الذين يركضون فى ميدان الالعاب
انهم يأخذون اكليلا يفنى واما نحن فاكليلا لا يفنى (١ كو ٩ :
٢٥) غير انه يلزم ان نركض لكى نناله . فما أسعد المؤمنين
الذين يلبسون تلك الاكليل المقدسة من ملك الملوك الذى يعطيها
لعبيده جزاء لغبتهم وانتصارهم

(٣) عروش المجد . قال الرائي « ورأيت عروشاً فجلسوا عليها
واعطوا حكماً ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع
ومن أجل كلمة الله والذين لم يسجدوا للوحش ولا لصورته ولم يقبلوا
السمه على جباههم وعلى ايديهم فعاشوا وملكوا مع المسيح
الف سنة » (رؤ ٢٠ : ٤) ان الاكليل والعروش إشارة الى الملك
الساوى مع ملك الملوك ورب الارباب يسوع المسيح . فالؤمنون
الحقيقيون ليسوع يلبسهم الثياب البيضاء الزاهية ويكلمهم بأكليل

المجد الابدي ويجلسهم على عروش السماء . فما أعظم مقام المسيحى
الحقيقى وما اشرف نسبه . ان الذين ينالون الخطوة بالمثل لدى
ملوك الارض يعظم فرحهم وانسراحهم . فما بالناس الذين نشترك
مع ملك السماء والارض فى امجاده وفى دينونة الاشرار ؟

(٤) النور السماوى اللامع . وأى مجد نبلى الى حينما نجلس
حول العريس المجيد ونكون كبدور تتألق فى قبة افلاك المجد والبهاء
بل حينما نجلس فوق الشمس والكواكب البهية على الممتكات
السماوية وتتألأ كأنوار باهرة وكواكب زاهرة وشموس ساطعة
وانوار لامعة حول شمس البر الحقيقى ببهاء عظيم هذا مقداره

ان شمس عالمنا هذه قد تفتخر على بقية الانوار لشدة سطوع
نورها وقوة ضيائها . فانها اذا ما اشرقت توارت جميع الكواكب
خجلا منها وتوارى معها القمر . هكذا نحن حينما نكون فى اوج
السماء مضيئين كالشمس (مت ١٣ : ٤٣) يعترى جميع الانوار
الكسوف وتتوارى جميعها بما فيها الشمس خجلا . ولا تستطيع
ان تظهر أمام العروس التى تدخل دار السماء بجد عظيم وبهاء لامع
حتى يتعجب الجميع قائلين « من هى المشرقة مثل الصباح جميلة
كالقمر طاهرة كالشمس مرهبة كجيش بالوية » (نش ٦ : ١٠)
وبالاجمال ما من حالة من حالات الجلال والمجد والعظمة
نشاهدها فى هذا العالم إلا وسنكون على أعظم منها . فلا تفتخر
ايها الغنى بعناك ولا تغتر ايها الملك بعظمتك . ولا تتباه ايها

المتزين بأنواع الزينة . فمجد السماء وخيراتها يفوقان كل مجد رأيناه وكل عظمة سمعناها

ويا له من فرح دائم الى الابد لأن موضوعه دائم الى ابد الآبدين . واذا كان الانسان في هذه الحياة يفرح بالمال أو بالصحة أو بالبنين فان فرحه سيزول بمجرد زوال اسبابه . وعلى ذلك ففرح الانسان الذي اخصبت كورته قد زال في تلك الليلة التي افتخر فيها ونزع فيها عنه غناه . وفرح آدم وحواء بقايتين وهايل قد انتهى بقتل هايل ، وفرح شمشون بقوته زال بزوال قوته وحل بعده الحزن والتعب ، وسرور يعقوب ويوسف انقلب الى اكدار وتمهيدات ، وكل فرح في العالم لا يدوم . اما افراح السماء فهي دائمة الى الابد ولا تزول مطلقاً ولا يمكن ان يتخللها احزان ولا اوجاع لانه لا سبيل لها في ذلك المكان الذي أعد لراحة المؤمنين

فالانسان مهما كان مجيداً وشريفاً على الارض فما هو الا كعشب يبس وحياته كالبخار تظهر قليلاً ثم تضمحل (يع ٤ : ١٤) اما المجد السماوى فهو ابدى لا ينتهي ولا يزول وما أعظم الفرق بينهما « فالعالم يمضي وشهوته واما الذي يصنع مشيئة الله فيثبت الى الابد » (١ يو ٢ : ١٧)

كل اعجاد العظماء زالت بزوالهم ولا مكن مجد ابناء الله المؤمنين ليس كذلك فانه يمتدى بزوال حياتهم الارضية ولا ينتهى الى الابد لقد حصل موسى على شيء عظيم من مجد العالم اذ كان معتبراً كأبن

لابنة فرعون مصر ولكن لما نظر الى المجد السماوى وقابله بالارضيات
فضل ان يذل مع شعب الله « لانه كان ينظر الى المجازاة » وهكذا
تمجد يوسف فى مصر ومردخاى فى شوشن القصر ودانيال فى
بابل ولكنهم لم يبالوا بهذا المجد لانهم كانوا ينتظرون مجداً اعظم
وأفضل

فلا مجد فى العالم يقاس بتلك الامجاد السماوية ولا سعادة تقابل
بالسعادة الابدية. ان سليمان الملك حالما تمبوا كرسي الملك الاسرائيلى
ضربت الابواق له هاتفة . وقدم له الشعب التحيات اللائقة ضارئين
باصوات النماى المطربة حتى انشقت الارض من أصواتهم المرتمة
(١ مل ١ : ٣٩ و ٤٠) ولكن هل يعد ذلك شيئاً اذا ما قورق
بالفرح والابتهاج الذين سيكون عليهما الابرار عندما يستمورون
على كراسي المجد ويكلمون رؤوسهم بتيجان المملكة السماوية
ويتسربلون بالثياب البيضاء ويحتفى بهم ملك الملوك وجيوش الملائكة
فرحين مرتمين مهللين

وبالجملة فان المجد السماوى يفوق كل مجد سواه . ولو جمعت
كل مفاخر الملوك من بدء الخليقة الى نهايتها ووضعت على هامه
ملك واحد فانها لا تعادل ولا تشابه ذلك الملك العتيد لانها جميعها
لا تخرج عن كونها ملكاً ارضياً بشرياً زائلاً ، اما ذاك الملك فهو
ملك سماوى إلهي ابدى . وكما انه لا توجد معادلة بين الذهب
والتراب والثريا والثرى فبهذا المقدار واكثر يعلو مجد السماء
لما احتواه من الابهة والجلال عن المجد الارضى الذاهب للزوال .

قال احد الاقاضل « كل فرح عالمي بالنسبة الى الفرح الالهى
 انما هو حزن صعب الاحتمال و كل لذة ألم و كل حلوة مرارة
 وبالجملة كلما يطرب الناس ويهيجهم فى هذه الحياة انما هو بالمقابلة مع
 ما وصفناه شدة وثقل لا يحتملان. تلك هى الخيرات الالهية الجوهرية
 التى ينبغى أن نرتاح اليها وننجح الى محبتها وهذه هى الغاية التى
 لاجلها وجدنا. فاجعل نصب عينيك ايها الحبيب ارض الاحياء
 واسع اليها كعبد أمين واعرض عن أمور هذه الحياة الفانية وتتح
 عن الخطيئة لتكون أهلاً للتمتع بذلك المجد العالى الذى لا يزول »
 والنهاية اننا سنملك فخر مجد لا يوصف حيث نكون
 جالسين كهلك وعظماء حول عرش الملك العظيم. على كراسى ملكية
 ومتسربلين بابهى الحلل الربانية. متوجين بالاكاليل النورانية.
 متنعمين باطياب المائدة الروحية وكؤوس افراح السماء. مترمين
 بنعمات رخيصة شجية. بينما اصوات الجماهير السماوية تهتف قائلة
 مباركون ومقدسون ومغبوطون ومستحقون. يا من نلتهم هذا
 الملك العظيم والمجد الرفيع فدوموا بالسيادة مغبوطين بهناء خالد.
 متنعمين بالسعادة الابدية. حيث تملكون الى ابد الابدين
 ودهر الداهرين (رؤ ٢٢ : ٥)

ابتهج ايها المؤمن الواثق بخلاص نفسك. ابتهج بذلك المجد
 المعد لك وكيف لا تبتهج وهناك لا تجد شيئاً تكرهه مطلقاً بل لك
 كل ما تحب وتشتهى. كيف لا وكل ما فى الحياة من ظلمة وآلام

سيدفن في القبر وستغبط وتطوب نفسك حينما تخرج من سجنك
الى عرشك

تأمل طويلا في ذلك المجد. تصوره امامك كل حين. ضعه نصب
عينيك في كل وقت، حينئذ تحترق مجد العالم وتجدد كلا شيء. اؤكد
لنفسك دائما ان حواسك ستحصل في السماء على اللذة الحقيقية التي
لا تنتهي فلن تمل العين من النظر ولا الاذن من السمع ولا اللسان
من التغنى والترنم. اطلب من الهك ان تمتلك هذه الخواطر فؤادك
وان يسكن الشوق الى السماء قلبك وناد هكذا « تعالي الي ايتها
السعادة الآبدية لاستريح فيك. لاني سعت الى سعادة العالم
فلم أجدها أما أنت فوجوده حقا. متى يرتفع الحجاب لأطير
اليك. متى تأتي الساعة التي فيها أرى حبيبي يسوع واسقط عند
قدميه فيقيمني بيده اليمني ويمسكني تلك السعادة امتلا كما ابديا »
هنيئا لكم سكان السماء مجدكم، هنيئا لكم سعادتكم وعزكم
نحن على انهار بابل نبكي صهيون واما انتم فقد جزتم بحر سوف
ووقفتم على شاطئه ترمون ترنيات النصر. نعم ان هبة الله ودعوته
بلا ندامة • فلا بد ان تغلب بقوة ولا بد ان فصل السماء فنرى
بالعيان ما صدقناه بالايمان



الفصل الثلاثون

تأملات روحية

« قف وتأمل بعجائب الله » (١٤: ٣٧)

فتأملى إذاً يا نفسي تأملاً عميقاً في كل الحقائق التي مر
ذكرها وتأملى :-

(١) في الموت : نعم ان التأمل فيه مخيف ولكن تشجعي
يانفسى وتجري هذه الكأس المرة بثبات . تصوري في مخيلتك
انك وصلت الى ابواب الموت وأوشكت روحك ان تفارق
جسدك . فكم يكون هذا الانفصال صعباً عليك . كم يؤلمك
فراق هذا الجسد الذي كنت مستعبدة له في هذه الحياة . كم مرة
خالفت الهك ومصدر حياتك لكي تلذذي هذا الجسد والآن
حين دنا وقت فراقك له التمسى منه ان يكافئك على خدمتك أياه .
يالشقاوتك . تأمليه بعد فراقك أياه لتجديه قد صار جيفة كريهة .
أين اللذات التي تلذذ بها والتنعم الذي تمنعه ؟

قومي إذاً يانفسى من سباتك وأميتي هذا الجسد وادفني كل
حركاته حتى يمكنك ان تحي في البر وقداسة الحق . وهوذا روح
الحق ينادى قائلاً « لأنه ان عشم حب الجسد فستموتون .

ولكن ان كنتم بالروح تميزون أعمال الجسد فستحيون «
(رو ٨ : ١٣)

تأمل يانفسى أيضاً

(٢) فى يوم الدينونة : نعم ستلبس الارواح هناك أجسادها لتدان على أعمالها هنا خيراً كانت أم شراً . ففكرى الآن يانفسى وميزى أفعالك . تأمل جيداً فى تصرفاتك ، هل اذا ذكرت أمام الديان يكون لك فرح أم حزن . هل اذا ذكرت ينظر اليك أهلك برضا أم بغضب . قيل أن ملكاً أرضياً نظر شزراً الى اثنين من أكابر مملكته واطهر الغضب فى وجهه نحوهما لأجل ذنب خفيف ارتكباه . فمن شدة الرعب والخوف الذى استحوذ عليها سقط أحدهما فى الحال ميتاً وألم بالثانى مرض قتال ولحق برفيقه بعد أيام قليلة . فان كانت نظرة غضب من ملك أرضى فعلت هكذا فكم تكون نظرة ملك الملوك . قولى لى ايتها الشقية التى تميزين الى الكبرياء والتنعيم هل تستطيعين الهروب من أمام وجه الديان . ان ذلك مستحيل . وهل تحتملين الوقوف أمام وجه الغضوب . هل يمكنك ان تسمعى صوت توبيخه حينما يقول لك لقد طرقت كثيراً أبواب قلبك لى تدخلينى اليه . وأما انت فصممت أذنك وقسمت قلبك ولم تريدى ان تدخلينى اليه . وأبلغ من ذلك أنك طردتني وادخلت الشيطان مكانى . لا اظنك تقوين على استماع صوت هذا التوبيخ . اذاً قومي من غفلتك وتيقظي من سباتك

واطلبى نعمة الرب لتغلبى بها اعداء خلاصك . وبهذا تقفين يوم
الدينونة غير خائفة ولا وجلة بل واثقة ومطمئنة لانك سبقت
وانتهزت الفرصة وقدمت التوبة ونلت الخلاص قبل موتك
تأملى يا نفسى أيضاً

(٣) فى عذاب جهنم . نعم فى عذاب جهنم تأملى . هنا اللذة .
وهناك العذاب . هنا السرور وهناك الغم . هنا التمتع وهناك
الشقاء ، فقد تعودت هنا النوم على الفراش الحريية ولكن هناك
ستنامين على أشواك من اللهب المستعر . مسكينة اتقى يا محبة
اللذات . عوض الشعور باللذة يكون الشعور بالوجع الذى لا
يطاق . اذاً انقضى عنك غبار اللذات . واذا حاول الشيطان ان
يصور لك لذة أمام عينيك أو يمثلها بخاطرك فتصورى أنت
حينئذ عذاب جهنم وآلامها وقولى لا بليس اللعين « اذهب عنى
فاللذة التى تعزىنى بها وقتية ولكن جزاؤها العذاب الابدى »
تأملى أيضاً يا نفسى

(٤) فى السعادة الابدية . ياله من نهار دائم لا ليل له . أى
شئ ذلك الذى قال عنه الرسول « ما لم تره عين » هل يمكن أن
تدركى أى شئ هو يا نفسى « هو الله نفسه » هو وحده الذى
سيكون نصيبك وحظك ، فهل بعد تمتعك به تقولين انى احتاج
الى شئ ما . ان قلبك لا يعرف الشمع هنا . ذلك لانه لا يشبع

قلبك إلا الله وحده . لذلك يقول الكتاب عن فرح السماء انه ابدى لأن الله ينبوع الفرح الابدى . من يستطيع ان يكشف لك يانفسى عن قليل من مجد السماء وسرورها . كفاك ان تعرفى ان هناك يستقر القلب في مركزه الحقيقى الابدى وحينئذ يصرخ قائلاً « نعم . نعم . هذه هى السعادة التى كنت اشتتها »

فهل لا يستحق مجد السماء وسعادتها يانفسى بعد ذلك ان تحترق العالم لاجله . هل يمكن للعالم مهما تلاً أن يعتبر بقيمة لحظة قصيرة في ملكوت السموات . قولى للعالم اذاً « اذهب عني ايها العالم . لتغب عني كل ايجادك فاني لا أحزن على فراقها . انى أتوقع عند سيدى يسوع مجداً حقيقياً ابدياً انى اريد أن أخسر كل شىء لاربح المسيح »

تأمل يانفسى ايضاً

(٥) في قدرة يسوع على خلاصك: لعلك حينما تتطلعين الى مجد السماء تقنطين من الحصول عليه لما تشعرين به من الضعف فيك فطبيعتنا حقاً فاسدة ولهذا ليس مما يبهج جسدنا ان نعيش لله . ليس من يدعي انه بطبيعته وقوته يستطيع ان يخطو خطوة واحدة في سبيل التقوى فطريق السماء وعرة على الانسان البشرى . ولكن الله امرنا أن نجاهد وتعهده ان يساعدنا في جهادنا . فنحن اذا سعينا بقوتنا لا نصيب الا الفشل والسقوط ولكن اذا سعينا متكئين

على مساعدة نعمة الله كتب لنا الفوز والنصرة
 فيأتيها النفس المشتاقة الى مجد السماء . ارفعى نظرك الى فوق
 حيث المسيح جالس . تطلعي اليه لتجدى صورة الصليب مرسومة
 على عرشه . اسمعي صوت الروح الالهي ينادى قائلاً بان الذي
 لم يشفق على ابنه بل بذله لاجلكم اجمعين كيف لا يهبكم ايضاً معه
 كل شيء (روم ٨ : ٣٢)

فلئن كان أمراً محققاً اننا لا نستطيع ان نخلص انفسنا فالامر
 الاكثر تحقيقاً ان يسوع يقدر أن ينيلنا هذا الخلاص . فعلينا ان
 نسعى ناظرين اليه كرئيس ايماننا وقائد جيشنا حينئذ يحول ضعفنا
 الى قوة وفقرنا الى غنى وحينئذ نصرخ مع الرسول بولس قائلين
 نستطيع كل شيء في المسيح الذي يقوينا (في ٤ : ١٣)



الخاتمة

طريق السماء

« هذا الباب للرب . الصديقون يدخلون فيه » (مز ١١٨ :

(٢٠

قد ذكرنا ايها الاحباء وصفاً موجزاً للامجاد السماوية بل أن
ما ذكرناه عنها ليس الا كنقطة من بحر عجاج لانه ليس لنا ولا
لغيرنا القدرة أو الاستطاعة على ايفاء وصف تلك الامجاد حقه
ولا يمكن ان يتاح ذلك لنا أو لاي أحد من البشر حتى نحظى بها
ونشاهدها بعيوننا ونتمتع بها . عند ذلك نراها فوق ما كنا
نظن او تقدر

والواجب علينا اذاً بصفة كوننا مسافرين الى تلك الديار
الابدية ان نسير في الطريق الذي يؤدي الى الامجاد المذكورة .
يوجد في هذا العالم طريقان كما قال الرب « ها نذا اجعل امامكم
طريق الحياة وطريق الموت » (ار ٢١ : ٨) فطريق الحياة يؤدي
الى الحياة والخلود كما قال « المقوم طريقه أريه خلاص الله » (مز
٥٠ : ٢٣) وطريق الموت يؤدي الى الجحيم حيث اللهب والدود .

وهو الذى قال عنه الحكيم «يابنى لاتسلك فى الطريق معهم . امنع
رجلك عن مسالكهم» (ام ١ : ١٥) وقد ترك الله للانسان
الحرية فى ان يختار لنفسه أى الطريقين لـبكى يكون بلا عذر
(رو ٢ : ١)

اما طريق المجد السماوى فهو السيد المسيح لانه الطريق والحق
والحياة (يو ١٤ : ٦) فعلى الذى يرغب الوصول الى المجد ان يترك
السير وراء العالم ويتبع المسيح مقتفياً آثاره وسالكاً سبيله
ولا يهتم بمجد العالم ولا يعبأ بزخارفه الفانية .

لنتقدم الى يسوع الذى مات لأجلنا ليحيينا وليقل كل منا
له «اختبرنى يا الله وأعرف قلبى امتحنى واعرف افكارى» وانظر
ان كان فى طريق باطل واهدنى طريقاً ابدياً» (مز ١٣٩ : ٢٣ و ٢٤)
ان كنت ترغب الصعود الى المجد السماوى فهذا هو الطريق .
اتبعه حتى تأتى الى عليية صهيون ومن هناك ترتفع الى اعلى السموات
فلا طريق للسماء الا هذا الطريق . لا يضللك عدو الخير ولا تنخدع
وتسير وراءه . نعم انه يظهر لك طريقه بمظهر حسن ويجذبك للسعي
فيها وراءه ولكن تأكد انها توصلك الى هاوية العذاب . نعم فى
بدايتها سرور وانسراح ولكن خاتمتها احزان واطرار كما قال
الحكيم «توجد طريق تظهر للانسان مستقيمة وعاقبتها طرق الموت»
(ام ١٤ : ١٢) تبصر . لا تتقدم فيها خطوة واحدة . احذر لان
الخطر أمامك . وها الحكيم ينصحك قائلاً «لا تدخل فى سبيل

الاشرار ولا تسر في طريق الأثمة . تنكب عنه . لا تمر به . حذ عنه واعبر » (ام ٤ : ١٤ و ١٥)

كان الرومان قديماً اذا ما أرادوا ان ينهوا عن خطر عظيم يضربون الجرس خمس مرات فاذا تأخر أحد قدمه يكون على رأسه وهكذا يضرب الله لك الجرس الالهي ليحذرك من خطر الخطيئة قائلاً لك « لا تسر في طريق الأثمة » اسمعه هوذا يناديك بما نادى به الملاك لوط ويقول لك « اهرب لحياتك » (تك ١٩ : ١٧) فحاذر ان يميل قلبك الى الورا . احترس ولا تنظر الى سادوم لئلا تصير عامود ملح كمرأة لوط . قال الكتاب منها الساعين وراء المسيح « اذكروا امرأة لوط » (لو ١٧ : ٣٢) أى احترسوا أن تنظروا الى الورا لئلا تهلكوا « لتنظر عينك الى قدامك واجفانك الى أمامك مستقيماً . مهد سبيل رجلك فتثبت كل طرقك . لا تمل يمنة ولا يسرة . باعد رجلك عن الشر » (ام ٤ : ٢٥ — ٢٧) عليك ان تترك كل شيء وتتبع مخلصك يسوع . انكر ذاتك واحمل صليبك واسع نحو المجد في هذا الطريق فتفوز بأبدية الحياة وقل مع النبي « تمسكت خطواتي بأثارك فما زلت قدماي » (مز ١٧ : ٥)

قال بولس الرسول « افعل شيئاً واحداً اذ انا انسى ما هو وراء وامتد الى ما هو قدام » (في ٣ : ١٣) فالسعى الى نوال الاجاد السماوية انما هو جهاد متواصل وسير الى الامام متتابع في

طرق البر وسبل التقوى بدون التفات الى الوراء وما أشبهه بجري العربات خلف القطار على قضيب السكة الحديدية التي ان مالت قليلاً الى أحد الجانبين انقلبت وانكسرت ولا يمكنها أن تواصل جريها لاننا اذا كنا في أثناء سعيينا وراء المسيح نميل بقلوبنا الى شيء من خيرات هذا العالم فاننا نتعطل عن السير ونتأخر عن الذين يتسابقون معنا . وما آخر بني اسرائيل في البرية إلا ميلهم لأرض مصر واشتياقهم اليها ورغبتهم في أكل « الكرات والبصل والثوم » قال الرب « عيناى على أمناء الأرض ... السالك طريقاً كاملاً هو يخدمنى » (مز ١٠١ : ٦)

نعم علينا في اثناء سعيينا هذا ان لا نحدد يمنة ولا يسرة . لا ننظر للاموال ولا ننشغل بالمناصب ولا نتعلق بالاجاد الدنيوية ولا نندفع وراء الشهوات العالمية . لا يستهوى فؤادك مجد العالم الغرار حتى يجعلك تتفكر بالاثم على مضجعك وتقف في طريق غير صالح ولا ترفض الشر (مز ٣٦ : ٤)

حاذروا ان لا تكونوا على الدوام متطلعين نحو المجد الابدى والجمالة السموية . جاء في اساطير الاقدمين « انه كان يوجد جبل مرصود وضع على قمته كنز ثمين وجعل هذا الكنز جزاء لمن يتسلق الجبل ويصل الى قمته بدون ان ينظر الى الوراء . والوصية والوعيد لكل شاب يتسلق هذا الجبل هما « لا تنظر الى ما وراءك لئلا تصير حجراً » وقد حاول كثير من الشبان ان يصلوا الى ذلك

الكز فلم يقدرُوا وصار كل منهم حجراً . لان الطريق الى رأس الجبل كانت تتفرع منها طرق اخرى الى رياض جميلة تكسو جوانب ذلك الجبل وكانت في تلك الرياض طيور تغرد كما كانت تسمع منها اصوات موسيقية تأخذ بمجامع النفس فتغري المارين لكي يقفوا ويستريحوا قليلا فينسبون الوصية ويصيرون احجاراً حتى ان اكتظت في وقت قصير جوانب الجبل بالشبان الذين تحولوا الى حجارة لا هم لم يحفظوا الوصية»

فهذه القصة وان كانت خرافية الا انها تمثل لنا الجهاد والسعي نحو الجعالة السموية . فالله يوصينا بقوله « لا تنظروا الى ما وراءكم اهربوا حياتكم . لا تلتفتوا يمينا وشمالا . لا تنظروا الى ملذات العالم الجسدية والاغاني العالمية والشهوات الشبابية التي تحارب النفس . وعلى المجاهد ان يثبت نظره في الاكليل ولا يتحول عنه ويصبر الى النهاية» ولكن ابليس يأتي في وسط طريق الجهاد ويفرس حديقة الخطيئة ويجعل فيها كل ما هو من شهوة الجسد وشهوة العين وتعظم المعيشة وبطرق عديدة ومتنوعة اختبرها فوجدها محبوبة للبشر ، يغريهم ويخدعهم حتى يلتفتوا اليه فيقتنصهم لارادته فهو كالرجل الظالم يغوى صاحبه ويسوقه الى طريق غير صالح (ام ١٦: ٢٩)

وجاء أيضاً في تاريخ اليونان « انه كانت هنالك في قديم الزمان ابنة مشهورة بسرعة العدو (الجري) وكانت تحرز في ذلك دائماً

عصب السبق وأصرت على ان لا تقترن الا بمن يسبقها في العدو .
 فجاء شاب محتال . واعلن انه يستطيع ان يسبقها وتحدد ميعاد للمباراة
 بينهما . فذهب الى الميدان قبل الميعاد المحدد ومعه ثلاثة تفاحات
 ذهبية جميلة المنظر وبطريقة خفية القى بأحداها في الطريق المقررة
 للسباق ولما ان حان موعد السباق وبدأ الجري معاً اخذت تسبقه
 حتى وصلت الى حيث التفاحة فاستلمت نظرداً شكل تلك التفاحة
 فاحسنت واخذتها من الأرض وفي هذه الاثناء كان مناظرها قد سبقتها
 فاجهدت نفسها في العدو وما كادت تلحق به حتى القى اليها التفاحة
 الثانية فالت اليها واخذتها فسبقها الشاب بمسافة كبيرة فجاهدت
 لتلحق به وما كادت تسبقه حتى القى اليها التفاحة الثالثة
 فوقفت عن الجري ومدت يدها وتناولتها فسبقها الشاب
 وبهذه الحيلة تمكن من الوصول قبلها الى نهاية المسافة ففاز عليها
 ونال اكليل السبق »

هكذا يوجد من هو اكثر حيلة من ذلك الشاب . وهو ابليس
 عدونا الذي يسعى ليلهيينا ويؤخرنا عن سعيينا وراء المسيح فيطرح
 أمامنا تفاحاً من محبة العالم وغروره وشهواته وامواله ومقننياته
 وبواسطة ذلك يعطل الكثيرين عن الجهاد كما عطل عازان وجيحزي
 وديماس وسيمون وغيرهم من الذين خسروا كاليلهم وجعلالاتهم
 أما الذين لم يتبعوا المسيح للآن ولم يذوقوا لذة السير في طريقه
 الموصل الى السماء فيجب عليهم أن يسرعوا بالجري اليه حالا تائبين
 ملتزمين منه الخلاص لكي يحتموا به قبل ان يتخذ صورة غضبه .

لنقدم اليه وهو حمل وديع قبل أن يتحول الى أسد مفترس .
يجب أن نسرع الى التوبة ونسعى في الحصول عليها حالا اذ لا
عذر لنا بعد ان عرفنا مما تقدم شدة وصعوبة عذاب غير
التائبين . لنشفق على انفسنا بقدر ما اشفق ابن الله علينا
وقدم نفسه للموت من أجل خلاصنا ، انه يدعونا اليه ويسر
وملائكته بتوبتنا (لو ١٥ : ١ - ٧) لنشفق على نفوسنا ولنسرع
بالرجوع اليه تائبين توبة نقية خالصة . لرحم ذواتنا ونهرب من
الغضب الآتي ولا نتهاون بنفوسنا كما يفعل أولئك الذين
بينهم ملوثون بالخطايا ويريدون البقاء فيها وفي دنسها يخدمون
نفوسهم قائلين « ان الله رحوم » بلى . انه رحوم ولكن رحمته
في التوبة (اش ٥٥ : ٧) او يقولون « أن دم المسيح يطهر من كل
خطية » نعم انه يطهر ولكن مع التوبة (ام ٢٨ : ١٣ و ١٠ : ٧ - ١٠)
قال أحد الافاضل يوجد نبع مفتوح للتطهير من
الخطية (زك ١٣ : ١) لكن بشرط الاقبال الى الله بتوبة نقية
أما اذا لم تقبلوا هذا الشرط وعشتم في شروركم وشهواتكم
فباطلا تنتظرون تطهيراً . لان دم يسوع لا يمتزج مع الدنس
« أي خلطة للبر مع الاثم » لاحظوا ان دم يسوع الكريم لا يتدنس
مع الخطايا مطلقاً . قد تجدد واحداً يدنس نفسه بالكبرياء وبالبنضة
وآخر بالحقد ، وآخر بالطمع ، وآخر بالغش ، وآخر بالبخل ونحوه ،
وأخرى تدنس نفسها بالعجب بملابسها أو حليها أو تفتخر
بعضيم نسبها . وأخرى بالانحطام وأخرى بالنميمة والمذمة وأخرى

بالكذب وغير ذلك . فهل بعد ذلك تقولون « ان دم المسيح يطهرنا » لنزع عن نفوسنا اولاً الخطايا والشرور ونبتعد عن الآثام والدنس وننتقدم الى المسيح تأميين نادمين حينئذ يطهرنا بدمه الذي الكريم

أما اذا لم نتقدم بالتوبة فلا طهارة لنا بل يكثر غضب الله علينا . فليت الخطيء يتوب أسفاً والآثيم يرجع نادماً لكي ينال غفران الخطايا قبل فوات فرصة النجاة وحتى لا يقع تحت الدينونة حيث لا ينفع وقتئذ ندم .

لقد ندم الكثيرون ولكن بعد فوات الفرصة كقايين وعيسو وعاخان وشاول وآمنون وابشالوم وهيرودس فلم ينفعهم الندم فانهمضوا اذن من غفلتكم واستغفروا من سكرتكم واهجروا الخطية لكي لا تبتلعكم وأميتوا حركاتها لكي لا تلقىكم احياء في عذاب قصاصها . تجنبوا حب المال لئلا تشتعل فيكم نيرانه الآكلة ، اهربوا من الطمع لئلا يفترسكم بأنيا به . امتنعوا عن الشهوات لئلا تلدغكم بسمومها . اطرحوا عنكم حمل الشرور لئلا يهبط بكم الى قرار البحيرة المتقدمة بنار وكبريت

لما قضى على قايين باللعنة استجار بالرب وقال ان « ذنبي أعظم من ان يحتمل » (تك ٤ : ١٣) فاذا كان قايين لم يحتمل ذنباً واحداً فما بال الواقعين في جهنم تحت نير ذنوب لا تعد وخطايا لا تحصى . اناسدكم يا قوم بحق من فداكم وهو واقف أمامكم ماداً اليكم يديه يدعوكم ان تقبلوا اليه بالتوبة لتناولوا غفران الخطايا قائلاً لكم

« التفتوا لنداء قلبي المحب الذي ذاب على الصليب كذوبان الشمع
 لاجلكم . انظروا الى حالتكم وقدروا قيمة نفوسكم الثمينة . اسرعوا
 بالتوبة قبلما ينقضي الأجل ويأتى يوم الدينونة . تعالوا الي قبلما
 يغلق الباب فتتضرعون لكي يفتح لكم فلا تجابوا . قدموا نفوسكم
 واطرحوا ذواتكم بين يديه اللتين تمزقتا بدق المسامير . تضرعوا
 أمام القلب الذي احترق والجنب الذي طعن والاحشاء التي تمزقت
 والروح التي ذابت بسيف العدل الالهي المتقلب »
 لنطلب الرحمة الالهية بتوبة صادقة تقية لكي يطهرنا
 المسيح بدمه الكريم ويقبلنا في ملاكوته العظيم .
 له المجد مع أبيه الصالح وروحه القدوس من الآن وإلى
 الأبد آمين م



اعلار

عن سكة حديد

تحت ادارة ابليس واعوانه

تؤدى بمن يسير فيها الى الموت الابدى

- (١) محطة البر
- (٢) » الغواية
- (٣) » الميل الى الخطية
- (٤) » السقوط فى الخطية
- (٥) » الاستهتار
- (٦) » تبكيت الضمير
- (٧) » التوبة والنجاة
- (٨) » عدم الاكتراث والتوغل فى الشر
- (٩) » التعاسة
- (١٠) » الجنون
- (١١) » الخطر
- (١٢) » الهلاك

تنبيهات

- (أولاً) تقبل قطارات ابليس الركاب من جميع الطبقات
- (ثانياً) جميع القطارات تقف في محطة النجاة وكل من ينزل فيها يرجح حياته
- (ثالثاً) القطارات تقوم كل ساعة ليلاً
- (رابعاً) من محطة التعاسة تزداد سرعة القطارات حتى تصل الى محطة الهلاك
- (خامساً) بكل قطار عربة للنوم فيها خدم يوقظون الركاب من حين لآخر ويقدمون لهم كؤوس المسكرات وانواع المكيفات القتالة
- (سادساً) الركاب الذين يجيئون من بلاد الملاحى والملاذات ويرغبون في السفر في هذه السكة يقبلون بكل ترحاب وبإشارة منهم للقطار في اثناء سيره يقف حالا ليأخذهم لان امثال هؤلاء من احسن زباين ابليس
- (سابعاً) لا يقبل ركاب في القطارات العائدة من محطة الهلاك الى محطة النجاة

(ثامناً) غفش الركاب يشحن على مسؤوليتهم ولا تقبل المصلحة
شكاوى من زوجاتهم أو أولادهم عن أى تلف أو ضياع
(تاسعاً) تضمن المصلحة وصول الركاب الى آخر محطة وبعد
ذلك تصبح خالية من كل مسؤولية
(عاشرأً) كل من أراد النزول من القطارات بين محطة النجاة
ومحطة الهلاك لا يتأتى له ذلك الا بالمخاطرة كأن يرمى بنفسه من
العربة الى الأرض في اثناء سير القطار
(أخيراً) أن ابليس وجنوده مستعدون لمرافقة المسافرين معهم
الى مدينة الهلاك

﴿ فويل للذين يتبعون ابليس ﴾

ويسرون في

﴿ طريق الاسترار ﴾



اعلان

عن سكة حديد

تحت ادارة المسيح وخدامه

تؤدي بمن يسير فيها الى الحياة الابدية

- (١) محطة الخطية
- (٢) » التوبة (بالندامة والاعتراف)
- (٣) » المغفرة
- (٤) » النعمة
- (٥) » القداسة
- (٦) » الغواية
- (٧) » الثبات
- (٨) » النجاة
- (٩) » النمو في النعمة (بالصوم والصلاة والتناول)
- (١٠) » الضيق
- (١١) » الانتصار
- (١٢) » السماء

تنبيهات

- (اولاً) قطارات المسيح تقبل الركاب من جميع الطبقات .
- (ثانياً) جميع القطارات تقف في محطة الغواية وكل من ينزل فيها يخسر حياته
- (ثالثاً) تسير قطارات هذه السكة زهراً
- (رابعاً) كل الركاب معرضون لهجمات كثيرة من اعداء المسيح غير انه لا يتركهم بل يحفظهم بعنايته . ومن يخطفه الشيطان لا يهمله الله بل يرسل له القطارات من آن الى آخر فاذا رضي ان يرجع للمسيح قبله بكل سرور
- (خامساً) مكتوب في كل محطة وعلى كل عربة وأمام كل مقعد من يرغب ان يسافر معي فليذكر نفسه ويحمل صليبه . مع ضمان الغنى والمجد والسعادة في النهاية
- (سادساً) ان الذين يصلون الى محطة السماء يسمح لهم بالدخول الى اورشليم السماوية التي أعدها المسيح للذين ثبتوا فيه وصبروا على احتمال التجارب
- (سابعاً) ان المسيح مستعد ان يزيل عن المسافرين اتعاب الطريق ويمسح كل دموعهم من عيونهم

(ثامناً) انهم يستحقون ان ينتسبوا لبنت المسيح الملكى
فهو يدعوهم اخوته ويتنازل ملك البرايا بان يتبناهم ويدعوهم
ابناءه الاحياء

(تاسعاً) وبهذه النسبة ينازل الميراث السماوى المجيد والاسم
الفاخر الجديد

(أخيراً) ان المسيح وجنوده مستعدون لمرافقة الذين يصلون
الى نهاية سيرهم بثبات واحتمال

﴿ فطوبى للذين يتبعون خطوات المسيح ﴾

ويسلكون في

﴿ طريق السماء ﴾



بعض آيات ذهبية مختارة من الكتاب المقدس

(١) طريق الخلاص (اع ١٦: ١٧)

« الله طريقه كامل . قول الرب نقي . ترس هو لجميع المحتمين به » (مز ١٨: ٣٠)
 « علمنى يا رب طريقك . واهدنى فى سبيل مستقيم » (مز ٢٧: ١١)
 « سلم للرب طريقك . واتكل عليه وهو يجرى » (مز ٣٧: ٥)
 « اخترت طريق الحق . جعلت احكامك قدامى .. فى طريق
 وصاياك أجرى لانك ترحب قلى » (مز ١١٩: ٣٠ و ٣٢)
 « أريتك طريق الحكمة . هديتك سبل الاستقامة » (ام ٤: ١١)
 « فى طريق العدل أتمشى . فى وسط سبل الحق » (ام ٨: ٢٠)
 « اسمع أنت يا أبنى وكن حكيماً وأرشد قلبك فى الطريق » (ام ٢٣: ١٩)
 « وسيروا فى كل طريق الذى أوصيكم به ليحسن اليكم » (ار ٧: ٢٣)
 « ما أضيق الباب واكرب الطريق الذى يؤدى الى الحياة » (مت ٧: ١٤)
 « لكى يهدي اقدامنا فى طريق السلام » (لو ١: ٧٩)
 « وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق » (يو ١٤: ٤)
 « فاذ لنا أيها الاخوة ثقة بالدخول الى الاقداس بدم يسوع .
 طريقاً كرسه لنا حديثاً حياً بالحجاب أى جسده » (عب ١٠: ١٩ و ٢٠)
 « قفوا على الطرق وانظروا واسألوا عن السبل القديمة أين هو
 الطريق الصالح وسيروا فيه فتجدوا راحة لنفوسكم » (ار ٦: ١٦)

(٢) طريق الابرار (مز ١: ٦)

« فقط أركبى طريقى قدامه » (اى ١٣ : ١٥)
 « أما الصديق فيستمسك بطريقه والطاهر اليدين يزداد قوة »
 (اى ١٧ : ٩)
 « الاله الذي ينطقنى بالقوة ويصير طريقى كاملاً » (مز ١٨ : ٣٢)
 « من هو الانسان الخائف الرب . يعلمه طريقاً يختاره » (مز ٢٥ : ١٢)
 « لم يرتد قلبنا الى وراء ولا مالت خطواتنا عن طريقك » (مز ٤٤ : ١٨)
 « طوبى للكاملين طريقاً السالكين فى شريعة الرب » (مز ١١٩ : ١)
 « حتى تسلك فى طريق الصالحين وتحفظ سبل الصديقين » (ام ٢ : ٢٠)
 « قلب الانسان يفسد فى طريقه والرب يهتدى خطواته » (ام ١٦ : ٩)
 « فان طرق الرب مستقيمة والابرار يسلكون فيها » (هو ١٤ : ٩)

(٣) طريق الاشرار (ام ١٢ : ١٦)

« ليكن طريقهم ظلاماً وزلماً وملاك الرب طاردهم » (مز ٣٥ : ٦)
 « والجهال من طريق معصيتهم ومن آثامهم يذلون » (مز ١٠٧ : ١٧)
 « أما طريق الاشرار فيعوجه » (مز ١٤٦ : ٩)
 « أما طريق الاشرار فكالظلام . لا يعلمون ما يعثرون به » (ام ٤ : ١٩)
 « شوك وفخوخ فى طريق الملتوى . من يحفظ نفسه يبتعد عنها »
 (ام ٢٢ : ٥)

« طريق السلام لم يعرفوه وليس في مسالكهم عدل . جعلوا
لأنفسهم سبلا معوجة . كل من يسير فيها لا يعرف سلاماً »
(اش ٥٩ : ٨)

« وانا ايضاً عني لا تشفق ولا اعفو . اجلب طريقهم على
رؤوسهم »
(حز ٩ : ١٠)

(٤) الطريقان (ام ٢٨ : ١٨)

« من يسلك بالاستقامة يسلك بالامان ومن يعوج طريقه
يعرف »
(ام ١٠ : ٩)
« الكامل يقوم طريقه أما الشرير فيسقط بشره » (ام ١١ : ٥)
« كراهة الرب ملتو القلب ورضاه مستقيم الطريق » (ام ١١ : ٢٠)
« البر يحفظ الكامل طريقه والشر يقلب الخاطئ » (ام ١٣ : ٦)
« حكمة الذي فهم طريقه . وغباوة الجهال غش » (ام ١٤ : ٨)
« طريق الكسلان كسياج من شوك وطريق المستقيمين منهج »
(ام ١٥ : ١٩)

قال الرب

« اعلمك وارشدك الطريق التي تسلكها . انصحك . عني
عليك »
(مز ٣٢ : ٨)
« وليس أحد صعد الى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن
الانسان الذي هو في السماء » (يو ٣ : ١٣)

سيظهر قريباً ان شاء الله كتاب

يسوع المصلوب

تأليف

المرحوم القس منسى يوحنا

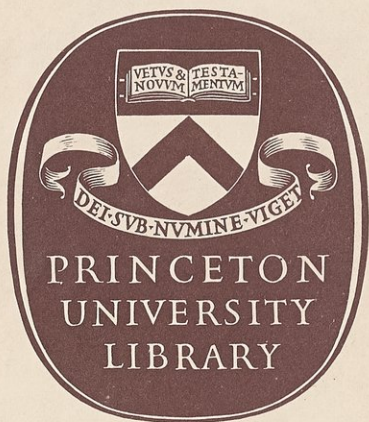
فهرس

صحيحة

- ٥ كلمة الجمعية
- ٧ كلمة عن المؤلف
- ١٦ دعاء
- ١٧ الفصل الاول . في الحياة الفانية والحياة الباقية
- ٢٥ الفصل الثاني . في ان هذه الحياة ليست نصيباً لنا
- ٣٠ الفصل الثالث . في اننا غرباء على هذه الارض
- ٣٧ الفصل الرابع . في حقيقة الموت
- ٤٩ الفصل الخامس . في خداع الدنيا وغرور الحياة
- ٦٤ الفصل السادس . في ان ظاهر الدنيا خلاف باطنها
- ٧٤ الفصل السابع . في انه لا سعادة في العالم
- ٨٥ الفصل الثامن . في سرعة زوال هذه الحياة
- ٩٥ الفصل التاسع . في فناء المجد العالمي وبطلانه
- ١٠٥ الفصل العاشر . في سرعة اضمحلال ايجاد العالم
- ١١٤ الفصل الحادي عشر . في ضرورة الاستعداد للموت
- ١٢٤ الفصل الثاني عشر . في عبرة الموت
- ١٣٤ الفصل الثالث عشر . في عبرة زيارة المدافن
- ١٤٩ الفصل الرابع عشر . في عبرة الابدية
- ١٥٧ الفصل الخامس عشر . في انتقال الصالح

- ١٧٢ الفصل السادس عشر . في موت الأنيم
- ١٨٢ الفصل السابع عشر . في ان توبة الخاطيء عند الموت
لا تقبل غالباً
- ١٩٦ الفصل الثامن عشر . في ان يوم الموت يأتي بغتة
- ٢٠٦ الفصل التاسع عشر . في وجوب اغتنام الفرصة
- ٢١٧ الفصل العشرون . في قيامة الاموات
- ٢٢٩ الفصل الحادى والعشرون . في يوم مجيء الرب العظيم الثانى
- ٢٣٩ الفصل الثانى والعشرون . في الدينونة العامة
- ٢٦٦ الفصل الثالث والعشرون . في افتضاح المنافقين
- ٢٨٠ الفصل الرابع والعشرون . في صعوبة الانفصال الابدى
- ٢٩٢ الفصل الخامس والعشرون . في النهاية المريعة
- ٣٠٦ الفصل السادس والعشرون . في انه لا رحمة بعد الحكم
- ٣٢٤ الفصل السابع والعشرون . في صعوبة العذاب الابدى
- ٣٣٦ الفصل الثامن والعشرون . في الابدية الخيفة
- ٣٤٧ الفصل التاسع والعشرون . في سعادة الابرار ومجد القديسين
- ٣٦١ الفصل الثلاثون . تأملات روحية
- ٣٦٦ الخاتمة . طريق السماء
- ٣٧٥ اعلان عن سكة حديد تحت ادارة ابليس واعوانه
- ٣٧٨ اعلان عن سكة حديد تحت ادارة المسيح وخدامه
- ٣٨١ بعض آيات ذهبية مختارة من الكتاب المقدس

کتابخانه
مکتب
مکتب
مکتب





32101 099420968

BX136

.2

.Y83

مكتبة جمعية المحبة القبطية الأرثوذكسية

بشارع سمعان بشبرا مصر

يسر جمعية المحبة القبطية الأرثوذكسية بالقاهرة ان ترف الى الشعب القبطى الكريم بشرى تحقيق امنية طالما ترددت فى صدر كل أرثوذكسى غيور على مجد كنيسته ورفع شأن طائفته فقد اعانها الرب وانشأت فى عام ١٩٣٤ مكتبة قبطية جامعة تحوي طائفة كبيرة من انفس الكتب الدينية بأنواعها من روحية وعقائدية وكنسية وتفسيرية وتعليمية وتاريخية وكتب لتعليم اللغة القبطية وترانيم ومدائح وخولاجيات وابروسات ومردات واجبيات ونتائج وروايات وصور دينية بديعة الرسم متقنة التصوير من مقاسات مختلفة

وتباع هذه الكتب بأسعار زهيدة جداً فى مكتبة الجمعية بمصر ولدى الموزعين وأصحاب المكاتب فى الجهات وقد اصدرت الجمعية قائمة عن اسماء واسعار الكتب ومستعدة لارسالها مجاناً الى كل من يطلبها

وللجمعية كل الثقة وعظيم الرجاء فى ان يوالى افراد الشعب الكريم تشجيعها فى هذا المشروع كما سبق أن تكرموا بتشجيع مشروعاتها الجليلة المتنوعة